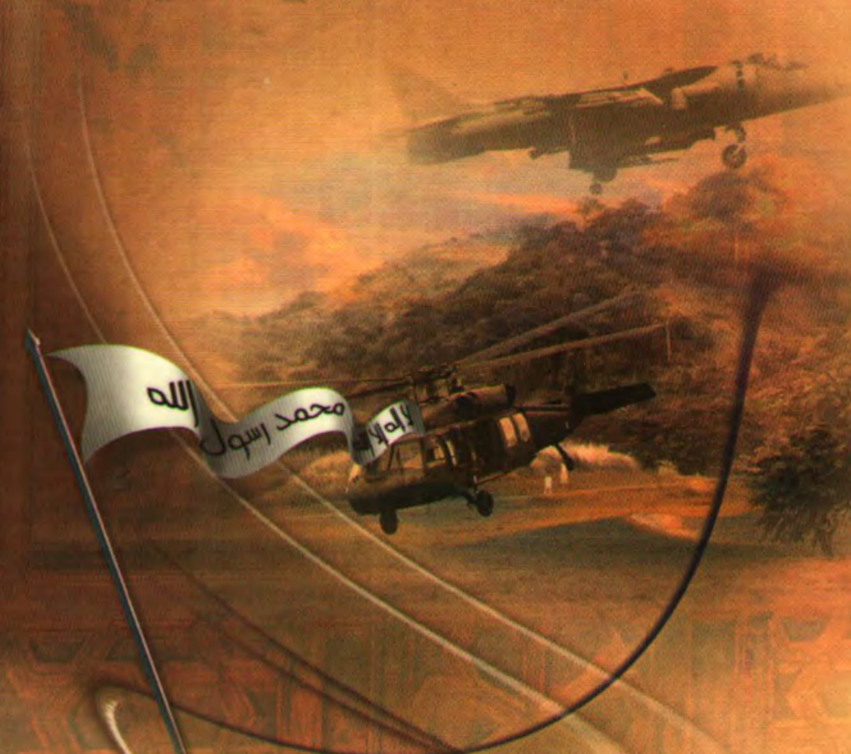
سلسلة ذاكرة الأمة ٤

تاريخ الحروب الدينية المعاصرة

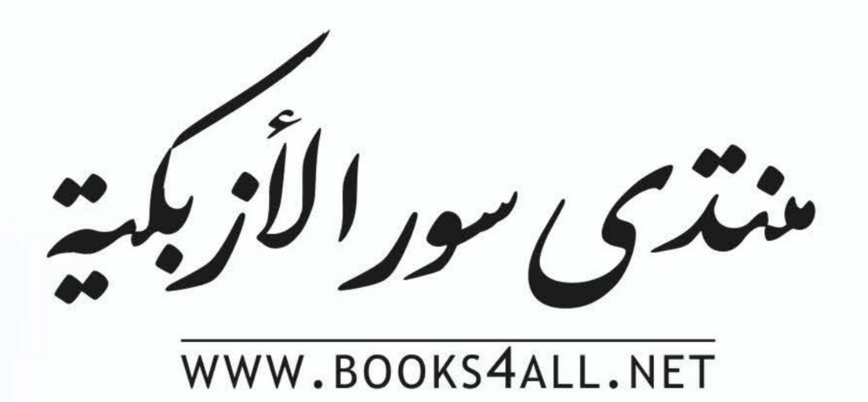
وحركات التحرير الإسلامية



تأليف

شريف عبد العزيز الزهيري

دار الصفوة


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

تاريخ الحروب الدينية المعاصرة

وحركات التحرير الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رقم الإيداع

٢٣٢٩٧ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولي

977-430-071-8



٤٢ ش جزيرة بدران شبرا ت وفاكس ٢٥٧٧٤٩٢١

E-mail. darelsafwah@yahoo.com

تاريخ الحروب الدينية المعاصرة

وحركات التحرير الإسلامية

تأليف

شريف عبد العزيز الزهيري





مُقدِّمة

إن الحمد لله .. نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد.

لقد تعرضت الأمة الإسلامية في القرون الثلاثة الأخيرة لسلسلة متتالية من الهجمات العنيفة التي شنها الغرب الأوروبي تحت اسم برّاق وخادع هو اسم «الاستعمار»، وهذه الحملات العدائية لم يسلم منه بلد مسلم على وجه الأرض تقريبًا، هذه الحملات الأوروبية المعاصرة لا تختلف كثيرًا عن الحملات الصليبية المروعة التي شنتها أوروبا على العالم الإسلامي في العصور الوسطى والتي شغلت حيز القرنين من الزمان على أرض مصر والشام [٤٨٩هـ - ٦٩١هـ] فلقد كان الدافع الديني والحقد العقائدي هو المحرك الأول للحملات القديمة والحديثة، وإن كان هذا الدافع جليًا في الحملات الأولى، إلا إنه قد طمس عمدًا من أجل التضليل والخداع في الحملات المعاصرة، وأصبحت هذه الحملات والحروب تشن تحت مسميات أخرى مثل «الاستعمار»، «توسعة مناطق النفوذ»، «السيطرة على الممرات والمضايق»، «الكشوف الجغرافية» ... إلى آخر هذه المسميات الكاذبة، وأعجبها حقًا هو نشر الحريات

والديمقراطية في دول العالم الإسلامي.

والحقيقة التاريخية الثابتة التي مهما حاولت آلة الدعاية العدائية للعالم الإسلامي طمسها أو محوها ستظل ثابتة لا تقبل الجدال ولا المشاحاة، هذه الحقيقة أن كل الحروب التي شنها الغرب الأوروبي وغيره على العالم الإسلامي كانت حروبًا دينية صليبية في المقام الأول، يشعل فتيلها الحقد الديني والخلاف العقدي، ويأتي بعد ذلك بصورة ثانوية ولخدمة الغرض الأصلي الدوافع السياسية أو الاقتصادية أو الديموغرافية، إلى آخر هذه المبررات التي يسوقها الغرب ويروج لها باعتبارها دوافع أساسية ورئيسة في الصراع.

وفي سلسلة ذاكرة الأمة، وفي هذا الكتاب سنتناول بالعرض والتحليل التاريخي سير الحملات الصليبية المعاصرة على العالم الإسلامي، والدوافع الحقيقية لهذه الحملات، ومظاهر العداء الديني ضد المسلمين، والبربرية والهمجية والوحشية البشعة التي تعامل بها الغرب المتحضر مع العالم الإسلامي، وسنعرض أيضًا في دراستنا هذه لتاريخ حركات التحرر في البلدان الإسلامية والتي قادها في أغلب الأحوال العلماء وأبطال الجهاد الخالص، ونعرض بعض النماذج الفذة في التضحية والفداء التي قدمها المسلمون من أجل الدفاع عن بلادهم ومقدساتهم، كما نعرض أيضًا للتعاون الوثيق الذي تم بين المحتل الصليبي الأجنبي والأحزاب والقيادات العلمانية في بلاد الإسلام، وذلك من أجل تهيئة الأجواء وتسليم دفة الحكم لهذه الأحزاب

والشخصيات المشبوهة، وبالتالي تبقى البلاد الإسلامية أسيرة الاحتلال الأجنبي ولكن بالوكالة.

والقصد من ذلك كله تعريف المسلمين بطبيعة هذا الصراع الأبدي الذي لم يخلُ منه عصر ولم يسلم منه بلد مسلم، وكشف الشبهات ودحض الأباطيل والأكاذيب التي تملأ حياة المسلمين وعقولهم، وذلك في ضوء آية محكمة في كتاب الله عز وجل، وهي قوله جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥].

فالله أسأل أن يتقبل هذا العمل ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

الفصل الأول

الاحتلال الفرنسي للجزائر

في بداية الحديث عن تاريخ الحروب الدينية المعاصرة لا يسعنا إلا أن نبدأ بالاحتلال الفرنسي لبلاد العالم الإسلامي؛ وذلك لأسباب كثيرة، من أهمها أن للفرنسيين تاريخًا طويلاً ومعقدًا في محاربة العالم الإسلامي والعدوان عليه، فلقد كان الفرنسيون هم أول الشعوب الأوروبية استجابة لنداء الحملات الصليبية الذي أطلقه بابا روما أصلاً من مجمع كليرمونت بفرنسا سنة ٤٨٥هـ والفرنسيون أيضًا هم أكثر الشعوب الأوروبية اشتراكًا في تلك الحملات، وملوك وأمراء فرنسا هم قادة أغلب الحملات الصليبية، كما أن الاحتلال الفرنسي الصليبي يحمل في طياته كل عناصر الكراهية والحقد؛ من صليبية مقيتة، واستعلاء عنصري، ونرجسية ثقافية، وشراهة لخيرات العالم الإسلامي.

كما أن الاحتلال الفرنسي قد مارس بحق المسلمين أبشع صور الاضطهاد، وكلما وطئ الفرنسيون بلدًا حاولوا طمس هوية أهله ومحو ثقافتهم ولغتهم وتاريخهم، وبعبارة كلية تذويب هذه المجتمعات المسلمة و"فرنستها" بالكلية، وقد قاموا في سبيل ذلك بأبشع وأشنع الجرائم التي يندى لها جبين البشرية، والتي هي خير شاهد على مدى وحشية وبربرية المحتل الفرنسي شديد الصليبية.

وتعتبر بلاد الجزائر أوضح النماذج على السياسة الصليبية المحضة التي انتهجها الاحتلال الفرنسي والتي قدم من أجلها على مذبح الحرية دماءَ مليون جزائري راحوا ضحية الأحقاد الصليبية للفرنسيين.

*** بلاد الجزائر والأطماع الصليبية:**

منذ أن سقطت دولة الإسلام في الأندلس سنة ٨٩٧هـ وانطلق نصارى أوروبا عامة وإسبانيا والبرتغال خاصة نحو سواحل العالم الإسلامي مدفوعين بشحنات الحقد الصليبي الذي تراكم عبر مئات السنين، وكانت منطقة الجزائر - أو ما يعرف بالمغرب الأوسط - في مرمى الأطماع الصليبية لطول سواحلها وكثرة موانيها التي تسيطر على الحوض الأوسط للبحر المتوسط، وغناها الوفير بالموارد الطبيعية.

وقد انطلقت السفن الإسبانية خلف مسلمي الأندلس الفارين بدينهم إلى إخوانهم في الشمال الإفريقي، وسيطر الإسبان على موانئ وهران والجزائر والمرسى الكبير وبجاية، فردَّ مسلمو الجزائر على ذلك العدوان الصليبي، ونشأت في ذلك البحر حروب طاحنة وشهيرة بين الجزائر وإسبانيا استمرت لفترة طويلة، حتى ظهرت شخصية البطل الكبير والشهيد السعيد - فيما نحتسبه عند الله عز وجل - القائد عروج وأخيه خير الدين باربروسا، وكانا من البحارة المغامرين الذين نذرا أنفسهما لخدمة الإسلام ومحاربة النصارى عامة والإسبان خاصة.

وقد استطاع عروج أن ينزل الهزائم المروعة بالإسبان، الواحدة تلو الأخرى،

وصد هجومًا إسبانيًّا ضخمًا على الجزائر سنة ٩٢٢هـ ولكنه لما رأى تفرق زعماء البلاد واقتتالهم على الحكم وضعفهم وتفرقهم واستعانة بعضهم بالإسبان قرر العمل على ضم الجزائر للدولة العثمانية وقتها، واستولى على مدينة الجزائر وجعلها قاعدته البحرية ومركز حكمه، وذلك سنة ٩٢٣هـ ولكنه ما لبث أن استشهد في القتال ضد الإسبان سنة ٩٢٤، فتولى قِيادة العمل الجهادي بعده أخوه خير الدين باربروسا الذي أثبت أنه واحد من أعظم بحَّارة الإسلام على مر العصور.

*** الجزائر تحت الحكم العثماني:**

واجه خير الدين صعوبات جمة من أجل تثبيت الحكم العثماني بالجزائر؛ إذ وجد نفسه مضطرًا للعمل ضد الكثير من الخصوم، ليس من الإسبان الصليبيين وحدهم، ولكن من زعماء الإمارات الصغيرة مثل بني زيان والحفصيين وزعماء البربر، ودعمته الدولة العثمانية بقوة أيام حكم السلطان سليمان القانوني.

كانت جهود خير الدين مقتصرة على الأجزاء الشمالية من الجزائر، إلا أن الذين خلفوه قد توسعوا نحو الجنوب وأحكموا سيطرتهم على الداخل الجزائري، وكان حاكم الجزائر يعرف باسم «بيلربك» أي رئيس البكوات، ومع مرور الوقت أصبح يحكمها رئيس الجند المعروف بالداي، وذلك منذ سنة ١٠٧٠هـ.

وعلى الرغم من وجود والي عثماني برتبة باشا ترسله الدولة العثمانية كل ثلاث سنوات إلا أن حكم الداي كان هو الحقيقي والمسيطر على الوضع، وفي سنة ١١٢٢هـ

قام داي الجزائر بطرد الوالي العثماني، ومن يومها أصبح الداي هو المتصرف الوحيد في الجزائر، وظل هذا الوضع قائمًا حتى الاحتلال الفرنسي للبلاد.

*** أوروبا تتحرش بالجزائر:**

في تلك الفترة التي كانت الجزائر فيها ولاية عثمانية شبه مستقلة تحت حكم الدايات العسكري بلغت الجزائر أوج قوتها، وذلك بفضل قوتها البحرية الكبيرة؛ إذ كان أسطولها هو الأقوى والأكبر في الحوض الأوسط للبحر المتوسط، لذا فقد أجبرت العديد من الدول الأوروبية مثل إيطاليا وإسبانيا وألمانيا وغيرهم على دفع الجزية للجزائر، حتى إن الولايات المتحدة نفسها ـ وكانت وقتها تحبو للظهور على ساحة الأحداث ـ دفعت الجزية للجزائر، وتسابقت الدول الأوروبية على كسب ود الجزائر لتأمين طرق التجارة والمواصلات البحرية التي تسيطر عليها الجزائر.

ومع النهضة الصناعية التي حدثت في أوروبا والتقدم التقني الكبير الحادث بها، ومع الضعف الشديد الذي اعترى الدولة العثمانية الكابوس الذي ظل يؤرق مضاجع الأوروبيين لقرون عديدة، أخذت أوروبا تثور على هذا الوضع المهين لها مع الجزائر، فتحالف الإنجليز والهولنديون أولاً وهاجما الأسطول الجزائري سنة ١٢٣٠هـ ثم هاجم الأسطول الإنجليزي وحده الجزائر سنة ١٢٤٠هـ ثم اتفق الأسطولان الإنجليزي والفرنسي وغدرا بالأسطول الجزائري سنة ١٢٤٢هـ، وأصبحت الجزائر دون أسطول يحمي سواحلها، وفقدت أهم دفاعاتها، وغدت سواحل الجزائر الطويلة مفتوحة لسدنة الصليبية العالمية، يتصارع عليها أقطاب الاحتلال الأوروبي.

*** الاحتلال الفرنسي وحجة الذئب:**

كانت الدول الأوروبية كلها تتحرش بالجزائر وتخطط لاحتلالها، ولكن كانت فرنسا من دونهم أشدهم رغبة في ذلك لتعويض خسائرها الفادحة في الحروب النابليونية ضد إنجلترا وغيرها، كما أن فرنسا كانت تعاني من ضغط داخلي كبير متمثل في ضعف الحكومة وفشل سياستها الداخلية، وكثرة عدد السكان الفرنسيين، وضيق مساحة فرنسا، وضعف مواردها الطبيعية، وقبل ذلك كله الحقد الصليبي الدفين والموروث منذ أيام الحملات الصليبية الأولى.

تذرعت فرنسا بحجة واهية من أجل تبرير احتلالها الغاشم للجزائر، وهي حجة أقرب ما تكون لحجة الذئب والحَمَل، وذلك أن بعض التجار الفرنسيين قد اشترى قمحًا من أحد التجار اليهود الجزائريين واسمه «بقرى أبو جناح»، ثم ماطلوا في السداد، وتدخل حسين باشا داي الجزائر بنفسه في القضية، وطلب من قنصل فرنسا بالجزائر سرعة سداد الدين عدة مرات، ثم كتب الداي حسين باشا بنفسه إلى ملك فرنسا وقتها نابليون الثالث، فأوعزت فرنسا لقنلصها بالجزائر أن يتعمد إهانة الداي حسين باشا ليكون ذلك سببًا وحجة تتذرع بها فرنسا للهجوم على الجزائر.

وبالفعل في ١ شوال سنة ١٢٤٢هـ ذهب القنصل إلى قصر الداي حسين باشا بحجة التهنئة بعيد الفطر، وتطرق الكلام عن دين اليهودي بقرى أبو جناح، وسأل الداي حسين باشا القنصل عن سبب عدم رد ملك فرنسا على رسالة الداي، فرد

القنصل بقوله: «إنه ملك ويجب مخاطبته عن طريق الخليفة وليس أحد عماله»، فغضب حسين باشا ولطم القنصل على وجهه بمنشة ذباب في يده، وطرده من القصر.

تذرعت فرنسا بهذه الحجة الواهية وحشدت قواتها واستعدت للهجوم على الجزائر، ورفضت كل الجهود السياسية التي بذلتها الدولة العثمانية لوقف هذا العدوان غير المبرر، وفي سنة ١٢٤٦هـ أرسلت فرنسا ١٠٢ سفينة حربية و٤٠٠ سفينة نقل تحمل ٤٠ ألف جندي بالعتاد الكامل والسلاح الثقيل، ونزلوا على البر الجزائري في ١٤ محرم سنة ١٢٤٦هـ عند منطقة سيدي فرج، وهزمت قوات الداي حسين باشا، واحتلت الجزائر العاصمة لتبدأ فصول ملحمة المقاومة الجزائرية التي هي الأكبر والأروع في تاريخ مقاومة الاحتلال في العصر الحديث.

*** السياسة الصليبية للاحتلال الفرنسي:**

لم يكن هدف فرنسا من احتلالها للجزائر - ولا لأي دولة أخرى مسلمة - التخلص من سداد بعض ديونها أو توسعة مناطق نفوذها أو حتى نهب خيرات المسلمين وثرواتهم واستعباد الشعوب، فكل ذلك أهداف ثانوية أو مرحلية ويسهل تحقيقها بأدنى قتال، ولكن فرنسا دائمًا كانت مدفوعة بكراهية وحقد شديدين على العالم الإسلامي، تغذيها شحنات التحريض الكنسي المستمرة من الرهبان والقساوسة الذين فشلوا فشلاً ذريعًا في تنصير المسلمين، ونظروا إلى الإسلام على أنه من وراء فشلهم، فصبوا جام حقدهم على أهله.

فانطلق الفرنسيون بكل بربرية ووحشية ينكلون بالمسلمين، وقد أطلقوا لأحقادهم العنان، فكانت المجازر التي ارتكبها المحتل الفرنسي الصليبي هي الأبشع في تاريخ الاحتلال المعاصر.

وقد تركزت السياسية الصليبية للاحتلال الفرنسي في عدة محاور كالآتي:

أولاً: السيطرة على المساجد:

منذ أن دخل الفرنسيون الجزائر وضعوا نصب أعينهم أهم مراكز الإشعاع في حياة المسلمين وهي المساجد، فلقد أمر القائد الفرنسي «دوفيجو» بتحويل أكبر مساجد العاصمة إلى كنيسة، وهو تقليد متبع وموروث منذ أيام الحملات الصليبية الأولى، وهو دليل ظفر الصليبية على الإسلام، فاقتحم الجنود الفرنسيون الجامع وقت صلاة الجمعة وكان به أربعة آلاف مُصَلٍّ، قتلوا جميعًا بحراب البنادق.

وظل الفرنسيون يقلصون من عدد المساجد والجوامع؛ بتحويل بعضها إلى مخازن أو ثكنات أو حتى اصطبلات للخيل والدواب، ويكفي للتدليل على ذلك أن مدينة الجزائر العاصمة يوم استولى عليها الفرنسيون سنة ١٢٤٦هـ كان بها ١٠٦ جامع ومسجد، لم يبق منها يوم الاستقلال سنة ١٣٨٢هـ سوى ٨ مساجد.

ثانيًا: مصادرة الأوقاف الإسلامية:

عندما احتل الفرنسيون الجزائر العاصمة وقَّعوا اتفاقية مع الداي حسين باشا تنص على احترام الشريعة الإسلامية، ولكن الاحتلال الصليبي المعروف بغدره ونقضه للعهود لم يصبر حتى يجف مداد الاتفاقية، حتى أصدر الحاكم العام العسكري

«دوبومون» أمرًا بمصادرة الأوقاف الإسلامية التي كانت تمثل المصدر الرئيس لتمويل المؤسسات الدينية من جوامع ومدارس وكتاتيب ودور للأيتام وجمعيات خيرية.

وبتلك المصادرة وجه المحتل الفرنسي ضربة قاسمة لتلك المؤسسات كلها، ووضعها تحت سيطرته وتحكمه، وتخيل أن المحتل الصليبي الحاقد هو الذي يعين أئمة الجوامع ومدرسي العلوم الشرعية والخطباء والوعاظ!! وهل رعى الذئب يومًا الحملان؟! فكان الفرنسيون يعينون أشخاصًا جهلة يسيئون إلى الإسلام ويجعلونه سخرية للسامعين، وقد أصدروا سنة ١٣٢٣هـ قانونًا لفصل الدين عن الدولة لتكريس تغييب المسلمين عن دينهم، وبعدها أخذ الفرنسيون في التصرف في الأوقاف بالبيع والشراء حتى فيما هو محرم، فتم تحويل كثير من الأوقاف إلى مراقص وحانات وملاه، وحتى بيوت للدعارة.

ثالثًا: فتح المجال للحملات التنصيرية:

كانت الدول الأوروبية عامة وفرنسا خاصة تقرن حملاتها العسكرية بأخرى من نوع آخر، ألا وهي البعثات التنصيرية، فالراهب والقس كان جنبًا بجنب مع الجندي المقاتل، كلاهما يحمل سلاحه الخاص الذي يحارب به المسلمين، وعندما احتل الفرنسيون الجزائر ظنوا أن مهمة تنصير المسلمين بها سلهة لسذاجة أهلها وغلبة البداوة عليهم، فأغرقوا البلاد بالإرساليات الكاثوليكية، وزودوهم بالإمكانات الكبيرة والأموال الطائلة التي يسيل لها لعاب الفقراء والبدو الرحل.

ولقد باءت هذه الحملات التنصيرية بفشل ذريع أجج الأحقاد الصليبية عند المحتل الفرنسي الذي ترجمه في صورة مجازر بشعة ووحشية لم تعرف البشرية مثلها، وكان القساوسة والرهبان يعزون فشلهم في تنصير المسلمين إلى الإسلام نفسه ورجاله الممثلين في أئمة المساجد والعلماء وشيوخ الكتاتيب، مما جعل الاحتلال الصليبي يصب جام غضبه على هذه الفئات بعينها.

رابعًا: ترويج الفواحش:

المحتل الصليبي الفرنسي عمد إلى نشر الفواحش والمفاسد في أي بلد حط فيه واحتله، فهم ليسوا كما تروج آلة الإعلام الكاذبة يستعمرون البلاد لإخراجها من الفقر والتخلف ونشر الحضارة والرقي، بل يخربونها بالخمَّارات وأصحاب الرايات والمراقص والملاهي وتسهيل الفواحش والتحلل من أي قيم ومبادئ، ليحطموا أعز ما يملك المسلمون؛ دينَهم وإيمانَهم وعفافَهم.

وهي سياسة قديمة عند المحتل الصليبي؛ فلقد ذكر المؤرخون ـ أمثال ابن الأثير وعلم الدين البرزالي وأبي شامة ـ أن الحملة الصليبية الثالثة على الشام سنة ٥٨٤هـ والتي كان يقودها ملك فرنسا «فليب أوغسطس» قد اصطحبت معها ثلاثمائة داعرة فرنسية من أجل الترفيه عن الجند ومخالطة المسلمين وإفسادهم، وهذا ما فعله المحتل الفرنسي المعاصر بأي بلد مسلم احتله.

ولقد نجح المحتل الصليبي في سياسته هذه إلى حد بعيد، وما زالت البلاد المسلمة التي كانت واقعة تحت الاحتلال الفرنسي تعاني من ذلك، وآثار هذه السياسة الخبيثة

ما زالت ضاربة في بلاد المغرب عمومًا وتونس على وجه الخصوص.

خامسًا: خلخلة التركيبة السكانية:

كانت فرنسا تعاني من كثافة سكانها مع ضيق مساحة الأرض، وفي نفس الوقت أرادت أن تصبغ كل البلاد التي احتلتها بما في ذلك المسلمة وغير المسلمة على حد السواء بالصبغة الفرنسية الخالصة، وهي السياسة التي عرفت بـ«الفَرْنَسَة»، فاتبعت فرنسا سياسة الاستيطان الإجباري للفرنسيين في الجزائر، ووزعت أملاك الجزائريين من أراضٍ وعقارات على الوافدين الجدد بالمجان شريطة الاستقرار في الجزائر.

وشيئًا فشيئًا أخذ المستوطنون الفرنسيون في التوغل نحو الداخل بعد أن ملئوا الساحل، ولا يمنع المستوطن الفرنسي من بيع أرضه لمسلم أو عربي إلا أن يكون غير مسلم، فتدفق مئات الآلاف من الفرنسيين وغيرهم على بلاد الجزائر طمعًا في نهب خيراتها، حتى إن المستوطنين الأجانب كانوا يملكون ١٥٠ ألف هكتار من الأراضي الخصبة سنة ١٢٦٦هـ، ثم أصبحت هذه المساحة ٣ مليون هكتار سنة ١٣٧٤هـ، وهو ما يعادل ١٥٪ من المساحة الكلية للأراضي المزروعة بالجزائر، في حين أن نسبة المستوطنين أقل من ١٠٪ من أهل البلاد، وهذه السياسة الخبيثة أدت لإفقار المسلمين وضعفهم وعجزهم عن تنظيم صفوفهم لمقاومة الاحتلال الفرنسي لبلادهم.

سادسًا: طمس الهوية:

كان الاحتلال الصليبي الفرنسي أسوأ أنواع الاحتلال الذي أصاب العالم الإسلامي، في حين كان الإنجليزي أخبثه، فلقد كان المحتل الفرنسي يعمد بكل قسوة

وبكل وسيلة إلى طمس هوية البلاد المسلمة التي يحتلها، ويتعاملون مع هذه القضية بمنتهى الشدة والعنف، بل إن معظم مجهوداتهم كانت توجه لصالح هذه السياسة، لذلك عمل المحتل الفرنسي عند احتلال الجزائر على محاربة اللغة العربية التي هي لغة القرآن والإسلام، من أجل قطع علائق الجزائريين بإسلامهم وعروبتهم.

فعملوا على فرض اللغة الفرنسية لغةً رسميةً للتعامل في المصالح والدوائر الحكومية والمدارس والجامعات ووسائل الإعلام، وجعلوا الوظائف الرسمية قاصرة على من يجيد الفرنسية، وبالتدريج أخذت الفرنسية تحل محل العربية، حتى غدت هي الوحيدة والرسمية، حتى الجزائريون أنفسهم أصبحوا لا يتحدثون فيما بينهم وفي حياتهم اليومية إلا بها، وغدت الفرنسية لغة الشعب، وبعُد الناس عن دينهم كثيرًا بسبب ذلك الطمس الشرس للهوية العربية والإسلامية.

والنتيجة ..

ظل المحتل الفرنسي يطبق هذه السياسة الصليبية القبيحة بمنتهى القسوة والشدة، وبكل فجاجة ووحشية، مما أسفر مع مرور الوقت وفشل حركات المقاومة الواحدة تلو الأخرى ـ أسفر عن فقدان الجزائريين لقوام حياتهم من ثروة وأملاك ولغة وتعاليم دينهم، فأصبحوا فقراء مشردين ينتشر بينهم الجهل والتخلف والمرض، وابتعدوا كثيرًا عن دينهم وأصبحوا كالغرباء لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، في حين نظر إليهم الفرنسيون نظرة امتهان واستعلاء واعتبروهم خدمًا لهم.

حركات التحرير الجزائرية

لم يكن احتلال فرنسا للجزائر بالسهل اليسير، ولم يكن طريق الصليبي الفرنسي مفروشًا بالورود، فلقد أبدى مسلمو الجزائر بسالة فائقة ومقاومة مستميتة في الدفاع عن بلادهم، وضربوا في هذا السبيل أروع الأمثلة في البطولة والتضحية، ويكفي لمعرفة ذلك أن الفرنسيين نزلوا سواحل الجزائر في ١٤ محرم سنة ١٢٤٦هـ ولكنهم لم يستطيعوا أن يحتلوا البلاد إلا سنة ١٢٥٥هـ وبعد معارك ضخمة وطاحنة مع مسلمي الجزائر.

ولقد انطلقت حركات المقاومة الجزائرية للمحتل الصليبي الفرنسي من أول يوم لدخوله البلاد، وكانت هذه الحركات كلها تنظر للفرنسيين على أنهم صليبيون جاءوا للقضاء على الإسلام وأهله ليس إلا، مما أضفى على الصراع صبغة دينية صرفة، وكان كلا الطرفين ـ الفرنسي الصليبي والجزائري المسلم ـ ينظر للقتال فيما بينهما من هذه الزاوية لا غير، من ثم كانت الحروب والمعارك بين الطرفين من أجلى نماذج الحروب الصليبية في العصر الحديث، أما عن أبرز حركات المقاومة الجزائرية والتي وقفت موقفًا بطوليًا أمام المحتل الفرنسي شديد الصليبية فهي كما يلي:

❑ حركة ابن زعمون:

كان ابن زعمون رئيسًا لقبيلة «فليسة» الواقعة قريبًا من مدينة «بليدة»، وكانت هذه المدينة قد استعصت على الفرنسيين مدة من الزمان، فحشد القائد الفرنسي

«دوبورمون» جيشًا قويًا واستعد لاقتحامها، فكتب إليه «ابن زعمون» يحذره من ذلك، فاستخف الصليبي بكتابه وواصل سيره، فاصطدم مع قوات ابن زعمون التي أنزلت به هزيمة منكرة سنة ١٢٤٩هـ، مما أدى لزيادة قوة ابن زعمون وانضمت إليه القبائل المجاورة له، فاستعد الفرنسيون لمعركة فاصلة مع ابن زعمون، واقتحموا مدينة (بليدة) في ١٢ رجب سنة ١٢٤٩هـ ـ ١٨٣٠م، ودارت معركة حامية بين الفريقين أبيد فيها شطرًا كبيرًا من الجيش الفرنسي، فاضطروا للانسحاب إلى الجزائر العاصمة، وحشدوا قوات ضخمة معززة بالمدفعية الثقيلة والمركبات، وعاودوا الهجوم على قوات ابن زعمون التي قد تحرك شطر منها لمساعدة المجاهدين في سهل «المتيجة»، فاستطاع الجيش الفرنسي الضخم أن يشتت قوات ابن زعمون الباقية، وأصيب ابن زعمون بإصابات بالغة، وانتهت هذه الحركة سريعًا، ولكنها أيقظت الحمية الجهادية عند القبائل المنتشرة في وسط الجزائر وغربه.

❑ حركة الأمير عبد القادر الجزائري :

وهي الحركة الأكبر والأشهر والأقوى والأطول في تاريخ حركات التحرير الجزائرية، وقائدها الأمير عبد القادر بن محيي الدين الحسني الجزائري هو رمز المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي الصليبي، وتبدأ هذه الحركة عندما اجتمع شيوخ المرابطين وتشاوروا فيما بينهم في كيفية التصدي للاحتلال الصليبي الذي حل ببلادهم، فأشار عليهم الشيخ محيي الدين بن مصطفى الحسني ـ وهو والد الأمير عبد القادر ـ بالتوجه إلى إخوانهم بالمغرب، ففعلوا وجاء رد فعل سلطان المغرب عبد

الرحمن بن سليمان طيبًا للغاية ويعبر عن وحدة المسلمين وأخوة الدين؛ إذ أرسل إليهم خمسة آلاف مقاتل بقيادة ولده الأمير علي، وأمدهم بمساعدات قوية.

فبايعوا الشيخ محيي الدين أميرًا على الجهاد ضد الصليبيين، وكان شيخًا كبيرًا فقادهم سنتين ١٢٤٦هـ - ١٢٤٨هـ ثم تنازل عن القيادة لولده عبد القادر، وكان وقتها في السادسة والعشرين من العمر.

بويع عبد القادر الجزائري أميرًا للجهاد في ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٤٨هـ ولم يدخل في هذه البيعة العديد من شيوخ القبائل أمثال «مصطفى ود إسماعيل» زعيم قبائل الدوائر والزمالة، وسيدي العريبي والفهاري رئيس قبائل أنجاد وغيرهم؛ لأسباب تتعلق بالسن والحسد والعصبية القبلية أو حب الزعامة، وكان هؤلاء الخصوم أشد على حركة عبد القادر الجزائري من الفرنسيين أنفسهم، وقد اضطر لقتالهم مرات كثيرة، وخسرت المقاومة الإسلامية بسبب الحسد وحب الزعامة الكثير من الأموال والرجال، بل إن بعض هؤلاء الزعماء قد تحالف مع الفرنسيين ضد عبد القادر وحركته، مما أثر كثيرًا على حركة عبد القادر، وكان ذلك من أهم أسباب فشلها في النهاية.

أعلن عبد القادر الجهاد سنة ١٢٤٨هـ وانضمت إليه معظم القبائل الجزائرية وبقايا الحامية العثمانية التي كانت موجودة في الجزائر وقتها، فاتبع عبد القادر سياسة الجهاد والمقاومة بالبناء وتكوين الدولة على النظم الحديثة، فكان هو بمثابة الرئيس

للوزراء وله نائب ووزراء للخارجية والخزانة والأوقاف والزكاة والدفاع، واختار مجلسًا للحل والعقد يتألف من أحد عشر عضوًا يمثلون مختلف الأقاليم، ومجلسًا للقضاء، ورتب الجيش ترتيبًا جيدًا وقسمه وفقًا للنظم القتالية الحديثة، ووضع الحاميات العسكرية في المدن، وأنشأ معامل لصنع الأسلحة، واختار زيًا خاصًا لجيشه، وضرب نقودًا سماها المحمدية، وأقام علاقات كاملة مع سلطان المغرب الذي دعم حركة الأمير عبد القادر بكل قوته.

اتخذ الأمير عبد القادر من مدينة «المعسكر» بالقرب من وهران عاصمة له وقاعدة انطلقت منها كتائب المجاهدين، وأخذت المقاومة تحقق الانتصار تلو الآخر على الصليبيين والقبائل الموالية لهم على حد السواء، مما أجبر الفرنسيين على توقيع معاهدة مع الأمير عبد القادر لوقف القتال وتبادل الأسرى، فاغتاظ الصليبيون في فرنسا من هذه المعاهدة، فعزلوا الجنرال دي ميشيل مُوَقِّعها، وعينوا مكانه الجنرال «ديرلون» الذي ألغى المعاهدة السابقة واستغل فرصة انشغال الأمير عبد القادر بقتال خصومه من زعماء القبائل المنافسين، وحشد جيشًا ضخمًا وانقض على جيش الأمير عبد القادر عند نهر المقطع قرب الساحل سنة ١٢٥١هـ غير أن عبد القادر قد حقق انتصارًا ساحقًا على هذا الجيش الصليبي، اضطر معه الفرنسيون لتوقيع معاهدة أخرى مع عبد القادر لوقف القتال، وكان عبد القادر يوافق على أمثال هذه المعاهدات المؤقتة من أجل التقاط الأنفاس وتنظيم الصفوف والقضاء على المتمردين والمخالفين من زعماء القبائل.

لم ترق هذه المعاهدة للفرنسيين فعزلوا الجنرال «ديرلـون» وحـل مكانـه الجنـرال «درالانج» وأعيد الجنرال «كلوزيل» حاكمًا عامًا للجزائـر، وقـد اسـتطاع كلوزيـل أن يحتل مدينة «المعسكر» قاعدة المقاومة للأمير عبد القـادر في شـعبان سـنة ١٢٥١هــ - ديسمبر ١٨٣٥م، غير أن الأمير قد أعاد تنظيم صفوفه وعاهدته القبائـل عـلى الجهـاد وعدم الفرار، وخرج بهم للدفاع عن تلمسان واستعادة المعسكر، وبدأ الأمير بتأديـب القبائل الموالية للفرنسيين، وأنزل بها هزيمة ساحقة، مما جعل كلوزيل يتحرك بـسرعة لنجدة هذه القبائل.

وبالفعل استطاع الفرنسيون وحلفاؤهم من القبائل العميلـة دخـول تلمـسان في رمضان سنة ١٢٥١هـ واضطر الأمير عبد القادر إلى الانسحاب إلى منطقة «وجـدة» على الحدود الجزائرية المغربية.

انتفش كلوزيل بما حققه من انتصارات على المقاومة، ودفعه غروره لأن يتوغل في الصحراء الجزائرية خلف الأمير عبد القادر، فوقع في فخ محكـم نـصبته المقاومـة لـه، وهزم هزيمة شديدة عند منطقة «تافنة»، فانسحب منها إلى تلمـسان وخلفـه جيـوش الأمير فتركها إلى وهران، فتبعه فيصل من المقاومة ومنعـوه دخـول وهـران، فاسـتمر يلهث في الصحراء من شدة الخوف من الأسر أو القتل، حتى وصل العاصمة الجزائـر وكلَّف الجنرال «دارلانج» بمواجهة المقاومة، ومنع تقدم جيوشها، ولكنه هزم هزيمـة منكرة وأبيدت معظم القوات الفرنسية، مما دفع كلوزيل لأن يطلب إمـدادات عاجلـة

من فرنسا، فأرسلت إليه ثلاثَ فرق عسكرية كاملة التجهيز، قوية التسليح. وخاض الأمير معها معركة عنيفة عند الزقاق في صفر سنة ١٢٥٢هـ هزم فيها الأمير بسبب تخلي القبائل عن مواقعها.

لم تثن هذه الهزائم عضد الأمير، فاستغل فرصة انشغال الفرنسيين بقتال الباي أحمد زعيم المقاومة في «قسنطينة» فنظم صفوفه وأحكم سيطرته على إقليم وهران وسهل متيجة، واستعاد تلمسان واستطاعت قواته دخول الجزائر، وأجبر الفرنسيين على توقيع معاهدة مع الأمير عبد القادر سنة ١٢٥٣هـ ـ ١٨٣٧م، اعترفوا فيها بحكم الأمير على الداخل الجزائري، وأن يتمتع المسلمون في سائر أرجاء الجزائر بالحرية الكاملة في أداء الشعائر الدينية والتحاكم إلى الشريعة الإسلامية، وغيرها من البنود التي كانت في مجملها لصالح المسلمين، وإن كان قد استفاد منها الفرنسيون أيضًا.

لم تحافظ فرنسا على المعاهدة سوى شهور قليلة واندلع القتال مرة أخرى في رمضان سنة ١٢٥٥هـ واتبعت المقاومة أسلوب حرب العصابات ضد القوات الفرنسية للتفاوت الكبير في العدد والعدة بين الفريقين، وطلب الأمير عبد القادر مساعدات عاجلة من سلطان المغرب، فأسرع الأسطول الفرنسي وقصف المدن المغربية بالأسلحة الثقيلة، فتخلى سلطان المغرب عن نصرة الأمير، مما أثر بشدة على المقاومة الجزائرية، ولكن ظلت قوات الأمير صامدة في الميدان تناوش المحتل الفرنسي.

اتبع المحتل الفرنسي الصليبي أسلوب الأرض المحروقة مع القبائل الموالية

للمقاومة، وشنوا حرب إبادة شاملة للسكان والحيوانات والمزارع والآبار، ووقعت سلسلة مجازر بشعة في غاية الوحشية مثل مجزرة قبيلة أولاد رباح، وذبحت قبائل بأكملها رجالاً ونساءً أطفالاً وشيوخًا مثل قبيلة العوفية، فدب الذعر في قلوب الناس إذ لم يشاهدوا من قبل مثل هذه الوحشية والهمجية من أحد قط، وأسفرت الأحقاد الصليبية عن وجهها القبيح الكالح.

وفي النهاية اضطر الأمير عبد القادر أن يسلم نفسه للاحتلال حتى يحقن دماء الجزائريين، فاستسلم في محرم سنة ١٢٦١هـ وتم نفيه من البلاد وغادرها إلى غير رجعة، بعد رحلة مقاومة وكفاح ضد المحتل الصليبي استمرت ١٥ سنة خاض خلالها عشرات المعارك بمعدل معركتين وثلاثة في الشهر الواحد، والسلبية الوحيدة التي أخذت على حركة الأمير عبد القادر تخليه عن نصرة الباي أحمد في «قسطينة»، مما أدى لتضعضع موقف المقاومة في شرق الجزائر.

❑ حركة محمد المقراني:

خاب ظن الفرنسيين باستمرار المقاومة الجزائرية في الجهاد والكفاح ضد وجودهم، حيث لم تُنكَّس رايات الجهاد بعد رحيل الأمير عبد القادر، وظلت الحمية الإسلامية تُشعِل في النفوس حبَّ الدفاع عن الدين والوطن، فما تندلع حركة وتهدأ حتى تعود أخرى للظهور والثورة، إلا أن هذه الحركات المتقطعة عابها قلة التنظيم وانعدام التنسيق وبقاء حب الزعامة والتنافس بين شيوخ القبائل على ذلك، أضف إلى شيوع التصوف بين صفوف المجاهدين مما أدى لضعف الوعي الإسلامي عامة لديهم.

ولكن لم يمنع ذلك كله من بقاء جذوة الجهاد والمقاومة متقدة من سنة ١٢٦١هـ حتى سنة ١٢٨٧هـ وهي السنة التي ظهرت فيها حركة محمد المقراني.

وكان محمد المقراني مجاهدًا مخلصًا في سبيل الله، استطاع أن يشعل الأرض على المحتل الصليبي الفرنسي، وخاض ضدهم أكثر من ثلاثمائة معركة، وحشد مائتي ألف مجاهد في شرق الجزائر ضد الفرنسيين الذين جندوا ثمانمائة ألف مقاتل صليبي فرنسي للعمل ضد هذه الحركة، وقد استشهد محمد المقراني وهو يصلي الفجر.

والعجيب أن ثورته والتي تعتبر من كبريات حركات المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي لم يمض عليها سوى خمسين يومًا فقط، أي أن مجاهديه كانوا يخوضون في اليوم الواحد أكثر من ست معارك عنيفة ضد الاحتلال الفرنسي.

☐ حركة الشيخ أمزيان الحداد:

وهو ينتمي لإحدى الطرق الصوفية المجاهدة؛ وهي الطريقة الرحمانية، وكان لها دور بارز في مقاومة المحتل الصليبي في الجزائر، فلقد اشترك مع الأمير عبد القادر ثم مع الشريف «بونبلة» سنة ١٢٧٢هـ وبعد اعتقال الشيخ عمر شيخ الطريقة الرحمانية قاد هو الحركة ضد الفرنسيين، وكان وقتها قد جاوز الستين من العمر، فعمل على التنسيق مع حركة محمد المقراني، ولما استشهد محمد المقراني، دفع بولديه عزيز ومحمد للجهاد لكبر سنه، وعمت الثورة شرق الجزائر، ثم تعاون مع أحمد بو مرزاق الأخ الأصغر للشهيد محمد المقراني.

وظل الشيخ محمد أمزيان الحداد وولداه عزيز ومحمد يقودان المقاومة ضد المحتل الصليبي من سنة ١٢٧٢هـ حتى سنة ١٢٨٩هـ حيث تم القبض عليهم وحكم عليهم بالنفي والإعدام، وصودرت أملاك أسرة الحداد وأسرة المقراني، ومات الشيخ الحداد قبل تنفيذ الحكم فيه، وكان وقتها في الثمانين من العمر.

❏ جبهة العلماء المسلمين:

بعد إخماد حركة المقراني ثم حركة الحداد سنة ١٢٨٨هـ ضعف الكفاح المسلح في الجزائر، وخفت المقاومة بسبب القمع الصليبي شديد الوحشية وأسلوب الإبادة الشاملة الذي اتبعه المحتل الفرنسي مع المجاهدين، وأيضًا بسبب غياب القيادة القادرة على تحريك الجماهير، ومع فشل حركات المقاومة استأسد الصليبيون وبالغوا في تفريغ أحقادهم الصليبية على مسلمي الجزائر.

ومع شدة الوطأة أخذت الهزيمة النفسية تتسرب إلى قلوب الجزائريين، ففُتن قطاع من الشباب ـ الذين هم وقود الجهاد ـ بالقوة والحضارة الفرنسية، فأخذ المصلحون والغيورون على الدين والبلاد في التفكير في كيفية مواجهة الاحتلال الصليبي الفرنسي الذي احتل النفوس والقلوب بعد أن احتل من قبل الأرض، ولقد أسفر هذا التفكير العميق في كيفية التحرير عن اتجاهين:

أولهما: اتجاه التربية الإسلامية وإعادة بناء الأمة من جديد لتتأهل لمرحلة الجهاد والكفاح ضد الاحتلال، وهذا الاتجاه مثَّله الشيخ عبد الحميد بن باديس وجمعية

العلماء المسلمين التي أسسها سنة ١٣٥٠هـ.

أما الاتجاه الثاني: فهو الاتجاه السياسي وترك المقاومة المسلحة، وتدويل قضية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وتأسيس الأحزاب والمنظمات السياسية، وهذا الاتجاه كان علمانيًا في جملته، لذا جنَّده الفرنسيون وتفاوضوا معه وحرصوا على تسليمه مقاليد الحكم عند الاستقلال.

ولقد بذلت جمعية العلماء المسلمين جهودًا كبيرة ومعتبرة في رفع مستوى الوعي الإسلامي للجزائريين، وتصدت بقوة لحركة التغريب والتذويب الفرنسي للهوية الجزائرية، ولعل أبرز رجالات هذه الجمعية المباركة هو مؤسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي بذل جهودًا ضخمة ورائعة في العلم والعمل والسعي الدؤوب لتحرير البلاد وعلاج آفات المجتمع الجزائري الذي تلوث كثيرًا بمخالطة الاحتلال.

ولقد تعرض الشيخ للإيذاء والاعتقال والدعايات المضادة من علماء السوء ومشايخ الطرق الصوفية الذين خالفوا نهج أجدادهم في جهاد الفرنسيين وأصبحوا من أعوانهم، ولقد حرصت جمعية العلماء المسلمين على افتتاح المدارس والأندية التي كانت تجذب الشباب، فازداد الوعي وسرت روح جديدة في أوساط الشعب الجزائري أقلقت الفرنسيين بشدة، لذلك عملوا على القضاء على هذه الجمعية ورجالها، ووقعت حادثة سنة ١٣٥٣هـ بسبب أحد اليهود الذين غاظهم النشاط الإسلامي فسب الإسلام والمسلمين ووقعت فتنة كبيرة استمرت أسبوعًا كاملاً قتل

فيه اثنان وعشرون يهوديًا في مدينة قسنطينة.

وعجز الفرنسيون عن قمع الفتنة، فطلبوا من الشيخ ابن باديس حل المشكلة، فتمكن من حلها، فارتفع شأن ابن باديس في الأوساط الجزائرية كلها، مما صعَّب مهمة المحتل الفرنسي في القضاء عليه حتى لا يثور الناس، وأصبحت جمعية العلماء الممثل الحقيقي والشرعي للشعب الجزائري.

وطالبت الجمعية الاحتلال بعدة مطالب هامة، منها إلغاء كافة القوانين والقرارات الاستثنائية بالجزائر واعتبار العربية اللغة الرسمية، واستقلالية الدين الإسلامي، وإلغاء الحاكم العام للجزائر، وغيرها من المطالب، وسافر الوفد الجزائري بقيادة الشيخ ابن باديس لمفاوضة حكومة باريس.

وبعد وفاة الشيخ ابن باديس سنة ١٣٥٨هـ - ١٩٤٠م أكمل الشيخ البشير الإبراهيمي مسيرته وضاعف نشاط الجمعية، وافتتحت المعاهد الثانوية، وظلت جمعية العلماء رائدة العمل الإسلامي والتربوي حتى الاستقلال ومجيء الاشتراكيين للحكم، فحلوا هذه الجمعية التي حققت إنجازات كبيرة حافظت بها الجزائر على هويتها ودينها وإرادة التحرير، حتى تم الاستقلال بالعمل المشترك بين رجال الجزائر من كل التيارات وذلك تحت قيادة جمعية العلماء المسلمين، وبعد دماء مليون جزائري راحوا خلال رحلة التحرير التي استمرت أكثر من مائة وثلاثين سنة متصلة في ملحمة هي الأروع في تاريخ حركات التحرير الإسلامية.

المصادر والمراجع

(١) التاريخ الإسلامي.

(٢) أطلس تاريخ الإسلام.

(٣) جهاد شعب الجزائر.

(٤) جمعية العلماء المسلمين.

(٥) مظاهر المقاومة الجزائرية.

(٦) تاريخ الجزائر العام.

(٧) حرب الثلاثمائة سنة.

(٨) تاريخ الجزائر الحديث.

(٩) خير الدين باربروسا.

* * *

الفصل الثاني

الاحتلال الفرنسي والإسباني للمغرب

لبلاد المغرب الأقصى وضعية خاصة على مر التاريخ؛ فلقد كانت تمثل منتهى حدود الدولة الإسلامية غربًا؛ مما جعلها في موقف الرباط الدائم مع العدو الأوروبي المتربص والمتحفز للوثوب على العالم الإسلامي، ولقد تعاقبت الدول والممالك الإسلامية المختلفة على حكم هذه البلاد الإستراتيجية، والتي كانت أولاً إحدى أقاليم الخلافة الأموية ثم العباسية.. وابتداءً من سنة ١٧٢هـ خرجت من عباءة الخلافة العباسية، وقامت بها دولة الأدارسة التي ظلت قائمة حتى سنة ٣٧٥هـ ثم خضعت بعدها لدولة المرابطين، ثم دولة الموحدين، ولما سقطت دولة الإسلام في الأندلس كانت بلاد المغرب تحت حكم بني وطاس، الذين لم يكونوا على مستوى الأحداث الجسيمة التي كانت تتمخض بها المنطقة بأسرها، فبدأت بلاد المغرب تتعرض لسلسلة متواصلة من الحملات الصليبية المتتابعة من إسبانيا تارة ومن البرتغال تارة، ومن إنجلترا وفرنسا وحتى ألمانيا، وأصبحت البلاد مثل الفريسة السهلة التي يتصارع عليها وحوش الغابة.

* بلاد المغرب والدولة العثمانية:

كانت بلاد المغرب تحت حكم بني وطاس منذ سنة ٨٢٣هـ ولما سقطت الأندلس وثب نصارى الأندلس ـ الإسبان والبرتغاليون ـ على سواحل المغرب،

واحتلوا العديد من مدنها وموانيها، ولم يجرؤ بنو طاس على منازلة البرتغاليين، وعظم ذلك على مسلمي المغرب، وأظهر البرتغاليون صليبيتهم المشهورة، وأحرقوا القرى وقتلوا السكان، وتشفوا غاية التشفي بالمسلمين؛ فلقد كانت قلوبهم مشحونة بأحقاد قرون ثمانية حكم فيها المسلمون بلادهم، وجاءتهم الفرصة للانتقام؛ فأطلقوا العنان لرغباتهم وأحقادهم ونزواتهم الحيوانية.

ثار المسلمون على حكم بني وطاس الضعيف الخانع؛ فسقطت دولتهم وجاء من بعدهم السعديون، وذلك سنة ٩٥٥هـ وحققوا انتصارات متتالية على البرتغاليين؛ وذلك بفضل الله عز وجل أولاً، ثم بفضل مساعدة الدولة العثمانية وسلطانها آنذاك «سليمان القانوني»، الذي كان يرى في بلاد المغرب جبهة متقدمة في القتال مع الدول الأوروبية الصليبية.

استغل الصليبيون المخاوف الموجودة لدى سلاطين السعديين من التوسع العثماني في الشمال الإفريقي، وعملوا على تذكية هذه المخاوف وتضخيمها بالشائعات والأكاذيب عن نية العثمانيين في احتلال المغرب؛ حيث لم يبقَ من الشمال الإفريقي كله سوى بلادهم، وعملت المخابرات البرتغالية والإسبانية على تزوير المكاتبات والرسائل المفتعلة بين العثمانيين وزعماء الأندلسيين المقيمين بالمغرب منذ سقوط دولتهم، والذين كانوا يحلمون بانضمام المغرب للدولة العثمانية حتى يعودوا إلى الأندلس مرة أخرى، ومع استيلاء حسن بن خير الدين والي الجزائر على تلمسان تأكدت المخاوف لدى سلاطين المغرب، ووقعت العداوة واستحكمت الخصومة

وشُحن المغاربة كراهية ضد العثمانيين، وفرح الصليبيون بذلك، وأخذ سلاطين المغرب في الاستعانة بالصليبيين ضد إخوانهم العثمانيين، وقابل العثمانيون ذلك بالتحضير لعمل كبير ضد هذا التحالف المشبوه.

وقع الخلاف بين أفراد الأسرة السعدية الحاكمة بالمغرب أيام السلطان محمد المتوكل على الله سنة ٩٨٥هـ؛ مما جعل أبناء أخيه يطلبون العون من العثمانيين فأمدوه بجيش كبير، وطلب محمد المتوكل المساعدة من الصليبيين فجاءه تحالف صليبي كبير من عدة دول أوروبية، من إسبانيا والبرتغال والألمان والطليان والهولنديين، ووقعت معركة وادي المخازن الشهيرة سنة ٩٨٦هـ ولكن ما لبث أن ساءت العلاقة بين العثمانيين والمغاربة مرة أخرى، وانصرف العثمانيون عن اهتمامهم بالمغرب، وركزوا على تأمين الحدود الجزائرية المغربية لمنع النفوذ الأوروبي من التوغل في الشمال الإفريقي.

*** التدخل الصليبي في المغرب:**

كان لانصراف العثمانيين عن المغرب أثر كبير في زيادة النفوذ الأوروبي الصليبي بالمغرب، وأسهم الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة السعدية في زيادة هذا النفوذ، وأسرف بعض سلاطين المغرب في الاستعانة بالصليبيين ضد خصومه، حتى إن السلطان المأمون بن المنصور قد أعطى الإسبان الصليبيين ميناء (العرائش)، وفضح لهم أمر الأندلسيين الذين اتفقوا مع الجزائريين للقيام بحركة ضد الإسبان وإعادة المسلمين إلى الأندلس؛ مما جعل الإسبان يقضون على من بقي من المسلمين في

الأندلس، وقد أدت هذه الخيانة الشنيعة إلى أن يثور المغاربة على سلطانهم ويقتلونه سنة ١٠٢٢هـ.

أخذ شأن السعديين يضمحل بسبب خيانتهم للمسلمين وعمالتهم للصليبيين، حتى زالت دولتهم سنة ١٠٥٠هـ وحلت مكانهم أسرة الأشراف العلويين الذين ينسبون أنفسهم لآل البيت، ولكنهم وجدوا منافسة شديدة من القبائل المغربية؛ مما جعل سلاطين هذه الدولة يقضون الشطر الأول من دولتهم في صراع مستمر وحروب شديدة في الداخل والخارج، ودخلوا حروبًا طاحنة مع الجزائريين والعثمانيين، خاصة أيام السلطان إسماعيل بن محمد الشريف [١٠٨٢هـ - ١١٣٩هـ] الذي تعرض لعدة محاولات لاغتياله، وعمت الفوضى المدن المغربية بعد وفاة إسماعيل لاختلاف أبنائه فيما بينهم، وفي أتون هذه الفوضى الشاملة استولى الصليبيون على الكثير من سواحل المغرب، ولم يكن من سلاطين هذه الدولة من يصلح لهذا المنصب الهام لهذه الدولة صاحبة الموقع الاستراتيجي الخطير سوى عدد قليل لا يتجاوز عد أصابع اليد الواحدة، وكثير منهم فتح البلاد على مصراعيها للنفوذ الأجنبي في شكل امتيازات ومعاهدات وموانئ مفتوحة ومناطق حرة؛ وهكذا أصبح الوضع داخل المغرب مثل الفسيفساء المتشابكة بالصراعات الأوروبية على كعكة المغرب الشهية والسهلة، ومع ذلك كله ظلت البلاد ظاهريًا تحت حكم سلاطين الأشراف العلويين الذين انصرف بعضهم لإعمار البلاد والبعض الآخر في اللهو واللعب، وظلت البلاد ظاهرها الاستقلال وباطنها الاحتلال متعدد الجنسيات.

*** الاحتلال الفرنسي الإسباني المشترك للمغرب:**

يعتبر الصراع الدائم والمتوارث على الحكم بين أفراد أسرة السعديين، ثم أفراد أسرة الأشراف العلويين هو السبب الرئيس في سقوط بلاد المغرب تحت الاحتلال الصليبي متعدد الجنسيات، فضلاً عن الأحقاد الصليبية التي لا تنتهي أبدًا ضد العالم الإسلامي، والتي لا تخبو نارها عبر القرون بل تزيد وتأجج، وتدفع أصحابها في كل عصر إلى الوثوب على العالم الإسلامي متى سنحت الفرصة.

كانت بدايات الاحتلال الحقيقي للبلاد في عهد السلطان محمد الرابع [١٢٧٦هـ ـ ١٢٩٠هـ]؛ عندما احتل الإسبان مدينة (تطوان) فأرسل السلطان جيشًا لقتالهم فهزم أمام الإسبان، واضطر السلطان لدفع مبلغ عشرين مليون ريال للإسبان للخروج من تطوان، وقد أدت هذه الحادثة لسقوط هيبة المسلمين المغاربة أمام عدوهم الصليبي، وارتماء بعض سلاطين المغرب في أحضان بعض الصليبيين ليحمونهم من صليبيين آخرين؛ فحالفوا فرنسا ضد إسبانيا، ثم إنجلترا ضد فرنسا، ثم ألمانيا ضد فرنسا وإسبانيا، وهكذا، وقد غفل هؤلاء السلاطين أن كل هؤلاء الأعداء تجمعهم المصالح المشتركة ووحدة العقيدة، ومهما اختلفوا فهم في النهاية متحدون على المسلمين.

في أيام السلطان عبد العزيز بن الحسن [١٣١١هـ ـ ١٣٢٥هـ] ازداد النفوذ الفرنسي داخل المغرب بسبب توسع السلطان في الاقتراض من البنوك الفرنسية

والهولندية، وقامت حركات مقاومة ضد السلطان والتغلغل الصليبي في البلاد، فأسرعت فرنسا وإسبانيا واتفقتا على اقتسام الغنيمة المغربية الثمينة؛ فأخذت فرنسا ما أصبح بعد ذلك (موريتانيا)، وأخذت إسبانيا الصحراء المغربية، وأُجبر السلطان المنهوك بالديون الطائلة لقبول الوضع القائم وذلك سنة ١٣١٩هـ، ولقد اشتد غضب المغاربة على هذا السلطان الخانع وأطلقوا عليه «عبد الأجانب»؛ وقامت العديد من الثورات ضده؛ فحاول السلطان عبد العزيز تحجيم النفوذ الفرنسي والإسباني بالتقرب إلى ألمانيا، فأحبطت فرنسا الخطة بإعطاء أجزاء من الكاميرون لألمانيا ترضية لها، ثم حاول السلطان عرض القضية المغربية في المحافل الدولية، وعقد مؤتمر الجزيرة سنة ١٣٢٣هـ-١٩٠٦م، وقد انتهى هذا المؤتمر بمزيد من تكريس النفوذ الفرنسي والإسباني في المغرب، وأخيرًا غضبت فرنسا على السلطان عبد العزيز بسبب محاولاته المتتالية استدراك أخطائه السابقة، وقبضت عليه ونفته خارج البلاد سنة ١٣٢٥هـ وخلفه أخوه عبد الحفيظ.

بايع المغاربة السلطان عبد الحفيظ بشروط منها تحرير المناطق المحتلة من المغرب، وإلغاء الامتيازات الأجنبية، وألا يستشير الأجانب أو يعقد معهم معاهدات إلا بعد استشارة أهل البلاد، ولكنه ما لبث أن أخذ في مصانعة فرنسا حتى لا يلقى مصير أخيه عبد العزيز؛ فثارت عليه القبائل وبايعوا أخاه «زين» وكان واليًا على مكناس؛ فاستنجد عبد الحفيظ بفرنسا التي أسرعت بجيش كبير وقضت على ثورة أخيه زين، وكلما تكررت الثورة كلما جاءت فرنسا بقوات كبيرة لمساعدة عميلها ورجلها

المخلص، وفي كل مرة تظل القوات الفرنسية بالمغرب ولا تغادرها، حتى أصبح لدى الفرنسيين قوات ضخمة بالمغرب مكنتها من احتلال فاس سنة ١٣٢٩هـ ثم احتلال مكناس والرباط، ثم فرضت فرنسا على السلطان عبد الحفيظ معاهدة الحماية في سنة ١٣٣٠هـ ـ ١٩١٢م، وكان ذلك بمثابة الإعلان الرسمي عن احتلال فرنسا للمغرب، واضطر عبد الحفيظ لأن ينزل عن الحكم لأخيه يوسف في رمضان سنة ١٣٣٠هـ؛ لتبدأ بعدها فصول الجهاد الشامل والمقاومة الإسلامية الباسلة ضد الاحتلال الإسباني الفرنسي المشترك للمغرب.

*** السياسة الصليبية للاحتلال في المغرب:**

قامت الحرب العالمية الأولى والمجاهدون المغاربة يقاومون الاحتلال الفرنسي والإسباني في جبل الأطلس والريف ومنطقة (تافيللت)، ومع انتهاء الحرب وسقوط الخلافة العثمانية أصبحت بلاد المغرب كلها تحت الاحتلال الصليبي المشترك بالتقسيم الآتي:

١ـ مراكش: تحت الاحتلال الفرنسي.

٢ـ موريتانيا: تحت الاحتلال الفرنسي.

٣ـ بلاد الريف: تحت الاحتلال الإسباني.

٤ـ الصحراء المغربية: تحت الاحتلال الإسباني.

٥ـ طنجة: لها وضع دولي.

٦ـ إيفني: تحت الاحتلال الإسباني.

وهذا التقاسم الصليبي للتركة المغربية صعَّب من مهمة المجاهدين؛ إذ كان عليهم أن يواجهوا دولتين كبيرتين شديدة العداوة والكراهية للإسلام والمسلمين.

ومنذ أن دخلت فرنسا الصليبية البلاد وضعت نصب أعينها أن تحكم سيطرتها على البلاد بأقل تكلفة، وتتلافى الأخطاء التي وقعت فيها بالجزائر، والتي كلفتها ثمنًا باهظًا، واتبعت في ذلك السياسة الاستعمارية للإنجليز، وهي سياسة [فرق تسد]، فعملت فرنسا على التفرقة بين العرب والبربر، وهما عنصرا الشعب المغربي، وكانت نسبة البربر ٤٥٪ من مجموع السكان، ويتركزون في منطقة الريف والجبال، وكانوا وقود المقاومة في بادئ الأمر، فعمل الفرنسيون على التركيز على مناطقهم فأصدروا مرسوم الظهير البربري الشهير سنة ١٣٣٣هـ ـ ١٩١٤م، وفيه أعفت البربر من تطبيق الشريعة الإسلامية ومن دراسة اللغة العربية، وأعطتهم حق التقاضي فيما بينهم حسب العادات والأعراف الجاهلية القديمة للبربر، ثم أصدرت مرسومًا آخر سنة ١٣٤٠هـ ألغت فيه نظام المواريث في الإسلام على البربر، ثم أصدرت مرسومًا ثالثًا سنة ١٣٤٨هـ والمراسيم الثلاث كلها كانت تهدف لتفتيت الوحدة الإسلامية للمغاربة بإثارة النعرات القبلية والعرقية، ولقد تنبه المغاربة لهذه السياسة الصليبية الخبيثة؛ فانطلقت المظاهرات المنددة بهذه المراسيم، وكانت أعنفها ما خرج من جامع القرويين بمدينة (فاس)، وتعدى التنديد إلى العالم الإسلامي بأسره، وشجب المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس عام ١٣٥٠هـ هذه السياسة الصليبية للاحتلال الفرنسي.

حركات المقاومة المغربية

انشغل المغاربة كثيرًا بالخلاف الطويل والموروث بين أفراد الأسر الحاكمة في البلاد، والذي أصبح بمثابة العرف المتبع، فما إن يتولى سلطان منصبه حتى يثور عليه أحد إخوته أو بني عمومته، أو حتى من زعماء القبائل وشيوخ العشائر، وراح في هذا الصراع المقيت على الدنيا الكثير من الدماء والأموال، ولم يشعر المغاربة بأفاعي الاحتلال الصليبي وهي تسلل خفية إلى الداخل المغربي، وتلتف شيئًا فشيئًا على مفاصل البلاد، وكانت هزيمة المغاربة أمام الإسبان في تطوان سنة ١٢٧٨هـ أول دقة في ناقوس الخطر بأن البلاد على وشك الاحتلال.

أخذ المغاربة في الإفاقة من غفلتهم الطويلة ومن انشغالهم بالصراعات الداخلية؛ فوجدوا أن كثيرًا من سواحلهم قد وقعت في قبضة المحتل الصليبي الذي عمد لأخبث الأساليب من أجل إحكام سيطرته على ما تحت يديه، أفاقوا فإذا بطنجة وسبتة ومليلة في قبضة الإسبان، وفاس والرباط ومكناس ومراكش في قبضة الفرنسيين؛ وعندها ثارت حركات المقاومة المغربية، وبدأت ملحمة الكفاح المغربي ضد الاحتلال متعدد الجنسيات.

❑ حركة الشيخ «ماء العينين»:

وهي أولى حركات الجهاد الإسلامي في المغرب ضد الاحتلال الفرنسي، وذلك

سنة ١٣١٨هـ أيام السلطان عبد العزيز بن الحسن، وكانت تحت قيادة الشيخ العلامة محمد مصطفى بن محمد بن فاضل الشنقيطي، الملقب بماء العينين [١٢٤٦هـ - ١٣٢٨هـ]، وهو من قبيلة (القلاقمة) من عرب شنقيط، وكان عالمًا مجاهدًا له دراية بالسياسة، وله حظوة عند أهل المغرب وحكامها، وقد قام بحركته ضد المحتل الفرنسي وقد جاوز السبعين من العمر؛ لما رأى أن التغلغل الفرنسي بالجنوب (موريتانيا) قد تحوّل من نفوذ اقتصادي وتجاري إلى احتلال صليبي حقيقي، ولكن هذه الحركة سرعان ما فشلت بسبب عدم خبرة المغاربة بألاعيب الاحتلال وطرقه الخبيثة.

❑ حركة الأمير زين:

وكان أميرًا على مدينة مكناس أيام حكم أخيه السلطان عبد الحفيظ، ولم يعجبه مصانعة أخيه عبد الحفيظ للفرنسيين، ووافقته الكثير من القبائل العربية، فأعلن الأمير زين خلع أخيه عبد الحفيظ، ودعا إلى نفسه، وألف حكومة بمكناس؛ وهرعت إليه القبائل الناقمة على حكم عبد الحفيظ، واستفحل أمره، فاستنجد عبد الحفيظ بحلفائه الفرنسيين الذين أرسلوا تعزيزات ضخمة ومجهزة تجهيزًا قويًا - ليس فقط لنجدة حليفها ولكن لإحكام السيطرة على وسط المغرب - وذلك سنة ١٣٢٩هـ وقد استطاعت الجيوش القوية والمجهزة القضاء على ثورة الأمير زين، وتم القبض عليه وأُخذ أسيرًا، وخلال ذلك نجح المحتل الفرنسي في احتلال فاس والرباط ومكناس، وفرضوا معاهدة الحماية في ربيع الثاني سنة ١٣٣٠هـ على المغرب، وأجبروا عبد

الحفيظ على توقيعها وقبولها؛ فثارت طوائف الشعب المغربي ـ حتى جنود الجيش ـ لذلك، وقتلوا ضباطهم الأجانب.. وأباد المغاربة الحامية الفرنسية في مدينة فاس، وقمع الفرنسيون الثورة بمنتهى الوحشية، وندم عبد الحفيظ على استعانته بالصليبيين ـ حيث لا ينفع الندم ـ فنزل أو أنزل عن الحكم في ١ رمضان سنة ١٣٣٠هـ ـ أغسطس ١٩١٢م.

❑ حركة الإمام أحمد هبة الله :

وذلك أثر اعتزال السلطان "عبد الحفيظ" الحُكم في رمضان سنة ١٣٣٠هـ وأحمد هبة الله هو ابن الشيخ المجاهد ماء العينين، وقد ورث عن أبيه العلم وحب الجهاد والمنزلة بين المغاربة، فلما فرضت فرنسا الحماية على المغرب بايعته القبائل المغربية في الجنوب والوسط على الجهاد، وبايعه أيضًا علماء منطقة السوس [موريتانيا حاليًا]، وعظمت جموعه وبايعوه على الإمامة، وذلك في ٥ رمضان سنة ١٣٣٠هـ، وسار بجيشه إلى مراكش وحاصرها؛ فانضمت حامية مراكش إلى حركته، وبايعه والي مراكش كذلك؛ فأرسلت إليه فرنسا جيشًا قويًا فانتصر عليه، ثم انسحب من مراكش إلى (تارودانت) وتحصن بها، وعرض عليه الفرنسيون المناصب والأموال، حتى أنهم عرضوا عليه السلطة نظير أن يكون خاضعًا لهم؛ ولكنه رفض ذلك كله وأصر على مواصلة الجهاد؛ فاشتد الفرنسيون في مطاردته، حتى كان في (تندوف)، وهناك نصب المجاهدون الكمائن للفرنسيين وفتكوا بهم جميعًا؛ مما دفع الاحتلال الصليبي لأن يحشد جيشًا ضخمًا من المغرب والجزائر والسنغال ومالي ـ سيقوا سوقًا لقتال إخوانهم ـ

بقيادة الجنرال (جورو) ـ الذي سيحتل سوريا بعد ذلك ـ وبدعم كثيف من الطيران والمدفعية، ودارت عدة معارك طاحنة بين الطرفين، ودب الخلاف بين رجال الإمام أحمد، وأصيب هو في القتال ثم أصابه المرض نتيجة تلوث جرحه؛ ثم ما لبث أن توفي ـ رحمه الله ـ ولم يكن في رجاله من بعده من يحمل نفس صفاته ومؤهلاته؛ ففشلت حركته وقضى عليها الفرنسيون في الحرب العالمية الأولى.

❑ حركة أحمد الريسوني:

ويعتبر أحمد الريسوني من أوائل من ثار ضد حكومة السلطان والنفوذ الأجنبي، حتى أنه ثار قبل ثورة الشيخ ماء العينين، وقد بدأ ثورته في جبال بني عروس، وقوي أمره حتى أحكم سيطرته على ريف طنجة، وخُطب باسمه على منابر (تازروت)، وقد اضطر السلطان عبد العزيز لمصانعته، وعيّنه معتمدًا له في طنجة، وعلى ما يبدو أن الريسوني كان طامحًا للسلطة والمناصب، ولما تولى عبد الحفيظ السلطنة أصبح الريسوني من خاصة رجاله، فلما عُزل عن الحكم واحتل الإسبان تطوان سنة ١٣٣هـ وأخذوا يتجهون غربًا ثار الريسوني عليهم، وصالحه الإسبان على أن تكون الجبال والمناطق الداخلية تحت سيطرته، والمناطق الساحلية للإسبان، ولم ترُق هذه الاتفاقية للقيادة الجديدة في إسبانيا فما لبثوا حتى نقضوها، وأخذوا في الهجوم على معاقل الريسوني حتى شارف على التسليم، ولكنه التقط أنفاسه بعد هزيمة الإسبان أمام الأمير الخطابي، وعاد للثورة من جديد وشعر الإسبان بخطورة تحالف الريسوني مع الخطابي؛ فبذلوا الوعود والعهود للريسوني كي يقبل الصلح معهم، وهو كما قلنا كان

طموحًا يحب السلطة؛ فوافق وتخلى عن نصرة الخطابي بل انقلب عليه حربًا وأخذ يؤلب ضده القبائل؛ فاضطر الخطابي لمقاتلته كما فعل عبد القادر الجزائري من قبل مع «مصطفى ود إسماعيل»، وقد وقع الريسوني في أسر الخطابي، وكان مريضًا وقتها فما لبث أن مات سنة ١٣٤٣هـ وختم حياته بقتال المسلمين وبني وطنه بدلاً من أن يقاتل الاحتلال الصليبي، الذي قضى معظم حياته يقاتله، والله أعلم بعاقبة الأمور.

❑ **حركة الأمير الخطابي:**

وهي أكبر وأهم وأشهر حركة جهادية إسلامية ببلاد المغرب ضد الاحتلال الصليبي، وقادها القاضي محمد بن عبد الكريم الخطابي الملقب بأمير الريف، وكان أبوه الشيخ عبد الكريم الخطابي زعيم قبيلة (ورياغل) أكبر قبائل البربر في بلاد الريف، وقد رفض تقديم الولاء للمندوب السامي الإسباني للجنرال (جوردانا)؛ فعزل الإسبان ابنه محمدًا من قضاء (مليلة) وأُودع السجن، وفي هذه الأثناء توفي الأمير عبد الكريم، وبايع أفراد قبيلته ولده محمدًا زعيمًا عليهم، فلما أُطلق سراحه جمع أنصاره وبدأ الجهاد ضد الإسبان؛ فانضمت إليه كثير من قبائل الريف المغربي، وذلك سنة ١٣٣٩هـ ـ ١٩٢١م.

أسرع الإسبان بقوات كبيرة نحو منازل قبيلة (ورياغل)؛ فأرسل الأمير محمد تحذيرات جادة للجنرال (سلفستر) قائد الإسبان؛ فلم يكترث إليها وواصل تقدمه حتى اقترب من مدينة (أغدير) عاصمة الأمير الخطابي؛ فانقض المجاهدون المغاربة بقيادة الخطابي على الجيش الإسباني في شوال سنة ١٣٣٩هـ ـ يوليو ١٩٢١م،

وهزموهم هزيمة ساحقة أبيد فيها جيش سلفستر تمامًا، وخسروا ١٥ ألف جندي، وكميات ضخمة من الأسلحة والذخائر، وواصل الخطابي ملاحقته للإسبان حتى لم يبقَ لهم سوى حصن (مليلة)، وتوقف الخطابي عن ملاحقة الإسبان خشية أن يُستدرج لمعركة غير متكافئة، ولم يتنبه لما أدركه من نصر حاسم، ولو واصل تقدمه لحرَّر تلك المنطقة تمامًا من الاحتلال الإسباني؛ مما جعل الإسبان يحشدون ستين ألف جندي لمعركة جديدة واستعادوا بعض ما فقدوه من قبل، ثم ضاعفوا عدد قواتهم بمنطقة الريف لأكثر من مائة وخمسين ألف مقاتل.

أحكم الخطابي قبضته على منطقة الريف الداخلية، ونظم حكومة خاصة به عاصمتها (أغدير)، وأعلن قيام جمهورية الريف، وأرسل الوفود للخارج لشرح القضية في المحافل الدولية، ثم حدثت تغييرات سياسية بإسبانيا، ووقع انقلاب عسكري بها سنة ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٣م، وساعدت هذه التغييرات على تدعيم موقف الخطابي وزيادة قوته؛ فلجأ الإسبان لسلاح الحيلة والمكيدة حتى أفسدوا ما بين قادة المجاهدين ـ الخطابي والريسوني ـ وحدث ما ذكرناه سلفًا في حركة الريسوني.

كان لهذا النمو المطرد لحركة الخطابي وإعلانه عن قيام الجمهورية وتشكيل الحكومة أثر بالغ في تحريك الأحقاد الصليبية عند الفرنسيين الذين تضايقوا كثيرًا من ضعف الإسبان عن تحجيم المجاهدين، وكان الإسبان قد انسحبوا إلى المناطق الساحلية، وتركوا الداخل للمجاهدين، وأخذ المقيم العام الفرنسي بمراكش الجنرال (ليوتي) في تحريض الرأي العام الصليبي في أوروبا ضد الخطابي ورجاله، وحذرهم

من خطورة نمو الروح الجهادية عند المسلمين، وكانت الأوضاع مضطربة داخل إسبانيا فلم تستجب لتحذيرات الفرنسيين، فاتجهت فرنسا لإنجلترا التي كانت تحتل أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي، وأخيرًا نجح التحريض الصليبي الفرنسي في استثارة الأحقاد الصليبية لدى الأوروبيين.

تشكل الحلف الصليبي من الفرنسيين والإسبان ومعهم مائة وخمسين ألفًا من المغاربة الخونة الذين انضموا للصليبيين في القتال ضد إخوانهم في الدين والوطن، وكان هذا الجيش الصليبي مدعومًا بـ ١٣٢ طائرة، في حين كان تعداد المجاهدين ستين ألفًا، وما أن انتهى شهر رمضان سنة ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م، حتى اندلع القتال الشامل وحقق المجاهدون نجاحًا باهرًا في أول القتال، واخترقوا الصفوف الفرنسية عند قطاع (تازة) إلى الشرق من فاس، على الرغم من صغر حجم المجاهدين ـ خُمس تعداد عدوهم ـ فذُعر الفرنسيون بشدة وطلبوا مساعدات عاجلة، وقاموا بهجوم عكسي في صفر سنة ١٣٤٤هـ ولكن الأمطار الشديدة أوقفت القتال، وخلال ذلك حاول الأمير الخطابي إثارة القبائل في جبال الأطلس والقاطنة خلف الخطوط الفرنسية، وذلك لتخفيف الضغط على المجاهدين، ولكنهم خافوا من انتقام الفرنسيين فلم يستجيبوا لدعواته، فحاول الخطابي القيام بعمل عسكري سريع وقوي ضد الحلف الصليبي ليجبر بذلك القبائل على الاشتراك معه، ولكنه فشل فلجأ إلى التهدئة والمفاوضات مع الإسبان والفرنسيين لأن قواته قد أنهكت في القتال المتواصل، فاستمرت المفاوضات ثلاثة أسابيع، ولم تسفر عن شيء على الرغم من

تنازل الأمير الخطابي عن كثير من طلباته.

اعتبر الفرنسيون والإسبان هذا التراجع من الأمير الخطابي دليلاً على ضعف مركزه وبداية انهياره؛ فأوقفوا المفاوضات، ثم قاموا بعد ذلك بهجوم فوري في غاية الشراسة لم يصمد له جيش الريف، واضطر الأمير الخطابي لوقف القتال وسلَّم نفسه للقوات الفرنسية في ذي القعدة ١٣٤٤هـ ـ مايو ١٩٢٦م، واتفقت فرنسا وإسبانيا على نفيه إلى جزيرة (رينيون) في شرق إفريقيا؛ وبذلك الأمر توقفت عمليات المقاومة الكبرى في بلاد المغرب.

بعد الفشل المتكرر للمقاومة المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي الإسباني المشترك اتجه المغاربة للعمل السياسي وإثارة القضية المغربية في المحافل الدولية، وتشكيل الأحزاب السياسية؛ وظهر حزب الاستقلال ذو الميول المحافظة، وتكونت الجماعة الأولى للكفاح السلمي في دار أحمد بن الحاج الطاهر مكوار من عشرة أشخاص تسموا بأسماء العشرة المبشرين بالجنة، وأُطلق عليهم اسم (الطائفة)، وهؤلاء الزعماء العشرة صاروا بعد ذلك قادة الاستقلال وزعماء الحركة السياسية المغربية، وقد تعرضوا للاعتقال والتشريد والنفي والقتل مرات كثيرة، ولكن لم يثنِ ذلك من عزمهم، وواصلوا الكفاح حتى نالت المغرب استقلالها عام ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م.

* * *

المصادر والمراجع

(١) التاريخ الإسلامي.

(٢) أطلس تاريخ الإسلام.

(٣) تاريخ الدولة السعدية.

(٤) أطوار العلاقات المغربية العثمانية.

(٥) المغرب العربي الكبير.

(٦) تاريخ المغرب.

(٧) حرب الثلاثمائة سنة.

(٨) الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى.

(٩) عوامل نهوض وسقوط الدولة العثمانية.

(١٠) نشر المثاني.

(١١) أعيان القرن الثالث عشر.

* * *

الفصل الثالث

الاحتلال الإيطالي لليبيا

يعتبر الشمال الإفريقي من مصر شرقًا إلى المغرب الأقصى غربًا من البقاع الإستراتيجية في العالم قديمًا وحديثًا؛ وذلك لموقعه الجغرافي الفريد، والذي جعله في حالة مرابطة دائمة في قبالة العدو الأوروبي المتربص بالأمة في الضفة الأخرى للبحر المتوسط، وأصبحت هذه البلاد ـ مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب ـ والتي تشكل دول الشمال الإفريقي، ميادين قتال مفتوحة بين العالمين الإسلامي والصليبي، وجبهة متقدمة في الصراع الخالد بين الإسلام وأعدائه.

لذلك لا نجد استغرابًا أو عجبًا من تعاقب الحملات الصليبية على هذه البلاد، ووقوعها جميعًا وبلا استثناء فريسة للاحتلال الأوروبي الصليبي؛ وذلك لفترة طويلة من الحقبة المعاصرة للتاريخ البشري، وكان لسقوط دولة الإسلام في الأندلس ثم الضعف الشديد الذي ضرب جنبات الدولة العثمانية العريقة أثر كبير في تأجيج حدة الصراع بالمنطقة وتسريع عملية الوثوب الصليبي على العالم الإسلامي عمومًا والشمال الإفريقي خصوصًا، فبعد السقوط والضعف جاء دور الحروب الصليبية المرعبة، والتي دارت واحدة من أبشع فصولها على أرض ليبيا الطاهرة.

*** ليبيا والدولة العثمانية:**

كانت بلاد ليبيا بعيدة نسبيًا عن المخاطر، آمنة مستقرة، يغلب على أهلها السذاجة والمسالمة، لا يعرفون مكرًا ولا ختلاً، ولا يحسنون كيدًا ولا حربًا، وكان القائد الإسباني الشهير «فيليب دوريا» أول الصليبيين اكتشافًا لهذه الطبيعة المسالمة للشعب الليبي، وأثناء زيارته التجارية لمدينة طرابلس الليبية انقض على المدينة واحتلها غدرًا، ولم يخرج منها حتى دفع له أمير مدينة قابس مبلغًا كبيرًا من المال، وكانت منطقة برقة وما حولها تابعة لدولة المماليك، في حين كانت طرابلس وفزان تابعة للدولة الحفصية في تونس.

احتل فرسان مالطة ـ وهم بقايا الصليبيين الذين خرجوا من الشام بعد تطهيره من الوجود الصليبي ـ منطقة برقة سنة ٩١٦هـ، ولكن المماليك استعادوها بسرعة، وفي نفس السنة ٩١٦هـ احتل الإسبان بقيادة «بترونافار» مدينة طرابلس وذبحوا السكان، وفي سنة ٩٣٦هـ قرر «شارلكان» إمبراطور إسبانيا التنازل عن طرابلس لجماعة فرسان مالطة مقابل مساعدتهم للصليبيين في الأعمال البحرية ضد العثمانيين، وقد ظل صليبيو فرسان مالطة في طرابلس حتى سنة ٩٥٨هـ.

بعد سقوط دولة المماليك سنة ٩٢٣هـ أصبحت ليبيا تابعة للدولة العثمانية؛ فأخذ العثمانيون على عاتقهم قضية طرد الصليبيين من طرابلس وسائر سواحل ليبيا والمغرب العربي كله، وبالفعل بعد معارك بحرية وبرية شرسة مع الإسبان استطاع القائد العثماني القدير «سنان باشا»، والقائد البحري الفذ «طرغول» تحرير طرابلس سنة ٩٥٨هـ وبعدها أصبح كامل التراب الليبي محررًا من الوجود الصليبي البغيض.

*** ليبيا والأطماع الإيطالية:**

أخذ الضعف يدب في أوصال الدولة العثمانية، وشعر الصليبيون بذلك؛ فأخذوا في الانقضاض على أطرافها شيئًا فشيئًا، ومع زيادة الضعف والوهن زادت حركة الهجوم والاحتلال الصليبي لأقاليم الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي، وجاء احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٢٤٦هـ لتطلق كل المخاوف والمحاذير من حملات صليبية جديدة على العالم الإسلامي؛ فأخذت الدولة العثمانية في إثارة الحمية الإسلامية لدى سكان أقاليمها وإعلان الرابطة والجامعة الإسلامية بينهم، وتحذير الناس من خطر الصليبيين ومكائدهم، كما عملت على تحسين الظروف المعيشية للسكان بخفض الضرائب وإدخال المشروعات.

لم تمنع هذه الإجراءات العثمانية من وقوع مصر والسودان وتونس والجزائر في قبضة الاحتلال الصليبي الأوروبي، وبقيت ليبيا في الوسط محط أنظار وأطماع الدول الأوروبية، وشعرت الدولة العثمانية بذلك، كما شعرت أنها لن تستطيع الدفاع عنها فعملت على تقوية الداخل الليبي؛ فنقلت بعض العائلات الكردية وأسكنتها في منطقة (سرتة)، كما أسكنت مسلمي جزيرة كريت بعد أن تعرضوا لتطهير عرقي بشع من الصليبيين بعد سقوطها سنة ١٣١٦هـ في منطقة برقة، كما فكرت أيضًا في إسكان اليهود في ليبيا في منطقة الجبل الأخضر، وكان اليهود وبالاً على ليبيا وأهلها فلقد ساعدوا الطليان على احتلال البلاد وارتكاب أبشع الجرائم والأعمال الوحشية بحق المسلمين هناك.

*** مقدمات الاحتلال الإيطالي:**

احتلت فرنسا تونس فشعر الطليان بخيبة أمل كبيرة من فوات اقتناصها، فتوجهوا إلى سواحل إفريقيا الشرقية لتعويض خسائرهم في تونس، ولكنهم هزموا أمام الأحباش في معركة «عدوة» سنة ١٣١٣هـ؛ وبالتالي لم يبقَ لهم سوى ليبيا، فجعلوا جل تركيزهم في كيفية الاستيلاء عليها واحتلالها.

اتبعت إيطاليا سياسة خبيثة في احتلالها لليبيا تقوم على التغلغل البطيء داخل البلد، وإحكام السيطرة الاقتصادية والمخابراتية عليها قبل العدوان العسكري والحربي، وجعلت لاحتلالها مقدمات مهدت بها لوطء التراب الليبي والاستيلاء عليه.

افتتحت إيطاليا فرعًا لبنك دي روما في طرابلس وبرقة، وأخذ هذا البنك في تسهيل إقراض المزارعين وبأية مبالغ يحتاجونها؛ وذلك نظير رهن أراضيهم، وقامت في نفس الوقت بتوزيع بذور وأسمدة فاسدة على المزارعين؛ مما أدى لتعذر المزارعين في السداد لبوار محاصيلهم؛ وبالتالي أخذ البنك يستولي على الأراضي شيئًا فشيئًا، ثم يقوم البنك بعد ذلك ببيعها بأبخس الأثمان للمستوطنين الطليان في ليبيا؛ فحدث خلل كبير في توزيع الثروات بين الليبيين والإيطاليين.

أنشأت إيطاليا مكتبًا للبريد والبرق في بنغازي كان وكرًا للتجسس، ونقل الأخبار والتقارير أولاً بأول دون رقابة، وأرسلوا العديد من البعثات الاستكشافية تحت غطاء البحث العلمي والكشوف الجغرافية والتنجيم عن المعادن، والهدف الحقيقي لذلك كله هو مسح البلاد ووضع الخرائط العسكرية، التي ستسير عليها

الحملات العسكرية عند غزو البلاد.

توسعت إيطاليا في بناء المدارس والمشافي والمعاهد التعليمية من أجل أغراض نشر الثقافة الإيطالية والتنصير بين أبناء البلد، وتساهلت في دخول الليبيين هذه المؤسسات لكسب الشعبية بين الناس، وأخذت البعثات التنصيرية الكاثوليكية تنهال على ليبيا خاصة في طرابلس والسواحل.

بجانب هذه المقدمات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، سلكت إيطاليا مسلكًا سياسيًا دوليًا لضمان سكوت قوى الاستعمار العالمية عن احتلال إيطاليا، فاتفقت مع فرنسا وإنجلترا على ذلك، وتم تنسيق المواقف في مؤتمر الجزيرة سنة ١٣٢٤هـ واستعدت إيطاليا للهجوم على ليبيا في المناسبة الملائمة، وكادت أن تفعل ذلك سنة ١٣٢٦هـ لولا مسارعة الدولة العثمانية بإرسال جيش قوي أجبر الطليان على تأجيل الحرب.

*** الحملة الصليبية الإيطالية على ليبيا:**

أصبح الطريق ممهدًا أمام الطليان لاحتلال ليبيا بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني؛ فأرسلت إنذارًا للدولة العثمانية في ٤ شوال سنة ١٣٢٩هـ ـ ٢٧ سبتمبر ١٩١١م تدعي فيه سوء معاملة النظام في ليبيا للجالية الإيطالية واضطهادهم، وكانت مدة الإنذار ٢٤ ساعة فقط، ولو فرضنا أن الدعوى صحيحة، فكيف تستطيع الدولة رفع المظالم في يوم واحد؛ مما يوضح تبييت نية الطليان لغزو إيطاليا لليبيا.

حاولت الدولة العثمانية عبثًا وقف هذا الاحتلال الظالم، واتصلت بالدول

الأوروبية لوقف إيطاليا عن حربها؛ فلم تجد آذانًا مصغية، فلم تكن تعرف أنه أمر قد بُيّت بليل، وتشاور فيه من قبل في أروقة مؤتمرات التآمر والكيد للعالم الإسلامي.

في ٧ شوال سنة ١٣٢٩هـ ـ ٣٠ سبتمبر ١٩١١م بدأ الأسطول الإيطالي في قصف المدن الليبية؛ فقُصف (درنة) ثم (طرابلس) و(بنغازي)، ونزلت الجيوش الإيطالية السواحل الليبية بثلاثمائة وأربعين ألف مقاتل وكميات ضخمة من الأسلحة والذخائر، في حين كانت الحامية العثمانية تقدر بخمسة آلاف جندي في طرابلس وألفين في برقة، ضعيفة التسليح، قليلة التجهيز.

أرسلت الدولة العثمانية جيشًا لمساعدة الليبيين ضد الصليبيين الطليان؛ فردت إيطاليا بتوسيع نطاق الحرب لتجبر العثمانيين على ترك ليبيا لشأنها وحدها وتسحب جيشها؛ فاحتلت إيطاليا جزيرة (رودوس) والجزر الأخرى القريبة من الأناضول، وقصفت مدينة بيروت، وهددت مضيقيْ البوسفور والدردنيل، ودعمت ثورة نصارى البلقان ضد الدولة العثمانية.

دفعت هذه الخطوات الإيطالية ـ نحو توسيع الحرب الصليبية على العالم الإسلامي ـ الدولةَ العثمانية لطلب الصلح مع الطليان، وعقدت معهم معاهدة (أوشي) قرب لوزان بسويسرا في شوال سنة ١٣٣٠هـ ـ ١٩١٢م، خرجت الدولة العثمانية بعدها من ليبيا وتركت الليبيين وحدهم في الميدان أمام جحافل الطليان المشحونين بحقد صليبي حالك السواد؛ لتبدأ بعدها فصول رائعة من ضروب البطولة والجهاد الإسلامي الخالص ضد الاحتلال الصليبي الإيطالي.

حركات التحرير الإسلامية الليبية

كان للفكر القومي الطوراني الذي تبناه قادة جمعية الاتحاد والترقي، الذين خلعوا السلطان عبد الحميد الثاني، واستولوا على مقاليد الأمور في الدولة العثمانية، كان لهذا الفكر الأثر الأكبر في تخلي العثمانيين عن الدفاع عن ليبيا وتركها لرجال الطريقة السنوسية يحكمونها ويتولون الدفاع بأنفسهم عنها، فقبل رحيل القائد العثماني أنور باشا عن ليبيا زار زعيم الطريقة السنوسية أحمد شريف السنوسي، وأبلغه أوامر السلطان باستقلال ليبيا؛ وهذا الأمر جعل رجال الطريقة السنوسية في مواجهة الاحتلال الإيطالي، وعلى كواهلهم يقع عبء مقاومة الغزو الصليبي الغاشم.

❑ الطريقة السنوسية والاحتلال الإيطالي :

الطريقة السنوسية إحدى طرق ثلاث للإصلاح الإسلامي ظهرت في القرن الثالث عشر الهجري، وهي الدعوة السلفية في الجزيرة العربية والدعوة المهدية في السودان، والدعوة السنوسية في ليبيا والجزائر، وكان للدعوات الثلاث أثر كبير وواضح على حركة الفكر الإسلامي والتجديد الإصلاحي للأمة.

صاحب الطريقة السنوسية، هو السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي من سلالة الملوك الأدارسة، الذين أسسوا الدولة الإدريسة بالمغرب سنة ١٦١هـ وُلد ببلدة مستغانم بالجزائر سنة ١٢٠٢هـ ـ ١٧٨٧م في بيت علم وفضل؛

فنشأ نشأة صالحة، ولكنها متأثرة بالصوفية تأثرًا كبيرًا، وتعمق السنوسي في التنقل والترحال فزار بلاد المغرب العربي كله ثم مصر، والتقى شيوخ الأزهر وأئمة المذاهب، ثم زار الحجاز وحج البيت؛ وبالحجاز تبلورت أفكاره ووضع أسس طريقته التي جمع فيها بين الصوفية والسلفية، والتي تقوم على فكرة الإصلاح الديني والاجتماعي للأمة والتصدي لكل مظاهر الخروج على الدين وذلك ببساطة ويسر.

وقد اعتمد السنوسي على إنشاء الزوايا في شتى أنحاء العالم الإسلامي؛ لتكون مراكز بث دعوية وإرشادية لطريقته ومنهجه، ولم تكن هذه الزوايا صوامع أو أديرة للنساك والزهاد، بل كانت مراكز نشاط اجتماعي وديني كبير، وقد استقر السنوسي في منطقة الجبل الأخضر سنة ١٨٤٠م ـ ١٢٥٨هـ واتخذ منها مقرًا لدعوته، وبالجملة كانت الطريقة السنوسية طريقة صوفية نشطة متأثرة بالدعوة السلفية والأفكار الإصلاحية لها.

اعتبرت الدولة العثمانية الطريقة السنوسية طريقة مشروعة ورسمية، واعترفت بها وعندما خرجت من ليبيا سلمتها مقاليد الحكم؛ فقاد أحمد شريف السنوسي زعيم السنوسيين حركة الجهاد الإسلامي ضد الاحتلال الطلياني في طرابلس وبرقة وفزان، وشهدت منطقة الساحل معارك ضارية، أشدها وأشهرها معركة الجمعة في ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٣١هـ ـ ١٦ مايو ١٩١٣م، وقد باشر فيها أحمد شريف القتال بنفسه، وأرغم الطليان على الارتداد إلى مدينة (درنة)، وفشلت محاولة الطليان في اقتحام الجبل الأخضر معقل السنوسيين، ثم حاول الصليبيون الطليان احتلال واحة

مرزوق بفزان، ولكنهم أجبروا على التراجع وانحصروا في الساحل.

اندلعت الحرب العالمية الأولى، ودخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا، على حين انحازت إيطاليا إلى جانب الحلفاء، فأرسلت الدولة العثمانية عدة قادة لمساعدة الليبيين في حربهم ضد الطليان، وحقق الليبيون انتصارات رائعة على الطليان حتى أن الليبيين قد حاولوا الهجوم على الإنجليز في مصر، ولكنهم فشلوا وتنازل أحمد شريف عن الزعامة إلى ابن عمه محمد إدريس، الذي قاد السنوسيين لعدة انتصارات على الطليان.

أجبرت هذه الهزائم المتتالية الطليان على إبرام اتفاقية مع محمد إدريس زعيم السنوسيين اعترفوا له فيها بحكمه على المناطق الداخلية، كما تعهدوا باحترام الإسلام، وعدم التعرض للزوايا السنوسية، ولكنهم سرعان ما نقضوا هذه الاتفاقية؛ إذ اتضح أنهم ما عقدوها إلا لالتقاط الأنفس، وحشد القوات وانتظارًا للإمدادات، وبالفعل هجموا بأعداد غفيرة على طرابلس وأعادوا احتلالها في صفر ١٣٤٢هـ - سبتمبر ١٩٢٣م، ولكنهم لم يستطيعوا احتلال الجبل الأخضر بسبب المقاومة الهائلة التي أبداها السنوسيون بقيادة البطل عمر المختار، وذلك سنة ١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م.

❑ حركة أسد الصحراء عمر المختار:

اضطر محمد إدريس السنوسي للخروج من ليبيا واللجوء إلى مصر، وترك قيادة المجاهدين للمجاهد الكبير عمر المختار، وكان وقتها على مشارف السبعين، وكان من

قبل شيخ لزاوية القصور بالجبل الأخضر، وكان من أوائل من جاهد الطليان، وأظهر بطولة نادرة وشجاعة فائقة في القتال حتى أنه كان يخرج للقتال بنفسه، بل يقوم باستطلاع مواقع العدو بنفسه.

حدثت تغيرات سياسية كبيرة داخل إيطاليا وتسلم موسوليني زعيم الحزب الفاشي زعامة إيطاليا وكان طاغية جبارًا مهووسًا بالسلطة مستبدًا لأقصى درجة، فألغى كل الاتفاقيات السابقة مع الحركة السنوسية، ورفض الاعتراف أو التقيد بالتزامات الحكومة السابقة نحو احترام الإسلام وشعائره، ثم عيَّن «موسوليني» حاكمًا جديدًا على ليبيا، وأعطاه صلاحيات واسعة ووضع تحت تصرفه جيشًا ضخمًا يقوده جزار إيطاليا الشهير «جرازياني» ومساعده الداهية «بادوليو».

أراد «بادوليو» أن يتعرف على خطط عمر المختار واستعداداته ومعنوياته، فعرض عليه التفاوض لمعرفة شروطه، فجاءت إجابات المختار لتكشف عن عقيدة راسخة ويقين فولاذي وإيمان يناطح الجبال، وعرف «بادوليو» أن المختار لن ينكس راية الجهاد أبدًا، فحشد الطليان أعداد ضخمة من الأجلاف البرابرة الذين هم أجهل من الدواب، مشحونين بحقد صليبي طافح، جلبوهم من جميع أنحاء إيطاليا وهم أبعد ما يكون عن الآدمية والإنسانية، فارتكبوا مجازر وحشية، وانتهكوا الحرمات والأعراض، وهدموا المساجد وداسوا المصاحف وكتب العلم بأقدامهم النجسة، وكان عدد من ذبحوهم من أهل ليبيا في منطقتي برقة وطرابلس زيادة على النصف مليون مسلم ومسلمة.

لم تمنع هذه الوحشية المفرطة والبربرية الصليبية المجاهدين بقيادة عمر المختار من مواصلة المقاومة مستخدمين أسلوب الهجمات الخاطفة وحرب العصابات وخاصة في برقة والجبل والأخضر تحديدًا، ففرض الطليان حصارًا شديدًا على مناطق المجاهـدين حتى لا تصلهم المساعدات والإمدادات من دول الجوار.

ثم تكاملت فصول الحصار على المجاهدين بدخول إنجلترا حلبـة الـصراع ضـد المجاهدين وذلك عندما تنازلت مصر أو بالأحرى إنجلترا البلد المحتل لها عن واحـة (جغبوب) لإيطاليـا وهـي منطقـة الـدعوة الـسنوسية وذلـك في جمـادى الأولى سـنة ١٣٤٤هـ ـ ديسمبر ١٩٢٥م، فاقتحمها الطليان وأمعنوا في تدمير الزوايـا الـسنوسية، ثم أحكموا سيطرتهم على (فـزان) وغـربي ليبيـا وتحركـوا بعـدها إلى واحـات الجـزء الشرقي فاحتلوها الواحدة تلو الأخرى حتـى احتلـوا واحـات الكفـرة آخـر معاقـل السنوسيين في شعبان سنة ١٣٤٩هـ.

أرغمت هذه الوحشية الصليبية كل المدافعين والمجاهدين على الاستسلام وإلقـاء السلاح إلا الأسد عمر المختار الذي استمر وحده في الـساحة حتـى حانـت اللحظـة التي وقع فيها أسيرًا، عندما خرج في سرية استطلاعية مع خمسين من فرسانه فاصطدم مع قوات كبيرة للعدو واستشهد معظم رجاله وأثخن هو بالجراح وقتل جواده وكـان وقتها في الخامسة والسبعين من العمر، وأخذ أسيرًا ولم يعرفوه بادئ الأمـر وذلـك في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٥٠هـ فلما تعرفوا على شخصيته عمـت الفرحـة الطاغيـة نفـوس

الطليان الصليبيين واستعدوا لحفل التنكيل به.

نُقل الشيخ المجاهد عمر المختار إلى «سوسة» ومنها أركب الطراد «أوسيني» وسجن أربعة أيام ثم حوكم محاكمة صورية، أظهر فيها ضروبًا فائقة من الشجاعة ورباطة الجأش وثبات الجنان ما أغاظ جلاديه، فحكموا بإعدامه على الرغم من سنوات عمره الطويلة والتي جاوزت الخامسة والسبعين، فأعدم شنقًا في ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٠هـ - ١٦ سبتمبر ١٩٣١م بمركز «سلوق» في بنغازي، وإمعانًا في التشفي من الليبيين، أجبروا الأهالي على مشاهدة إعدامه، وقد أحس الطليان بخطئهم في ذلك فقاموا بتعمية موضع قبره ودفنوه سرًا، وبرحيل الأسد عمر المختار خلت ساحة الجهاد الليبي من أهم وأقدر القادة الأفذاذ.

شعر الطليان الصليبيون بخلو الساحة لهم بعد رحيل أسد الصحراء عمر المختار فأفرغوا شحنات متتالية من حقدهم الصليبي على السكان، فصادروا الأراضي والأموال وفتحوا باب الهجرة للطليان إلى ليبيا على مصراعيه، وألزموا السكان على التعلم والتحدث بالإيطالية، وتتبعوا القادة والزعماء والمجاهدين بالقتل والنفي والتشريد، وساقت عشرات الآلاف من الليبيين إلى ساحات القتال للاشتراك مع الطليان في الحرب العالمية الثانية.

أدت هذه الأعمال الوحشية والسياسات الصليبية لخفوت صوت الجهاد والمقاومة حتى قامت الحرب العالمية الثانية والتي اشتركت فيها إيطاليا مع دول المحور

ألمانيا واليابان، ووجد الليبيون بلادهم قد أصبحت ميدانًا واسعًا للقتال بين الحلفاء ودول المحور، واستفاد المجاهدون الليبيون من هذه التحولات السياسية، إذ عملت إنجلترا على إمدادهم بالسلاح والدعم المادي والمعنوي لمحاربة الطليان وظل الجهاد بين مد وجزر بتراوح كفة القتال بين الحلفاء والمحور وتشكلت أول حكومية ليبية مستقلة بالخارج وتحت رياسة محمد إدريس السنوسي.

انتهت الحرب الثانية بمأساة أخرى لليبيين، إذ وجدوا بلادهم قد أصبحت تحت احتلال ثلاثي؛ إنجليزي في برقة وطرابلس، فرنسي في فزان، أمريكي في الساحل حيث أقاموا عدة قواعد حربية، وبعد فترة من هذا الوضع الشائك ومع تضارب المصالح الصليبية بليبيا، اتفق الفرقاء الصليبيون على استقلال ليبيا وذلك في ٣٠ محرم ١٣٦٩هـ ـ ٢١ نوفمبر ١٩٤٩م.

* * *

المصادر والمراجع

(١) التاريخ الإسلامي.

(٢) أطلس تاريخ الإسلام.

(٣) استقلال ليبيا.

(٤) تاريخ المغرب.

(٥) الشرف والتسامي.

(٦) الحركة السنوسية.

(٧) تاريخ الدولة العثمانية.

(٨) في تاريخ العرب الحديث.

(٩) ليبيا بين الماضي والحاضر.

(١٠) ليبيا من الاحتلال الإيطالي إلى الاستقلال.

(١١) ليبيا منذ الفتح العثماني.

(١٢) بداية المأساة.

(١٣) العدوان.

(١٤) عمر المختار

* * *

الفصل الرابع

الاحتلال البرتغالي لجنوب الخليج

فتح المسلمون شبه الجزيرة الأيبيرية «أو الأندلس» سنة ٩٢هـ وأقاموا دولة عظيمة للإسلام هناك، وكانت منطقة غرب الأندلس ـ أو الغرب كما يسميه المسلمون ـ من أوائل ما فتحه المسلمون بالأندلس، وكانت تلك المنطقة فقيرة نوعًا ما عن باقي الأندلس، لذلك لم يهتم بها المسلمون كثيرًا، وحدثت في المنطقة مجاعة سنة ١٢٣هـ دفعت كثيرًا من القبائل البربرية المسلمة للرحيل منها، فجاءت جماعات نصرانية وحلت محل المسلمين وأسسوا إمارة صليبية في شمال غرب الأندلس، وهي الإمارة التي أصبحت بعد ذلك مملكة البرتغال صاحبة التاريخ الطويل في محاربة المسلمين.

* البرتغال وكرسي البابوية:

ترجع مملكة البرتغال من حيث رقعتها الإقليمية، أو من حيث أرومتها الملكية إلى أصول متواضعة، فولاية لوزيتانيا في الشمال الغربي لشبه الجزيرة الأيبرية تمثل نواة هذه المملكة، وكان لأهلها سمات وخصائص يتميزون بها عن الإسبان بقية سكان الجزيرة، وهذه الولاية بعد الفتح الإسلامي وما حدث بعد ذلك من هجرة المسلمين من شمال الولاية إلى جنوبها بسبب المجاعة، انقسمت لشطرين: شمالي بيد النصارى من أهل لوزيتانيا، وجنوبي بيد المسلمين الذين أطلقوا عليها اسم ولاية الغرب الأندلسية.

ولما قامت دولة ملوك الطوائف قامت بها مملكة بني الأفطس، وقد أخذ نصارى الشمال في التوسع جنوبًا على حساب مسلمي الجنوب شيئًا فشيئًا، حتى استطاع فرناندو الأول ملك إسبانيا النصرانية من فتح معظم قواعد المسلمين وآخرها مدينة قلمرية سنة ٤٥٦هـ، وجعل من هذه المنطقة ولاية مستقلة باسم «البرتغال» بالاشتقاق من اسم «بورتوكالي».

كان أهل هذه الولاية يتوقون للاستقلال عن الإسبان، وحاولوا ذلك عدة مرات، ولكنهم فشلوا حتى ظهرت شخصية الأمير ألفونسو هنريكيز وهو من سلالة ملوك قشتالة ـ إسبانيا القديمة ـ وأمه كانت ملكة على البرتغال، وجده هو أشهر ملوك إسبانيا ألفونسو السادس، الذي هزمه المرابطون في معركة الزلاقة الشهيرة سنة ٤٧٩هـ، أصبح ألفونسو هنريكيز أميرًا على البرتغال سنة ٥٢٢هـ، وقد وضع نصب عينيه هدفًا مقدسًا، وهو قيام مملكة مستقلة للبرتغال، وخاض من أجل ذلك الهدف معارك شرسة مع خصومه الإسبان، ولما شعر ألفونسو هنريكيز أنه لن يقوى على مقاتلة الإسبان وحده قرر اللجوء إلى كرسي البابوية وطلب من البابا التدخل لدى الإسبان حتى تنال البرتغال استقلالها، وقدم من أجل ذلك كل فروض الطاعة والولاء للبابا، وتعهد أمامه بمحاربة مسلمي الأندلس ليل نهار، وفتح بلاده على مصراعيها للرهبان والقساوسة الكاثوليك لينشروا المذهب الكاثوليكي بها ويقضوا على الشعائر القوطية القديمة التي كان يتعبد بها أهل لوزيتانيا سابقًا.

وأمر هنريكيز بتشكيل فرق جماعات الفرسان الدينية على غرار جماعة فرسان

المعبد والداوية المشهورة في الحملات الصليبية بالمشرق، وأبدى في ذلك حمية وغيرة صليبية كبيرة فاق بها كل معاصريه، وكرس كل حياته لمحاربة المسلمين من أجل ذلك ساعد كرسي البابوية البرتغاليين على الاستقلال عن الإسبان، وفي المقابل فتحت البرتغال سواحلها للحملات الصليبية القادمة من أوروبا الغربية إلى العالم الإسلامي بل استعان البرتغاليون بالصليبيين القادمين في معاركهم ضد مسلمي الأندلس مثلما حدث عندما استولى البرتغاليون على مدينة «شلَب» أهم القواعد الإسلامية الباقية في الغرب، وذلك بمعاونة القوات الصليبية المتجهة إلى المشرق سنة ٥٨٥هـ.

ولذلك كله كانت علاقة البرتغال بكرسي البابوية شديدة التميز والمتانة ونفوذ البابا على البرتغاليين سيظل قائمًا وممتدًا عبر العصور، وسيظهر أثره جليًا بعد ذلك في الحملات الصليبية المشهورة التي شنها البرتغاليون على العالم الإسلامي.

*** البرتغال وحركة الكشوف الجغرافية:**

كان لسقوط دولة الإسلام في الأندلس سنة ٨٩٧هـ أكبر الأثر في نقل ميادين القتال بين العالم الإسلامي والصليبي إلى قلب العالم الإسلامي وسواحله الواسعة والممتدة عبر قارات العالم القديم، ونظرًا لكون البرتغال دولة بحرية في المقام الأول، كانت أسبق من غيرها من دول أوروبا في ركوب البحر والإغارة على العالم الإسلامي وذلك حتى قبل سقوط الأندلس، وبوحي ومباركة من كرسي البابوية أطلقت البرتغال حملاتها الصليبية الشهيرة على العالم الإسلامي، والمعروفة تاريخيًا بحركة

الكشوف الجغرافية، وذلك أيام ملك البرتغال هنري الثالث الملقب بهنري الملاح.

وكان الهدف الحقيقي من هذه الحركة هو نشر النصرانية في أرجاء المعمورة، والسيطرة على التجارة العالمية بهدف إضعاف المسلمين، وذلك الرأي ليس من عند أنفسنا أو قلناه بهوى وتعصب بل هو مأخوذ من كتبهم وتاريخهم ورسائلهم المتبادلة، **وهذه طائفة من أمثال هذه المكاتبات:**

كتب البابا نيقولا الخامس إلى أمير البرتغال مهنئًا ومباركًا حركة الكشوف الجغرافية فقال: «إن سرورنا العظيم إذ نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال إذ يترسم خطى والده العظيم الملك يوحنا، وإذ تلهمه الغيرة التي تملك الأنفس باعتباره جنديًا باسلاً من جنود المسيح، قد دفع باسم الله إلى أقاصي البلاد وأبعادها عن مجال علمنا كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب الكفرة...». ثم كتب له حقًا بتملك كل ما يكتشفه جغرافيًا حتى بلاد الهند.

قال البوكيرك ـ أكبر قادة البرتغال ـ في خطاب النصر عند جزيرة ملقا لجنوده: «إن إبعاد العرب عن تجارة الأفاوية هي الوسيلة التي يرجو بها البرتغاليون إضعاف قوة الإسلام، والخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وبإطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندفع لها هنا بعد ذلك لهيب وذلك لأني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة (ملقا) هذه من أيديهم (يقصد المسلمين) لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرًا بعد عين».

قال ملك البرتغال عمانويل الأول معلنًا أهداف الكشوف البرتغالية: «إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر النصرانية والحصول على ثروات الشرق».

قال البوكيرك في يومياته كاشفًا عن مدى المخطط الصليبي والأهداف الدينية لحركة الكشوف الجغرافية: «كان هدفنا الوصول إلى الأماكن المقدسة للمسلمين ـ مكة والمدينة ـ واقتحام المسجد النبوي، وأخذ رفات النبي محمد ﷺ رهينة لنساوم عليها العرب من أجل استرداد القدس».

وللتصديق على صحة هذا الهدف الخبيث والفكرة الشيطانية للبرتغاليين الصليبيين ذكر ابن إياس الحنفي في كتابه «بدائع الزهور» أنه في زمن الشريف بركات أمير مكة عندما كانت مكة تابعة للدولة المملوكية وفي سنة ٩١٥هـ تم القبض على ثلاثة جواسيس متنكرين في زي العثمانيين ويتحدثون بالتركية والعربية ثم اتضح أنهم نصارى جاءوا للتجسس على مكة ومعرفة أحوالها لصالح البرتغاليين، وقد أرسلوا إلى السلطان قنصوة الغوري الذي أمر بإعدامهم في الحال على باب زويلة.

*** البرتغال وجنوب الخليج:**

مما سبق عرضه يتضح جليًا أن الدافع الحقيقي لحركة الكشوف الجغرافية للبرتغاليين كان صليبيًا محضًا وهو نشر النصرانية ومحاربة المسلمين، وأن الدافع الاقتصادي يأتي في الدرجة الثانية وكعنصر مساعد في محاربة المسلمين بالقضاء على

مواردهم المالية ولتحقيق الأهداف البرتغالية الشريرة رأى كبار القادة الصليبيين أمثال «البوكيرك» و«فاسكو دي جاما» و«روي جوميز» ومن قبلهم مليكهم «هنري الملاح» ضرورة التحكم في مضيقي «هرمز» و«باب المندب» لإحكام السيطرة على العالم الإسلامي من ناحية الخلف وضرب اقتصادياته في مقتل وتنفيذ مخططهم الشرير والذي لم يسبقهم فيه أحد من الناس، بأخذ الجثمان الشريف الطاهر ليسد الخلق أجمعين نبينا محمد ﷺ والمساواة عليه ببيت المقدس.

من أجل ذلك خرج البحار البرتغالي «فاسكو دي جاما» في رحلته الشهيرة للدوران حول القارة الإفريقية، واكتشاف طريق جديد للتجارة، والوصول لجنوب الخليج، ومضيقي هرمز وباب المندب، وذلك من دون المرور بالبحر المتوسط ثم الأحمر حتى يتفادى المماليك وبالفعل وبعد عدة أشهر وصل فاسكو دي جاما إلى سواحل الهند سنة ٩٠٤هـ وأطلق على الطريق الجديد اسمًا صليبيًا محضًا وهو رأس الرجاء الصالح، وكان لاكتشاف هذا الطريق أثر بالغ على اقتصاديات الدولة المملوكية في مصر والشام واليمن، وكان ذلك من أسباب سقوط الدولة المملوكية بعد ذلك بقليل، وأيضًا أثر في قدرة المماليك على التصدي لهذا العدوان الصليبي الغاشم على العالم الإسلامي.

ارتبطت الحملات الصليبية البرتغالية على جنوب الخليج والهند باسم القائد البحري الشهير «البوكيرك»، وهو واحد من أشد وأعتى الصليبيين الذين حاربوا الإسلام والمسلمين، وكان هذا الداهية يفيض حقدًا وكراهية للمسلمين، يضطرم

بنفسية صليبية عميقة وعلى يديه وتحت قيادته وقعت المجازر الصليبية الرهيبة لأهل جنوب الخليج والهند، وهو الذي وضع الخطة الخبيثة للاستيلاء على منافذ البحر الأحمر والخليج العربي واقتحام الأماكن المقدسة للمسلمين، ولم تهدأ حدة الحملات الصليبية البرتغالية إلا بعد هلاك هذا الطاغية الصليبي «البوكيرك».

*** الحملات البرتغالية على جنوب الخليج:**

وصل البرتغاليون إلى سواحل الهند سنة ٩٠٤هـ بعد أن اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح، ولما رأوا الخيرات الوفيرة هناك قرروا الاستيلاء عليها، فأرسلوا أسطولاً بحريًا كبيرًا في السنة التالية، ولكنه اصطدم مع الممالك الإسلامية الكبيرة هناك ولم يستطع السيطرة إلا على عدة نقاط ساحلية في جنوب الهند مثل دامان شمال بومباي وتموا وجزيرة ديو، ثم زار الطاغية «البوكيرك» الهند أول مرة سنة ٩٠٩هـ وتشاور مع باقي القادة البرتغاليين في كيفية ضرب اقتصاديات العالم الإسلامي وعرض عليهم خطته الآثمة في الاستيلاء والسيطرة على منافذ البحر الأحمر والخليج العربي فوافق عليها الجميع، وعاد «البوكيرك» إلى البرتغال لأخذ العدة اللازمة لوضع الخطة في حيز التنفيذ الفعلي، ثم عاد إلى الهند سنة ٩١٢هـ مرة أخرى استعدادًا للهجوم الشرس على الخليج العربي.

هاجم البرتغاليون بقيادة «البوكيرك» سواحل عمان أولاً سنة ٩١٣هـ وبدءوا الحرب الصليبية باستيلائهم على «سوقطرى»، وحاولوا بعدها الاستيلاء على «عدن»

للسيطرة على باب المندب، ولكنهم فشلوا لحصانة المدينة واستبسال أهلها في الدفاع عنها، فعادوا إلى سواحل عمان ودمروا جزيرة «المصيرة» و«رأس الحد» و«صور» وذبحوا أهلها وذلك لإدخال الرعب على باقي سكان الخليج، وبالفعل أثمرت هذه الوحشية المرعبة في سهولة السيطرة على العديد من المدن بساحل عمان، إذ قام حاكم «قلهات» بتسليم المدينة للبرتغاليين خوفًا من مجازرهم المشهورة، ثم انتقلوا إلى مدينة «قرياط» فحاول أهلها الدفاع عنها فقصفهم بالمدافع حتى أذعنوا بالتسليم فقبض البوكيرك على المجاهدين ومثل بهم، فجدع الأنوف وقطع الآذان واغتصب النساء، ثم توجهوا بعد ذلك إلى مسقط، وكانت مدينة حصينة، فتفاوض البرتغاليون مع حاكمها على التسليم، فوافق رغم حصانة المدينة وقدرتها على الصمود ولكنه أبى إعلان الخضوع لملك البرتغال، فاعتبر البوكيرك ذلك سببًا للهجوم على المدينة، وشدد من قصفه للمدينة حتى استولوا عليها وفعلوا بأهلها ما تعجز الأقلام وتقصر العبارات عن وصفه، ثم توجهوا إلى مدينة صحار التي أعلن أهلها مباشرة خضوعهم للصليبيين وملكهم، ثم اتجهوا بعدها إلى «خورفكان» فقاوم أهلها البرتغاليين مقاومة مجيدة، ولم يستطع البرتغاليون فتحها رغم تفوقهم الكبير، فانتقلوا إلى مدينة «هرمز» الإستراتيجية وحاصروها واستماتت أهلها في الدفاع عنها وجاءتهم مساعدات من أهل «قلهات»، فصب البوكيرك جم غضبه على المدينة وشعر أن سمعته كصليبي مشهور ستهدد إذا فشل في فتح هرمز حيث سيكون قد فشل في الاستيلاء على مدينتين متتاليتين خورفكان ثم هرمز، فشدد القصف والهجوم حتى استولى عليها، ولكن

قواده وجنوده ثاروا عليه بسبب مواصلة القتال والإرهاق الذي نـالهم مـن متابعـة الحـرب طوال السنة، فرفع البوكيرك الحرب ليستريح جنوده قليلاً في جزيرة سوقطرى.

رجع البوكيرك سنة ٩١٤ من سوقطرى لمواصلة حربه وخططه في الـسيطرة عـلى جنوب الخليج، وبدأ بقلهات للانتقام مـن أهلهـا الـذين سـاعدوا أهـل هرمـز أثنـاء حصارها، فنهب المدينة وأمعن في مصادرة الناس، ثم سـار إلى هرمـز وضرب عليهـا حصارًا شديدًا وقبل أن يشفي غليله وحقده الصليبي من أهلها جاءته الأوامر الملكيـة من البرتغال بالتوجه إلى الهند لمواجهة الأساطيل التي أرسلتها الدولـة المملوكيـة سـنة ٩١٤هـ والتي انتصرت على الأسطول البرتغالي، فـأسرع البـوكيرك إلى الهنـد، وقـاد الأسطول البرتغالي للانتصار عـلى الأسـطول المـصري بقيـادة «حـسين الكـردي» في معركة «ديو» الشهيرة في التاريخ وذلك سنة ٩١٥هـ والتي قضت على القـوة البحريـة للمماليك وخلا الجو تمامًا للبرتغاليين.

ظل البوكيرك في الهند فترة من الوقت لترسيخ وضع البرتغاليين هنـاك، وخـلال هذه الفترة حاول البرتغاليون في الخليج فتح مدينة «عدن» الإستراتيجية عـدة مـرات ولكنهم فشلوا في كل مرة، مما جعلهم يتجهـون نحـو مـدينتي زيلـع وبربـرة لـسهولة الاستيلاء عليهما، وقد ارتكبوا فيهما أبشع الجرائم ونفثوا في صدورهم من غل وحقـد لعدم قدرتهم على الاستيلاء على مدينة عدن.

رجع البوكيرك الطاغية مرة أخـرى إلى جنـوب الخلـيج وفي عقلـه هـدف واحـد

الاستيلاء على مدينة هرمز والتي استعصت عليه مرتين، وجعلها قاعدة الوجود البرتغالي بالمنطقة وبالفعل وبعد حصار شديد سقطت المدينة سنة ٩٢١هـ فجعل ابن أخيه وكان لا يقل عنه حقدًا وصليبية حاكمًا على هرمز ونائبًا عنه في المنطقة ثم عاد إلى الهند وفي الطريق أصيب الطاغية بمرض عضال تساقط منه فيه لحمه وهلك سنة ٩٢٢هـ وبمهلكه فقد البرتغاليون القائد الفذ والزعيم المخلص لصليبيته والذي كان يؤجج مشاعر جنوده بخطبه وحماسته الشهيرة، وأصبح ابن أخيه القائد الجديد للبرتغاليين في المنطقة.

استولى البرتغاليون على البحرين بعد وفاة الطاغية البوكيرك سنة ٩٢٢هـ فأحكموا بذلك سيطرتهم على جنوب الخليج، وحاولوا الاستيلاء على عدن مرة أخرى ولكنهم فشلوا، ونتيجة للسياسات الصليبية البشعة التي اتبعها البرتغاليون من إرهاب وتقتيل وتحريق ونهب وسلب ثار الناس جميعًا من قلهات حتى البحرين ضد الوجود البرتغالي وانقضوا على الحاميات الموجودة في بلادهم وفتكوا بها جميعًا مما حدا بالبرتغاليين إلى طلب النجدة مرة بعد مرة من إخوانهم في الهند، فجاءت تعزيزات قوية سنة ٩٢٩هـ وتفنن البرتغاليون في تدمير وسحق المدن الثائرة فكانوا يمثلون بجثث الأسرى، ولم تفت هذه الوحشية البربرية في عضد الناس هناك حيث لم يعد هناك صبر يتذرع به ولا شيء يخسرونه، فعادوا إلى الثورة مرة أخرى سنة ٩٣٢هـ بقلهات، وأخرى في البحرين سنة ٩٣٥هـ وفي كل مرة يرد البرتغاليون بمنتهى القسوة والهمجية.

*** البرتغاليون والصفويون:**

من الأمور الثابتة تاريخيًا والتي تضاف إلى السجل المخزي والحافل بالمواقف المشابهة للشيعة الروافض أن البرتغاليين الصليبيين قد تحالفوا مع الدولة الصفوية الشيعية، وذلك منذ سنة ٩٢٠هـ وبعد الهزيمة المريرة التي نالها الصفويون على يد العثمانيين في معركة جالديران، حيث دفع الحقد والعمى المذهبي عند الصفويين الروافض للتعاون مع البرتغاليين ألد أعداء الإسلام، على الرغم من علم الصفويين اليقيني بطبيعة وحقيقة المخططات الصليبية عند البرتغاليين وما يسعون إليه من اقتحام مكة والمدينة، فلقد أرسل البوكيرك برسالة ود وصداقة للشاه إسماعيل الصفوي سنة ٩١٥هـ يعرض فيها عقد المحالفة والاتفاق على العالم الإسلامي، وقد جاء في هذه الرسالة ما يلي:

«إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو في القطيف أو في البصرة، وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل ما يريد».

وهذه الرسالة توضح جليًا علم الصفويين المسبق بخطط ونوايا البرتغاليين ضد العالم الإسلامي ولكن لم يمنعهم ذلك من التحالف معهم، ومن أجل هذا الحلف

الصليبي ـ الرافضي، تخلى الصفويون عن مساعدة سكان جنوب الخليج وتركوهم نهبًا للعدوان البرتغالي وأقروا استيلاء البرتغاليين على هرمز نظير مساعدة البرتغاليين لهم في الاستيلاء على البحرين والقطيف والأحساء، ونظير مساعدة الأسطول البرتغالي للشاه إسماعيل الصفوي على قمع الثورة السنية في مكران، كما تضمن الحلف مسألة تقسيم البلاد العربية بين الحليفين، فيحتل الصفويون مصر ويحتل البرتغاليون فلسطين.

ولكن إرادة الله عز وجل تسري فوق الجميع، ومهما يمكرون أعداء الأمة بها فمكر الله عز وجل بالكافرين والمجرمين أعظم، فلقد هلك البوكيرك فجأة كما قلنا سنة ٩٢١هـ وكان هذا الشيطان مهندس هذا الحلف الآثم، وبمهلكه فشلت كل الخطط والأحلاف، وما استفاد لا هذا ولا ذاك بشيء إلا الذم والويل وكشف حقيقة الروافض وخطرهم على العالم الإسلامي.

* * *

*** البرتغاليون والمماليك:**

عندما دهم العدوان الصليبي البرتغالي الغاشم جنوب الخليج، وضرب العالم الإسلامي في سواحله الشرقية، كان العالم الإسلامي وقتها موزعًا تحت ثلاثة دول كبرى؛ الدولة العثمانية في آسيا الصغرى وما حولها في أوروبا وآسيا الوسطى، والدولة المملوكية في مصر والشام والحجاز، والدولة الصفوية في الهضبة الإيرانية وما حولها، وقد مر بنا ذكر موقف الصفويين، أما العثمانيين فقد كانوا بعيدين نسبيًا عن مناطق الصراع، فبقي عبء مواجهة الصليبيين البرتغاليين من نصيب المماليك وحدهم في هذه المرحلة.

كانت الدولة المملوكية وقت نزول البرتغاليين بساحة العالم الإسلامي تعاني من تراجع شامل ووهن مزمن على كافة المستويات، والدولة في طور الأفول بسبب الفساد الإداري والسياسي والأخلاقي لسلاطين المماليك، وبسبب البعد عن منهج الصلاح والرشاد والمنافسة على الحكم والسلطة، وأيضًا بسبب التدهور الاقتصادي الذي أصاب مالية المماليك جراء تحويل طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح، ناهيك عن المشاكل الحدودية بين المماليك والعثمانيين في الأناضول وديار بكر والعدوان المستمر من جانب جماعة فرسان المعبد في شرق البحر المتوسط والمتمثل في قيامهم باحتلال برقة وبعض جزر البحر مثل كريت وجربة.

لهذه الأسباب كلها لم يستطع المماليك فعل شيء لنجدة جنوب الخليج من

العدوان البرتغالي سوى إرسال عدة كتائب من الجند إلى اليمن وذلك لمنع البرتغاليين من السيطرة على باب المندب، والعجيب أن مؤرخي اليمن قد أطلوا اسم «الغز» على تلك الكتائب، وكان حسين الكردي قائد تلك الكتائب، وواحد من أشهر قادة المماليك في قتال البرتغاليين.

ظل المماليك مشغولين بمشاكلهم الخاصة حتى نما إلى علمهم في عهد السلطان قنصوة الغوري أن البرتغاليين يخططون لاقتحام الأماكن المقدسة فشعروا بالغيرة والمسئولية وأرسلوا أسطولاً قويًا لضرب قواعد البرتغاليين في الهند وذلك لقطع خطوط الإمداد والتمويل للحملات الصليبية على جنوب الخليج، وبالفعل نجح القائد حسين الكردي في هزيمة البرتغاليين بقيادة «الونز دي ميدا» عند جزيرة «شول» سنة ٩١٤هـ فاستدعى البرتغاليون قائدهم الأشهر «البوكيرك» وجاءتهم مساعدات قوية من البرتغال، فهزم المماليك في معركة جزيرة «ديو» الشهيرة سنة ٩١٥هـ وهي المعركة التي قضت نهائيًا على القوة البحرية للمماليك، مما جعلهم ينسحبون من الساحة تاركين جنوب الخليج يواجه العدوان الصليبي وحده.

غير أن المماليك لم ينسوا واجبهم تجاه الأماكن المقدسة، فانتقل حسين الكردي بعد هزيمة «ديو» إلى مدينة وميناء «جدة» حيث بدأ في تحصينها حتى لا يستولي عليها الصليبيون البرتغاليون، ومنها يغيرون على مكة والمدينة، وبالفعل نجحت خطة الكردي في ردع البرتغاليين عن الإغارة على الأماكن المقدسة.

ومع الفشل المتكرر للبرتغاليين في اقتحام عدن تشجع السلطان قنصوة الغوري سنة ٩١٩هـ وأرسل أسطولاً جديدًا إلى جنوب البحر الأحمر تحت قيادة الريس سليمان الذي انطلق إلى جدة وهناك انضم إليه القائد حسين الكردي، وانطلقت الحملة نحو الجنوب وطردت البرتغاليين من مدينة زيلع الصومالية ثم استقرت الحملة في جزر «قمران» بعد طرد البرتغاليين منها سنة ٩٢١هـ بعد أن دخل المماليك في حربهم الطويلة ضد العثمانيين والتي انتهت بسقوط الدولة المملوكية سنة ٩٢٣هـ.

* * *

*** البرتغاليون والعثمانيون:**

على الرغم من البعد النسبي جغرافيًا للدولة العثمانية عن مناطق الصراع في جنوب وشرق الخليج العربي، إلا إن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يتابعون باهتمام وتوجس النمو المطرد للقوة البحرية البرتغالية، وآثاره المتمثلة في العدوان البرتغالي المتكرر على سواحل المغرب في أصيلا والعرايش ومليلة، ثم الوثبة الكبرى إلى ظهر العالم الإسلامي في الخليج والهند.

كما كان البرتغاليون في نفس الوقت ينظرون إلى الدولة العثمانية على أنها زعيمة العالم الإسلامي المقبلة بعد أن تهاوت قوة الدولة المملوكية، وأنها مصدر القوة والتهديد الحقيقي لخطط البرتغال التوسعية والتنصيرية في أرجاء المعمورة، ناهيك عن العداوة التاريخية والراكزة في قلب كل صليبي أوروبا ضد الدولة العثمانية التي فتحت القسطنطينية وأسقطت الدولة البيزنطية.

كان السلطان بايزيد الثاني والمشهور بمحاولاته المتكررة لنجدة مسلمي الأندلس أول السلاطين العثمانيين عملاً ضد العدوان البرتغالي، وذلك سنة ٩١٦هـ عندما أرسل عدة سفن مشحونة بالسلاح والذخيرة والأموال لمساعدة المماليك ضد البرتغاليين، ولكن هذه المساعدة لم يكتب لها الوصول سالمة؛ ذلك لأن فرسان مالطة أو فرسان القديس يوحنا قد أغاروا عليها ونهبوها.

وبعد سقوط المماليك سنة ٩٢٣هـ أصبح العثمانيون خلفاءهم في المنطقة في

مواجهة مباشرة مع الصليبيين البرتغاليين، وإن كانت هذه المواجهة قد تأخرت قليلاً لانشغال العثمانيين بعدة ثورات داخلية وتمردات في بداية حكم السلطان سليمان القانوني [٩٢٧هـ - ٩٧٤هـ] ثم الحروب المتتالية التي وقعت على الجبهة الأوروبية.

في سنة ٩٥٨هـ أرسل السلطان سليمان القانوني حملة بحرية بقيادة الريس محيي الدين بيري وهذا الرجل من أقدر القادة البحريين وله خرائط جغرافية ومساحية في غاية الدقة أبهرت علماء العصر الحديث، ولكنه كان مهتمًا بالتجارة ومصالحه الخاصة، فلم يهتم كثيرًا بشئون الحملة وبالتالي فشلت في تحقيق أهدافها وكان جزاؤه الإعدام على تقصيره.

أرسل العثمانيون حملة أخرى سنة ٩٦٠هـ ولكنها هزمت أمام البرتغاليين، فلم ييأس العثمانيون وأرسلوا حملة أخرى سنة ٩٦٢هـ بقيادة الريس حسين، فتقابلت مع الأسطول البرتغالي عند خليج «ليمة» قرب رأس مسندم.

وانتصر العثمانيون انتصارًا رائعًا على الرغم من كون الأسطول البرتغالي ثلاثة أضعاف الأسطول العثماني، واصل العثمانيون ملاحقتهم للبرتغاليين، ودارت معركة أخرى قريبًا من مسقط، وانتصر العثمانيون مرة أخرى غير أن عاصفة بحرية قوية أفسدت فرحة الانتصار ومنعت العثمانيين من مواصلة المطاردة.

في سنة ٩٨٨هـ أرسل والي اليمن سنان باشا أيام السلطان مراد الثالث حملة بحرية انطلقت من اليمن بقيادة الريس أمير علي، فحاصر مسقط ثم انتصر على

البرتغاليين في هرمز، وفتح مسقط ومنها انطلق إلى ساحل إفريقيا الشرقي وهاجم المراكز البرتغالية هناك في ممباسا ومالندي ومقديشو.

وظل يقارع البرتغاليين طيلة عشر سنوات كاملة حتى رزقه الله عز وجل الشهادة على ما نحتسبه، حيث وقع في الأسر سنة ٩٩٨هـ وأرسل إلى لشبونة عاصمة البرتغال وتفننوا في التنكيل به وتعذيبه حتى مات رحمه الله.

وبالجملة نجح العثمانيون في تحجيم الخطر البرتغالي الصليبي في المنطقة، وتأمين البحر المتوسط من غاراتهم البحرية المخربة، وحماية الأماكن المقدسة من الأهداف الإجرامية التي كان يسعى لها البرتغاليون منذ أيام طاغيتهم (البوكيرك).

وانحصر الاحتلال البرتغالي في جنوب الخليج في عدة نقاط صغيرة بقيت في أيديهم من أجل الأغراض التجارية والاقتصادية المحضة، ثم ما لبثت القوة البرتغالية في التداعي من جراء الصراع الشديد بين قوى الاحتلال العالمية على مناطق النفوذ والمصالح الاقتصادية، حتى وقعت البرتغال نفسها في الاحتلال الإسباني لأراضيها وذاق أهلها من نفس الكأس الذي أذاقوه لكثير من المسلمين في الهند والخليج.

* * *

المصادر والمراجع

(١) التاريخ الإسلامي.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية.

(٣) الكشوف الجغرافية.

(٤) صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر.

(٥) النفوذ البرتغالي في الخليج العربي.

(٦) حاضر العالم الإسلامي.

(٧) تاريخ آسيا الحديث والمعاصر.

(٨) تاريخ شرقي الجزيرة العربية.

(٩) تاريخ العرب الحديث.

* * *

الفصل الخامس

الاحتلال الفرنسي لمصر

على الرغم من قصر مدة الاحتلال الفرنسي للديار المصرية ـ ثلاث سنوات فقط ـ إلا إننا نستطيع أن نقول بكل أمانة بحثية وحيادية تاريخية، أنه كان الاحتلال الأكثر خطرًا والأبلغ أثرًا على شعوب المنطقة عمومًا وعلى الشعب المصري خصوصًا؛ إذ كشف هذا الاحتلال عن مدى تخلف المسلمين عن ركب الحضارة وأسباب التقدم والرقي، وضرب هذا الاحتلال بأول سهم في عقيدة المسلمين، إذ أصابهم بالهزيمة النفسية القاتلة وكشف عن مدى ضعف الدولة العثمانية وهزالها عن مقاومة الدول الأوروبية.

وتلك الهزيمة النفسية هي التي أخذت تتغلغل في قلوب المسلمين عبر العصور حتى أبقت المسلمين في نهاية المطاف جثة هامدة، في حالة تبعية وتقليد كاملتين للعدو المسيطر على أسباب القوة والحضارة، لذلك فإن الاحتلال الصليبي الفرنسي لمصر كان بداية السير نحو تغيير العادات والأفكار والمبادئ الإسلامية عند كثير من المسلمين، لذلك كان المؤرخ الجبرتي رحمه الله دقيق الوصف ثاقب النظر عندما صدر الكتابة عن أحداث هذا الاحتلال قائلا: «وهي أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور وترادف الأمور،

وتوالي المحن واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال، وفساد التدبير وحصول التدمير، وعموم الخراب وتواتر الأسباب، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون».

*** جذور الاحتلال الصليبي الفرنسي لمصر:**

لمصر تاريخ حافل مع العدوان الصليبي؛ إذ كانت هدفًا مباشرًا للحملات الصليبية في العصور الوسطى مع الشام واختصت من التسع حملات صليبية على العالم الإسلامي قديمًا بأربع حملات متتالية، قاد اثنين منها ملوك فرنسا، وذلك للموقع الإستراتيجي الفذ لمصر وتحكمها في الطرق العالمية القديمة للتجارة، وتمركز الثقل الإسلامي بها منذ ظهور الدولة الأيوبية ثم المملوكية بعدها.

فكرة احتلال فرنسا لمصر ترجع إلى القرن السابع عشر أيام حكم الملك لويس الرابع عشر [١٦٧٢ـ ١٧١٤م] وذلك بهدف ضرب التجارة الهولندية في الهند والتي تمر بها، ثم تجددت الفكرة أيام حكم الملك لويس الخامس عشر، ولكن عن طريق التفاوض مع الدولة العثمانية من أجل التنازل عن حكم مصر للفرنسيين، وتجددت الفكرة مرة ثالثة أيام حكم الملك لويس السادس عشر، وذلك إثر المنافسة الشرسة بين إنجلترا وفرنسا على مناطق النفوذ في الهند وأمريكا الشمالية والتي انتهت لصالح إنجلترا وتنازلت فرنسا عن مستعمراتها في أمريكا الشمالية سنة ١٧٦٣م.

في سنة ١٧٨٩م قامت الثورة الفرنسية الكبرى ضد النظام الإقطاعي والملكيات

القديمة ليس في فرنسا وحدها ولكن في أوروبا كلها وذلك بدعم كبير من المحافل الماسونية واليهودية العالمية، ونجحت الثورة في إعلان الجمهورية سنة ١٧٩٢م ثم أعدمت ملك فرنسا في العام التالي، وانذعرت الملكيات الأوروبية من تنامي قوة الثورة الفرنسية وخافت من امتداد أثرها ومبادئها إلى سائر أوروبا، فشكلت حلفًا أوروبيًا ضد الثورة الفرنسية من أجل القضاء عليها، إلا إن قوات الثورة بقيادة نابليون بونابرت حققت عدة انتصارات على تحالف الملكيات خلال الفترة من سنة ١٧٩٥ـ ١٧٩٧م ما عدا إنجلترا التي ظلت بعيدة عن ضربات بونابرت بحكم جغرافيتها البحرية والمنعزلة عن سائر الدول الأوروبية، لذلك رأى الفرنسيون ضرورة التوجه إلى الشرق لضرب إنجلترا في مستعمراتها بالهند والسيطرة على طرق التجارة العالمية، ومن ثم عادت فكرة احتلال مصر لأذهان الفرنسيين مرة أخرى.

وحتى لا يظن القارئ أن التنافس الفرنسي الإنجليزي كان هو الدافع الوحيد لشن هذه الحملة الصليبية الظالمة على بلاد مصر كان لابد من التأكيد على دور الدين وأثر الكنيسة الفرنسية في الحملة، وهذا سيتضح جليًا من تعامل الفرنسيين مع مسلمي مصر واستعانتهم بنصارى مصر في حملتهم، ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطًا من الأهداف الاقتصادية والسياسية والتوسعية والدينية، لا تستطيع أن تعزل هدفًا عن سائر الأهداف، والهدف الديني الصليبي بمثابة القوة الدافعة والباعثة لهمم المقاتلين.

*** الحملة الصليبية الفرنسية على مصر:**

اتبع الفرنسيون خطة مدروسة ومتأنية الخطوات في احتلالها لمصر، فالفكرة قديمة في أذهانهم، لذلك أخذت وقتها الكافي في النضوج والاختمار، وبدأت بإرسال الرحالة الفرنسيين الذين أكثروا من رحلاتهم لمصر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، والذين أقاموا علاقات واسعة مع أقباط ويهود مصر، للتعرف على أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأثر هذا التحضير بدا جليًا في اصطحاب نابليون بونابرت معه في حملته لـ١٢٢ عالمًا فرنسيًا في شتى فنون العلم وبالأخص علم اللغات والآثار والتاريخ والاجتماع.

أبحرت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت من ميناء طولون في مايو ١٧٩٨م ـ ١٢١٣هـ وفرض نابليون سرية محكمة على وجه الحملة خوفًا من معرفة الإنجليز أصحاب السيادة البحرية وقتها بوجهته فيقطعون عليه طريقه، وسارت الحملة في طرق ملتوية واستولت على جزيرة مالطة ثم كريت، وبعدها توجه نابليون مباشرة إلى مصر فوصل سواحل الإسكندرية في أول يوليو ١٧٩٨م.

اتبع نابليون سياسة خبيثة من أجل تسهيل احتلاله لمصر، سياسة النفاق والتزلف والخداع من خلال تظاهره بالإسلام هو ومجموعة من قادة حملته، ووزع منشورًا باللغة العربية في مصر في يوم ٢٧ يونيه سنة ١٧٩٨ أي قبل وصوله إلى الإسكندرية بثلاثة أيام، وذلك عن طريق العملاء والجواسيس، وقد حاول في هذا المنشور خداع

ليس المصريين فحسب ولكن الدولة العثمانية أيضًا حيث ادعى فيه أنه ما جاء إلى مصر محتلاً بل محررًا ـ لاحظ التشابه بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية على العراق ـ وأن جيش فرنسا ليس جيش احتلال ولكن جيش تحرير، وقد جاء في بعض فقرات المنشور الذي صدره بآيات من القرآن والصلاة والسلام على رسول الله: (أيها المصريون قد قيل لكم أنني ما نزلت لهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولا للمفترين إنني ما قصدت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك، أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم، وان جميع الناس متساوون عند الله، وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم فقط...). ويلاحظ من الفقرة الأخيرة محاولة نابليون ترويج الفكر الماسوني ومبادئ الثورة الفرنسية العلمانية (الحرية ـ الإخاء ـ المساواة) بين مسلمي مصر.

لم تنطل هذه الخدعة الخبيثة على أهل مصر أصحاب الخبرة الطويلة في مواجهة الحملات الصليبية عمومًا والفرنسية منها خصوصًا، واعتبروا نابليون وجنوده تمامًا مثل لويس التاسع وجنوده، كلهم صليبيون جاءوا لمحاربة الإسلام وأهله ونهب خيراته، فاستعدوا للدفاع عن دينهم وبلادهم حتى آخر قطرة في دمائهم، وتولى البطل محمد كريم حاكم الإسكندرية قيادة المدافعين عن الإسكندرية والتف حوله أهل المدينة واستماتوا في الدفاع عنها، وكبدوا الفرنسيين خسائر جمة، ولكن مع وطأة المدفعية الفرنسية الحديثة انهارت دفاعات المدينة، ومن شدة حنق نابليون على البطل

محمد كريم أمر باعتقاله وفرض عليه غرامة فادحة ليفتك بها نفسه من الأسر والقتل، فلم يدفعها البطل الجسور وأعدموه رميًا بالرصاص رحمه الله في سبتمبر سنة ١٧٩٨م.

في هذه الفترة تجمع المماليك بقيادة مراد بك عند منطقة شبراخيت بمحافظة البحيرة جنوب الإسكندرية وانضم إليه آلاف المتطوعين من البدو والفلاحين، وذلك لمنع تقدم الفرنسيين نحو القاهرة ولكن الأسلحة الحديثة عند الفرنسيين والبدائية عند المماليك والمتطوعين كانت عنصر حسم في المعركة لصالح الفرنسيين، الذين واصلوا سيرهم إلى القاهرة ليصطدموا مع المماليك والمتطوعين مرة أخرى ولكن أشد عند منطقة إمبابة إحدى ضواحي القاهرة، وينتصر الفرنسيون، ويحتلوا القاهرة في ٢٧ يوليو ١٧٩٨م ـ محرم سنة ١٢١٣هـ.

لم يهنأ الفرنسيون بفرحة استيلائهم على القاهرة سوى ثلاثة أيام فقط، إذ قام الأسطول الإنجليزي بقيادة الداهية (نلسون) بمهاجمة الأسطول الفرنسي الرابض في ميناء أبي قير بالإسكندرية وحطمه بالكلية في أول أغسطس سنة ١٧٩٨م، ثم فرض الإنجليز حصارًا قويًا ومحكمًا على السواحل المصرية، وبالتالي أصبحت الحملة الفرنسية محاصرة داخل مصر سياسيًا واقتصاديًا وهكذا الحال عندما يتصارع الذئاب على الفريسة.

* * *

حركات التحرير الإسلامية في مصر

فشلت كل مخططات نابليون التوسعية وتبخرت أحلامه بسرعة لم يكن يتخيلها أشد المتشائمين، فلم يتمكن نابليون من خداع المصريين واستمالتهم، كما لم يتمكن من إقناع الدولة العثمانية بأن مجيئه إنما كان للتخلص من المماليك الذين كانوا يتعاونون مع الإنجليز، وهاهو قد أصبح محاصرًا وجنوده في بلاد أبعد ما تكون عن ديارهم، تتهدده الأخطار من الإنجليز والعثمانيين، في مواجهة المصريين الذين لم ينتظروا طويلاً حتى أقاموا سوق الجهاد والدفاع عن الدين والعرض.

❑ ثورة القاهرة الأولى :

اتخذ نابليون في بادئ أمره سياسة الخداع والتقرب من السكان لاستمالتهم، وأظهر احترامًا مصطنعًا للإسلام وقرَّب إليه العلماء وشيوخ الأزهر، وشكل ديوانًا للحكم نصفه من علماء الأزهر، وسار في خطته الخبيثة، وكادت أن تؤتي أكلها، فجاء تحطيم الأسطول الفرنسي بأبي قير ليجعل نابليون يعيد كل حساباته ويكشف عن وجهه العنصري الصليبي الحقيقي، إذ أخذ في فرض الضرائب على السكان وبالغ في مصادرة أموالهم وقطع أموال الأوقاف وصادر ممتلكاته، وهدم المساجد والزوايا وأبواب الحارات بدواعي أمنية، ثم فتح حانات الخمر وبيوت الدعارة للترفيه عن جنوده الذين شعروا بأنهم في سجن كبير، وأخذ الفرنسيون في المجاهرة بالفواحش والمنكرات التي لم يعتاد أهل مصر على رؤيتها من قبل.

تضايق مسلمو مصر من أفعال الاحتلال ومجاهرتهم بالمعاصي والمظالم، فأجمعوا على الثورة والانتفاض على المحتل الصليبي الغاشم، وانطلقت الثورة من الجامع الأزهر في أكتوبر سنة ١٧٩٨م ـ ربيع أول سنة ١٢١٣هـ وقادها شيوخ الأزهر، وانقض المجاهدون على الثكنات الفرنسية وقتلوا من فيها كما قتلوا الجنرال (ديبوي) حاكم القاهرة وأحد كبار قادة الحملة الفرنسية، وقد سقط من مسلمي مصر في اليوم الأول للثورة ألفان من المجاهدين الذين نحتسبهم عند الله عز وجل شهداء.

في اليوم الثاني للثورة نصب نابليون مدافعه على جبل المقطم المشرف على أحياء القاهرة وأخذ في صب نيران مدافعه على الجامع الأزهر وما حوله من الأحياء، واستعمل نابليون أشد أنواع القسوة مع المدافعين عن دينهم ووطنهم، وانتقامًا من مسلمي مصر أمر نابليون جنوده باقتحام الجامع الأزهر بخيولهم وداسوا على المصاحف وكتب العلم بخيولهم وأقدامهم النجسة ثم عسكروا في الجامع، وعندها أيقن الجميع أن الحملة الفرنسية على مصر ما هي إلا حملة صليبية محضة.

السياسة الصليبية الفرنسية بعد ثورة القاهرة الأولى:

اتبع الفرنسيون بعد ثورة القاهرة الأولى سياسة صليبية واضحة المعالم تتجلى فيها كل معاني العداء الديني والحقد التاريخي والموروث بين الإسلام والصليبية، إذ عمل الفرنسيون على استثارة نصارى وأقباط مصر ضد مسلميها وذلك بطلب معاونتهم للحملة الفرنسية بمختلف السبل، وقد قابل النصارى وأيضًا اليهود في مصر هذا العرض الصليبي الفرنسي بغاية الترحاب وقدموا مساعدات جليلة للاحتلال

الفرنسي وصلت لحد تشكيل فرق عسكرية نظامية من النصارى المصريين عرفت باسم الفيالق القبطية، وقد انضمت للفرنسيين في القتال ضد مسلمي مصر، وكان يقود هذه الفيالق شخص في غاية الخسة والنذالة يدعى المعلم يعقوب حنا، وقد قام الجنود والضباط الفرنسيون بتدريب هذه الفيالق على الأعمال القتالية وحرب الشوارع والعصابات لمواجهة المجاهدين والمدافعين عن البلاد، وقد أصبحت هذه الفيالق القبطية جزءًا من الجيش الفرنسي أيام «كليبر» وقد أعطى الخائن يعقوب حنا لقب القائد العام للفيالق القبطية بالجيش الفرنسي وقلده «مينو» رتبة الجنرال تقديرًا لجهوده الكبيرة في محاربة مسلمي مصر.

ألغى نابليون الديوان العام الذي سبق وأن شكله من كبار العلماء والأعيان لإدارة شئون الحكم وألف ديوانًا جديدًا ضم النصارى والجاليات النصرانية المقيمة في مصر واستبعد المسلمين من هذا الديوان تمامًا.

فرض غرامات فادحة على العلماء والمشايخ بالأزهر بسبب تأييدهم للثورة وسجن بعضهم ونفى البعض الآخر، وقام بالقبض على صغار المشايخ وطلبة العلم الذين كانوا يقودون الثورة وأعدمهم وأغلق الجامع الأزهر لأجل غير مسمى ومنع إقامة الصلاة فيه.

اتبع نابليون سياسة الضربة الاستباقية لجموع المجاهدين معتمدًا على شبكة الجواسيس التي شكلها من نصارى مصر، والتي كانت تنقل له باستمرار أخبار

المجاهدين، فيهجم الفرنسيون على أماكن تجمع المجاهدين، وبهذه السياسة الصليبية الآثمة استطاع الفرنسيون ضرب بؤر المقاومة في وجه بحري ولكن واجهتهم مصاعب جمة في وجه قبلي وصعيد مصر.

❑ الفرنسيون ومجاهدو الصعيد:

استطاع الاحتلال الفرنسي السيطرة على الوجه البحري لبلاد مصر في فترة وجيزة أقل من شهر ونصف تقريبًا، ولكنه واجه مقاومة بالغة الشدة والعنف من أهل الصعيد، الذين تنامى عندهم الشعور الإسلامي بصليبية الحملة الفرنسية خاصة بعد الفظائع التي ارتكبها الاحتلال أثناء قمعه لثورة القاهرة الأولى، والإهانة المتعمدة للجامع الأزهر وعلمائه وشيوخه.

فبعد هزيمة المماليك في إمبابة فر زعيمهم (مراد بك) إلى الصعيد ونظم صفوفه وقطع مجرى النيل ومنع المراكب من الوصول إلى القاهرة، فحاول نابليون الداهية استمالته بأن عرض عليه حكم الصعيد من مديرية جرجا حتى الشلالات تحت راية الفرنسيين مع دفع الجزية، فرفض مراد بك بشدة، فزحف إليه الفرنسيون بجيش كبير وهزموه ولكنهم فشلوا في إخضاع الأهالي الذين سلكوا حرب العصابات والكر والفر ضد الاحتلال الفرنسي وأنهكوه بشدة جراء ذلك.

استفاد أهل الصعيد من وجود بقايا جيش المماليك عندهم، كما استفادوا من قدوم المجاهدين من الحجاز، وساعدهم طول الوادي وامتداده جنوبًا في إرهاق الفرنسيين في عمليات المطاردة والمتابعة، وكان لتمركز العديد من القبائل العربية

العريق بصعيد مصر أثر كبير في تذكية جذوة الجهاد، ولقد قامت قبائل مثل بني عدي والهوارة وغيرهم بأدوار رائعة في جهاد الاحتلال الفرنسي، لذلك صب الفرنسيون جم غضبهم على هذه القبائل وأقاموا فيهم عدة مذابح مروعة لردعهم عن مقاومة الاحتلال، ولكن لم يفد ذلك شيئًا، وظل وضع الفرنسيين في الصعيد مضطربًا مقلقلاً طوال فترة وجودهم بمصر.

أثر الاحتلال الفرنسي لمصر على العالم الإسلامي:

كان احتلال فرنسا لمصر صدمة كبيرة للعالم الإسلامي بأسره، فلأول مرة يقع بلد إسلامي كبير وهام مثل مصر في قبضة الاحتلال الصليبي الأوروبي، ومصر وقتها مركز ثقل إسلامي واستراتيجي خطير وحاضرة العالم الإسلامي أيام المماليك، وأخذت تداعيات هذا الاحتلال تتوالى منذ الوهلة الأولى له، وتمثل بادئ الأمر في إعلان السلطان العثماني سليم الثالث الجهاد على الفرنسيين الصليبيين على الرغم من ضعف الدولة العثمانية وقتها وتكالب الأعداء الأوروبيين عليها واختلال ميزان الصراع بينها وبني عدوها التقليدي في هذه الحقبة روسيا القيصرية.

حدثت ردة فعل كبيرة لإعلان الجهاد على فرنسا الصليبية في العالم الإسلامي وتحركت المياه الساكنة في حياة المسلمين، وبدا أن شعيرة الجهاد في سبيل الله قد حيت من جديد، فهب المسلمون في عدة أماكن لنجدة إخوانهم المصريين من الاحتلال الفرنسي، وكان مسلمو الحجاز أول الناس استجابة لنداء الجهاد، إذ قام الشيخ محمد الكيلاني بتحريض المسلمين على القتال ونصرة المستضعفين، فاستجاب لدعوته قرابة

الستمائة مجاهد من أهل الحجاز والحرمين، فركبوا البحر الأحمر وعبروه إلى بر مصر الجنوبي، ونزلوا عند القصير وانضموا إلى مجاهدي الصعيد وبقايا المماليك وعرب الهوارة في قتال الفرنسيين الذين كان يقودهم الجنرال (ديزيه) وكان من أعتى وأشد القادة الفرنسيين عنفًا وحقدًا، قد أظهر مجاهدو الحجاز بطولات رائعة في قتال المحتل الصليبي وكانوا بحق أشد خصوم ديزيه ومن معه.

كان دخول أهل الحجاز في ميدان الصراع بين مسلمي مصر والمحتل الصليبي الفرنسي إيذانًا باشتعال جذوة الجهاد في سبيل الله في كل مكان، ولقد حركة الحمية للدين مسلمي ليبيا بقيادة المهدي الدرناوي الذي شكل جيشًا قويًا من مسلمي شرق ليبيا وقبائل أولاد علي والهنادي وعرب مطروح، واخترق الصحراء الشرقية بسرعة كبيرة حتى بلغ مدينة دمنهور سنة ١٢١٤هـ - أبريل ١٧٩٩م، وانقض على الحامية الفرنسية بها فأبادها بالكلية، فأرسل الجنرال (مارمون) حاكم الإسكندرية كتيبة قوية مزودة بالمدفعية الثقيلة لمنع تقدم الدرناوي ومن معه، ولكن المجاهدين انتصروا عليها أيضًا، فحشد الفرنسيون قوة كبيرة من إسكندرية ورشيد والرحمانية، واصطدم المجاهدون مع الفرنسيين عند قرية سنهور، ودارت رحى حرب طاحنة استمرت سبع ساعات وانتهت بانتصار رائع للدرناوي ومن معه، أجبر الفرنسيين على الانسحاب إلى الرحمانية.

وبالجملة كانت أمثال هذه الاستجابات تشجع المصريين على الصمود والمقاومة وتحيي في النفوس الآمال بحياة الأمة وبقاء معاني العزة والكرامة فيها.

❑ ثورة القاهرة الثانية:

تحالفت الدولة العثمانية مع إنجلترا وروسيا لإخراج الفرنسيين من مصر، وأخذت الدولة العثمانية في حشد الجيوش بالشام للهجوم على الفرنسيين من ناحية الشرق وتخوف نابليون من مغبة قدوم العثمانيين إلى مصر وقرر مبادرتهم في الشام وبسرعته المعهودة في الحركة والانقضاض، شن نابليون حملة قوية على الشام هزم فيها العثمانيين وأسر قائدهم (مصطفى باشا) وعرف منه أن حربًا عامة قد اندلعت في أوروبا ضد الثورة الفرنسية، وكان نابليون شخصًا طموحًا جدًا تحدوه أطماع جياشة لرياسة فرنسا، فقرر استغلال الفرصة وغادر مصر سرًا تاركًا الحملة الفرنسية تحت قيادة الجنرال كليبر.

بعد فترة وجيزة من قيادة كليبر للحملة في مصر أيقن أنه لا فائدة من البقاء بها وفتح باب التفاوض مع العثمانيين للانسحاب من البلاد بصورة تحفظ للفرنسيين ماء الوجه، وبالفعل تم توقيع اتفاقية العريش في يناير سنة ١٨٠٠م بشروط مرضية للطرفين، لكن الإنجليز أساتذة المكر والفساد، عطلوا هذه الاتفاقية من أجل إذلال الفرنسيين وتأديبهم وأيضًا من أجل منع عودة القوة الفرنسية في القتال الأوروبي.

وقد أدى هذا التعطيل المفتعل من الجانب الإنجليزي لاتفاقية العريش لاندلاع القتال مرة أخرى بين العثمانيين والفرنسيين، وحقق الفرنسيون نصرًا كبيرًا على العثمانيين أجبرهم على التقهقر إلى الشام مرة أخرى، وقد انتهز المصريون فرصة انشغال الفرنسيون بقتال العثمانيين وقام أهل القاهرة بزعامة السيد عمر مكرم نقيب

الأشراف بالثورة على الاحتلال، وكان قرابة الستة آلاف جندي عثماني قد دخلوا القاهرة بعد هزيمتهم أمام الفرنسيين واشتركوا مع المصريين في الثورة، وقد تركزت الثورة في حي بولاق العريق في القاهرة، فأخذ كليبر في دك القاهرة بالمدافع وركز القصف على حي بولاق ولجأ إلى العنف الشديد لإجبار المجاهدين على التسليم وهدم حي بولاق على رأس ساكنيه وكُلِّف الخائن الصليبي (يعقوب حنا) بانتهاك الدور والأعراض والإجهاز على الجرحى، ثم فرض غرامات باهظة على شيوخ الأزهر والعلماء وأهل القاهرة جميعًا دون استثناء.

أدت الوحشية البالغة التي انتهجها كليبر لقمع الثورة لقيام أحد طلبة الأزهر واسمه «سليمان الحلبي» باغتياله انتقامًا للآلاف من المسلمين الذين قتلهم كليبر وجنوده في القاهرة، وبعد مقتل كليبر آلت القيادة العامة للحملة إلى الجنرال (مينو) وكان يختلف عن سابقيه، فلقد كان من أنصار البقاء، وكان ضابطًا إداريًا وليس عسكريًا، كما أنه قد أعلن إسلامه وتزوج امرأة مصرية من رشيد فأخذ في ترتيب أوضاع الحملة في مصر من أجل جعل مصر مستعمرة فرنسية متميزة فأدخل إصلاحات إدارية وتنظيمية واسعة في الزراعة والصناعة والنظام المالي والقضائي، وفي أيام «مينو» تمت اكتشاف رموز حجر رشيد والتفكير في مشروع قناة السويس، وإن كان معظم أفراد الحملة يعارضون قائدهم في ذلك كله.

أقلقت هذه الإصلاحات والترتيبات الإدارية التي قام بها مينو الإنجليز وخشوا من قيام مستعمرة فرنسية قوية في مصر فتحالفوا مع العثمانيين وشنوا هجومًا بريًا

وبحريًا على الاحتلال الفرنسي في مصر وتحرك المصريون في الداخل بقوة وفي النهاية ومع كثرة الضغوط الخارجية والداخلية وبالأخص العمليات الجهادية في الدلتا والصعيد، اضطر مينو في النهاية للتسليم وخرجت الحملة الفرنسية مذمومة مدحورة سنة ١٢١٦هـ أي لم تبق في البلاد سوى ثلاث سنوات.

ورغم بطولات الجهاد الإسلامي على أرض المحروسة وأمثلته الرائعة في مقاومة الاحتلال الصليبي الفرنسي إلا أن هذا الاحتلال كان له أسوأ الأثر على مصر خاصة والمنطقة العربية عامة، حيث فتح الاحتلال الصليبي الفرنسي لمصر الباب لتسرب المفاهيم والقيم والأفكار الغربية، وكان بداية الهزيمة النفسية لشعوب المنطقة، وبداية فكرة تجنيد العملاء والخونة لدينهم وأوطانهم، وبداية التغريب والعلمنة في الأمة الإسلامية، لذلك لا تعجب أبدًا إذا رأينا من أبناء المسلمين من يحتفل بذكرى الاحتلال الفرنسي الصليبي لمصر على أساس أنه كان بداية النهضة والرقي والتقدم، وبالتالي فإن هذه الحملة الصليبية وإن كانت فشلت عسكريًا إلا إنها قد نجحت وبشدة على المستوى الفكري والعقدي مما يجعلها من أقوى وأنجح الضربات الصليبية ضد العالم الإسلامي.

* * *

المصادر والمراجع

(١) التاريخ الإسلامي.

(٢) تاريخ الجبرتي.

(٣) تاريخ الدولة العثمانية.

(٤) تاريخ العرب الحديث.

(٥) تاريخ مصر الحديث والمعاصر.

(٦) الاتجاهات الوطنية.

(٧) عوامل نهوض وسقوط الدولة العثمانية.

(٨) دراسات في التاريخ المصري.

(٩) حلية البشر.

(١٠) المختار المصون.

* * *

الفصل السادس
الاحتلال الهولندي لأندونيسيا

*** إندونيسيا والإسلام:**

لا يعرف على وجه التعيين تاريخ دخول الإسلام إلى جزر أندونيسيا الواسعة، ولكن من المؤكد أن نوره قد شع مبكرًا على سواحل هذه الجزر العظيمة مع أفواج التجار المسلمين الذين كانت قوافلهم تمخر البحار والمحيطات، لا للتجارة وحدها بل للدعوة أيضًا، والدليل على ذلك أن ذكر جزر أندونيسيا قد ورد في المراجع والمصادر العربية القديمة، فلقد أسماها المؤرخ المسعودي صاحب كتاب (مروج الذهب) باسم جزر المهراج، وغيره من المؤرخين المسلمين يسمونها بأسماء جزرها: سومطرة أو سوقطرة، وجاوة، والملايو، وهكذا، وبعض المؤرخين يفرق بين سومطرة وجاوة فيسمي الأولى جاوة الكبرى والثانية جاوة الصغرى.

وكان التجار المسلمون من حضرموت وعمان تحديدًا هم أول من وصل إلى تلك الجزر النائية وذلك في أواخر القرن الهجري الثاني وأوائل الثالث، وتلاهم مسلمو الهند من إقليم الكجرات أو جوجرة كما يسميه المؤرخ المسعودي، وتعتبر منطقة (آتشيه) ـ والتي تطالب الآن بالانفصال عن أندونيسيا ـ في شمال سومطرة هي أول منطقة تتشرف بدخول الإسلام فيها، وذلك على يد الداعية العربي عبد الله عارف،

بعدها أخذ الإسلام يتقدم ببطء نحو الداخل بسبب المقاومة الشديدة من الوثنيين الهنادكة؛ لأن الهندوكية كانت راسخة في تلك الجزر ولها العديد من الممالك القوية، لذلك عمد المسلمون على إنشاء ممالك خاصة بهم منها على سبيل المثال:

١ـ مملكة برلاك في سومطرة وقد زارها الرحالة المغربي ابن بطوطة سنة ٧٤٦هـ ـ ١٣٤٥م ومكث فيها فترة، وقد زارها قبله الرحالة الإيطالي ماركو بولو سنة ٦٩٢هـ.

٢ـ مملكة ماترام في جاوة الوسطى وكانت في الأصل وثنية ثم تحول أبناؤها إلى الإسلام.

٣ـ مملكة آتشيه في شمالي سومطرة وكانت أقوى الممالك الإسلامية في أندونيسيا خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وأكثر الممالك مقاومة للاحتلال.

٤ـ مملكة بنتام في غربي جاوة وقد أسسها السلطان حسن الدين بن هداية الله عام ٩٧٦هـ ولمت هذه المملكة شمل المسلمين بعد أحداث فتنة عاتية كادت أن تذهب بريحهم.

٥ـ مملكة ديماك في وسط جاوة: أسسها رمضان فاطمي عام ٨٣٢هـ.

٦ـ مملكة بالمبانج في جنوبي سومطرة: أسسها السلطان عبد الرحيم عام ١٠٥٨هـ.

ولم يستطع المسلمون إقامة مملكة واحدة قوية ينضوي تحت لوائها كل هذه الممالك بسبب الطبيعة الجغرافية للجزر الكثيرة والمتناثرة وأيضًا بسبب وجود ممالك وثنية

قوية وراسخة قاومت المد الإسلامي داخل البلاد وأيضًا بسبب المخططات الصليبية الاستعمارية التي بدأت تعمل في أندونيسيا بالتزامن مع قيام هذه الممالك الإسلامية.

*** أندونيسيا في دائرة الأطماع الصليبية:**

في نفس الوقت الذي بدأ المسلمون فيه يقيمون دولتهم ويثبتون أقدامهم في أندونيسيا وينشئون ممالكهم في جزرها المتناثرة كانت الاحتلال الصليبي قد التفت إلى تلك البقعة النائية من العالم طمعًا منه في خبرات تلك البلاد وثرواتها الطبيعية الضخمة ومواردها اللامحدودة من المواد الخام، وقبل ذلك كله نشر الصليبية في أرجاء المعمورة.

كان البرتغاليون أول من تنبه لتلك الجزر العامرة بالخيرات وذلك خلال حركة الكشوف البحرية ذات الدافع والطابع الصليبي الخالص، وكان لسقوط دولة الإسلام في الأندلس سنة ٨٩٢هـ أثر كبير في وثبة البرتغاليين والإسبان على العالم القديم وخاصة البلاد الإسلامية منه.

احتل البرتغاليون (مالاقا) سنة ٩١٧هـ وأقاموا بها قاعدة حربية بحرية متقدمة للإغارة على الجزر الأندونيسية ونهب خيراتها واستعباد أهلها وكانت جزر (المولوك) الغنية بالتوابل من أكثر الجزر الأندونيسية تعرضًا للحملات الصليبية البرتغالية، ومع توالي الحملات البرتغالية على أندونيسيا، سيطر البرتغاليون على شمالي سومطرة سنة ٩٢٨هـ وجزيرة (سيلبيس) سنة ٩٤٧هـ.

دخل الإسبان ميدان الصراع على خيرات البلاد الجديدة، فوصلوا إلى جزيرة (بورنيو) وجزر (الملوك) سنة عام٩٢٨هـ وكانت تلك الجزر وقتها تحت حكم المسلمين ولهم بها مملكة كبيرة هي مملكة (بيدور) وحاكمها السلطان جمال الدين وقد استقبل هذا السلطان المسلم الوفد الإسباني وأكرم ضيافته وهو لا يعلم ما يخبئه له هؤلاء الصليبيون الحاقدون، إذ ما لبثوا أن احتلوا الجزيرة وعملوا على فرض النصرانية بالقوة على أهلها وكذلك فعل إخوانهم في الحقد البرتغاليون.

قامت الثورات الواحدة تلو الأخرى ضد الاحتلال البرتغالي الإسباني المشترك بسبب التعنت الصليبي للاحتلال ومحاولته المحمومة فرض دينه وقيمه على أهل أندونيسيا وأصبحت النصرانية مع الوقت رمزًا للاحتلال والطغيان والحقد، وأصبح الإسلام رمزًا للمقاومة والحرية والتسامح، فأقبل الناس في أندونيسيا في دين الله أفواجًا حتى غدا الشعب الأندونيسي كله مسلمًا تقريبًا.

احتلت إسبانيا أراضي البرتغال لتوحيد شبه الجزيرة الإيبرية سنة ٩٨٨هـ وبالتالي أصبحت مستعمرات البرتغال تابعة لإسبانيا، غير أن إسبانيا لم تلبث هي الأخرى أن فقدت مستعمراتها سنة ٩٩٧هـ بعد هزيمتها البحرية الساحقة أمام الأسطول الإنجليزي في معركة (الأرمادا)، وبعدها أصبح الجو مهيئًا لظهور قوى استعمارية صليبية جديدة تتنافس على الغنيمة الأندونيسية الكبيرة ومن هذه القوى ظهرت القوة الهولندية.

*** الاحتلال الهولندي لأندونيسيا:**

كانت هولندا من الدول الأوروبية الصغيرة وتعرف باسم الأراضي المنخفضة، لانخفاض الأرض بها عن مستوى البحر، وكانت هولندا تابعة لملك إسبانيا الأشهر شارلكان ثم ولده فليب الثاني، وقد حاول الهولنديون الاستقلال عن إسبانيا عدة مرات وفشلوا مما جعل ملك إسبانيا فليب الثاني يغلق المنافذ التجارية والبحرية أمام تجار هولندا ويمارس ضدها حصارًا اقتصاديًا شديدًا من أجل إرغام الهولنديين على التبعية لإسبانيا.

بدأ الهولنديون في البحث عن طرق جديدة لجلب البضائع مباشرة من مصادرها الأصلية دون وساطة إسبانيا وبعد معاناة شديدة والكثير من الضحايا والخسائر المالية والبشرية وصلت السفن الهولندية إلى الطريق الآمن لرحلاتها، وبالفعل وصل الهولنديون إلى الجزر الأندونيسية سنة ١٠٠٥هـ ـ ١٥٩٦م، وقد أحسن السلطان أبو المفاخر بن محمد سلطان مملكة بانتن استقبالهم وأذن لهم بالبيع والشراء، ومن عادة مسلمي أندونيسيا مقابلة الضيوف وخاصة التجار منهم بالرحب والسعة والبشاشة، فظن الهولنديون أن تلك المعاملة وحسن المقابلة من باب الخوف منهم، فبدرت من قائدهم واسمه (هوتمان) بوادر وقاحة واستعلاء وسوء أدب فقبض عليه السلطان أبو المفاخر وزج به في السجن ليفهم أن في البلاد نظامًا ودولة وسلطة، ولما قبض على (هوتمان) تقلد الهولنديون السلاح ظنًا منهم أنهم قادرون على السيطرة على البلاد وكان مجموعهم مع عمال السفن ٢٤٩ شخص، فقتل منهم في المواجهات ١٥٠

شخصًا، وطردهم الأندونيسيين شر طردة من البلاد، وقد هلك كثير منهم في رحلة العودة إلى هولندا.

عاد الهولنديون مرة أخرى بعد عامين أي سنة ١٥٩٨م ـ ١٠٠٧هـ وقد غيروا من سياساتهم فأعلنوا احترام الدولة وأهل البلاد وطلبوا عقد روابط صداقة مع أهل أندونيسيا وحملوا معهم هدايا فخمة للسلطان أبو المفاخر الذي فرح بها هو ورجاله وفرح الأندونيسيون لفرح سلطانهم، وعدوا الهولنديين أصدقاءهم، وأدى ذلك الأمر لزيادة أرباح الهولنديين وتوسع تجارتهم وازدهار بلادهم ونمو ثرواتهم فكيف قابل الهولنديون هذا الإحسان والمعروف الجميل؟

قرر الهولنديون منذ أول يوم وطئت فيه أقدامهم الصليبية أرض أندونيسيا أن يحتلوها وينهبوا خيراتها ولجأوا إلى الخداع والمكر الصليبي الشهير والذي وقع فيه كثير من المسلمين البسطاء في العالم الإسلامي، وقد اتبع الهولنديون عدة خطوات من أجل تحقيق الاحتلال الكامل للجزر الأندونيسية:

١ـ عقد معاهدات صداقة وتبادل منافع مع سلاطين المماليك الإسلامية أظهروا فيه الاحترام الكامل لدين وعادات الأندونيسيين، وأغدقوا الهدايا على السلاطين والزعماء ورجال الدولة.

٢ـ وقفوا بجانب الأندونيسيين في حربهم ضد البرتغاليين، وهم بذلك قد اصطادوا عصفورين بحجر واحد؛ إذ قضوا على منافسة البرتغاليين لهم على الغنيمة

الأندونيسية، وفي نفس الوقت كسبوا محبة الأندونيسيين الذين عدوا الهولنديين أوثق حلفائهم.

٣ـ أسس الهولنديون شركة تجارية كبيرة للتحكم في خيرات البلاد سموها شركة الهند الشرقية وسماها الأندونيسيون (كمفني)، هذه الشركة استخدمها الهولنديون كستار وواجهة لاحتلال البلاد، وأعطيت هذه الشركة من المزايا والحقوق ما يجعلها حكومة مستقلة داخل أندونيسيا، ولم يتنبه الأندونيسيون لخطورة الشركة الصليبية إلا بعد أن أصبحت دولة داخل الدولة لها قلاع وجيش ومخازن أسلحة وأسطول بحري قوي أحكم سيطرته على جزيرة جاوة كلها.

٤ـ استغل الاحتلال الصهيوني حالة الصراع القديم بين مملكة (بانتن) ومملكة (ماترام) وأشعل نار الخلاف والفتنة بين الأندونيسيين، وكان السبب وراء ذلك الصراع أن ملوك (ماترام) كانوا من أنصار خطة مزج العقائد الإسلامية مع العقائد الهندوسية الوثنية التي كانت موجودة قبل الإسلام، أي بعبارة أخرى اختراع دين جديد، في حين أن ملوك (بانتن) رفضوا هذا الكفر والضلال وتمسكوا بالدين الصحيح، جاهدوا المحرفين والمبدلين للدين من ملوك (ماترام) وخاضوا ضدهم حروبًا طويلة، وبالطبع دخل الاحتلال الهولندي في صف ملوك (ماترام) الضالين ضد ملوك (بانتن)، وكان بعض ملوك (ماترام) مثل «منكورات الأول» من أشد أنصار الاحتلال الهولندي والذي كانت عساكره تحارب في صف واحد مع الاحتلال الصليبي الهولندي ضد مسلمي أندونيسيا.

حركات التحرير الأندونيسية وحرب الثلاثمائة سنة

أصبح الاحتلال الهولندي أمرًا واقعًا منذ سنة ١٠١١هـ، وهي السنة التي تم تأسيس شركة الهند الشرقية فيها والتي بدأت بمقر مساحته ٩٤ متر في جاكرتا وانتهت باحتلال كامل الجزر الأندونيسية، أبدى خلال الاحتلال الهولندي كل صنوف الخداع والمكر والكيد الصليبي الشهير، وقد بدأ الاحتلال تجاريًا واقتصاديًا بحتًا وانتهى عسكريًا صليبيًا بكل ما تعنيه هذه العبارة من مضامين وموروثات تاريخية مريرة.

لم يتنبه المسلمون بادئ الأمر لخطورة الاحتلال الهولندي إذ بدا تجارة رابحة لا غير، كما كان لطبيعة البلاد الجغرافية ونظم الحكم السياسية المتبعة وقتها أثر في تفريق الصف المسلم أمام عدوه، إذ لجأت هولندا للاستفراد بكل مملكة على حدة مستغلة حالة الصراع القديم بين بعض الممالك الإسلامية هناك مثل بانتن وماترام في تكريس وجودهم في البلاد، ولكن لم تمنع هذه العوائق من ظهور عدة حركات لمقاومة الاحتلال الهولندي وحلفائهم من ملوك (ماترام) وأشهر هذه الحركات.

❑ **حركة الزعيم ترونو جويو ١٠٨٦هـ - ١٠٩١هـ:**

وكان هذا المجاهد الكبير أحد علماء جاوة وفقيهًا شافعيًا قد هاله خيانة مكنورات الأول سلطان ماترام للإسلام والمسلمين بتحالفه مع المحتل الهولندي، وطغيان هذا

الخائن واستبداده وقتله لكثير من العلماء وطلبة العلم في بلاده، فقاد جموع المسلمين في ماترام للثورة ضد الاحتلال الهولندي والخائن منكورات الأول، وقد بايعه كثير من مسلمي الجزر الأندونيسية ليس في جاوة وحدها ولكن في سومطرة أيضًا وتوافد عليه المجاهدون من أهل جزيرة «سليبس» و«مكاسر» وهم من أشجع مسلمي أندونيسيا وأشدهم تمسكًا بمذهب أهل السنة.

استغلت مملكة (بانتن) حركة الفقيه (ترونو جويو) وأمدته بالمال والرجال والسلاح وذلك في عهد السلطان أبو الفتح عبد الفتاح، وزادت قوة المقاومة التي يقودها ترونو جويو فأرسل الهولنديون جيشًا بريًا وآخر بحريًا لحصار المجاهدين في جزيرة (ديموج) بعد أن منع المجاهدون الأندونيسيون الفلاحين من حصد الأرز والتوابل التي تريدها هولندا، وخرج مع الاحتلال جيش الخائن منكورات، واندلعت معارك حامية سنة ١٠٨٨هـ ـ ١٦٧٦م دارت فيها الدائرة على الاحتلال وأعوانه الخونة وخسروا خسارة ضخمة.

بعد هذا النصر المبين أعلن رئيس أهل مكاسر واسمه (كاريج فالي سون) مبايعته للفقيه ترونو جويو وانتخابه زعيمًا لأهل السنة والجماعة في عموم أندونيسيا، مما أعطى لحركته زخمًا كبيرًا ودعمًا قويًا، واستولت الحركة على مناطق كبيرة في جاوة مثل دمك وسماراج وديموج، وكثرت أتباعتها حتى أوشكت الحركة على فتح ماترام نفسها والإطاحة بمنكورات الخائن.

عندما رأى الخائن تحرَّج موقفه والهزائم المتتالية التي لحقت بأعوانه ورجاله قرر أن يذهب لأبعد مدى في الخيانة والعمالة؛ إذ وقع معاهدة مع الاحتلال الهولندي يتعهد فيها بدفع كافة مصاريف الجيش الهولندي المحارب للمقاومة والتنازل عن سواحل جاوة الغربية كلها على أن يقوم الهولنديون بالقضاء على حركة الزعيم «ترونو جويو» واشترط عليهم أن يقبضوا على المجاهد الكبير حيًا ليشفي منكورات منه غليله ويقتله بيده.

بالفعل حشد الهولنديون كل قواتهم في الجزر وجلبوا قوات إضافية من بلادهم وخاضوا معارك شرسة ضد المقاومة حتى أسروا البطل ترونوجويو بعد خسائر فادحة في قواتهم وجيء به أسيرًا إلى الخائن منكورات الذي تولى بنفسه قتل ذلك البطل العظيم والمجاهد الذي قام بالدفاع عن الإسلام والمسلمين. وقد انتقم الله عز وجل من منكورات الخائن الذي باع دينه ووطنه من أجل الملك إذ أصيب بمرض عقلي وانتابته نوبات صرع عنيفة أخذت بعقله حتى فقده بالكلية وذهب هائمًا على وجهه حتى هلك في الأحراش والغابات، ولم يتمتع بملك ولا سلطان وباء من دنياه في الآخرة بالخزي والخسران.

لم يتوقف المسلمون في أندونيسيا عن مقاومة الاحتلال الهولندي بل أخذت الثورة الواحدة تلو الأخرى تندلع في أرجاء الجزر الكثيرة والمترامية، وفي كل مرة يتكبد الاحتلال الهولندي خسائر فادحة مما جعل الهولنديون يمعنون في أهل البلاد قتلاً وسلبًا ونهبًا وتشريدًا وقد ارتدوا عباءة الوحشية والبربرية المشهور بها الإسبان

والبرتغاليين، وبالمقابل استماتت المسلمون في الدفاع عن بلادهم خاصة بعد أن انهارت آمال الهولنديين في تجارة الهند بسبب منافسة الإنجليز والفرنسيين لهم، فرموا بكل ثقلهم وآمالهم في الجزر الأندونيسية التي تفيض لبنًا وعسلاً، ودفعوا إليها بكل قواتهم العسكرية، مما جعل فصول المقاومة والجهاد في أندونيسيا من أروع ملاحم الفداء والبطولة بالمنطقة بأسرها.

وللتدليل على مدى روعة وبسالة المقاومة الإسلامية في أندونيسيا ضد المحتل الهولندي وأعوانه من الخونة والعملاء أن هولندا قد مكثت في حروب مستمرة لأكثر من مائة وسبعة وستين سنة متواصلة حتى أحكمت سيطرتها على كامل الجزر الأندونيسية، وهذا تاريخ سقوط أهم البلاد والمدن الأندونيسية لبيان مدى بسالة المقاومة الأندونيسية، مع العلم أن بعض هذه المدن قد أخذ بالخداع والحيلة وليس بالقتال والسلاح.

سقطت جاكرتا سنة ١٦١٩م، كراواج ١٦٧٧م، سماراج ١٦٧٨م، شربون وفريجين ١٧٠٥م، مدوره وسُربانه وجرانا وربمج ١٧٤٣م، تقل وفكلوجن ١٧٤٦م، ماترام ١٧٤٩م، بانتن ١٧٥٢م، صولو ١٧٧٥م، وأخيرًا بانيوواجي سنة ١٧٧٧م.

وقع بحول الله وقوته وحده عز وجل صراع عنيف في الجبهة الأوروبية بين أباطرة الاحتلال والاستعمار على مناطق النفوذ وتقسيم غنائم العالم الإسلامي انتهى باحتلال فرنسا لهولندا وذلك سنة ١٢١٠هـ ـ ١٧٩٥م أيام القائد الشهير نابليون

بونابرت، وبالتالي أصبحت مستعمرات هولندا في أندونيسيا تابعة لفرنسا، وأسرعت إنجلترا واستولت على ممتلكات ومخازن الشركة الهولندية في الهند وسومطرة دون مقاومة، وبالتالي انتهت الشركة الصليبية التي طالما مصت ثروات وخيرات أندونيسيا وذلك سنة ١٢١٤هـ - ١٧٩٩م، وتضعضعت مكانة هولندا كقوة استعمارية، وتنفس الأندونيسيون الصعداء قليلاً وأخذوا في التقاط أنفاسهم وتنظيم صفوفهم، ولكن سرعان ما اتفق الفرقاء وهزمت فرنسا واصطلح الإنجليز مع الهولنديين، وعادت الجيوش الهولندية إلى أندونيسيا وذلك سنة ١٢٣٢هـ - ١٨١٥م، ولكن هذه المرة لاقى الاحتلال مقاومة شديدة الضراوة والشراسة من الأندونيسيين، وقامت عدة حروب وحركات للمقاومة الإسلامية بأندونيسيا كان من أبرزها:

❑ حركة الأمير ديبو نيجورو (١٢٤١هـ - ١٢٤٦هـ):

كان الأمير ديبو نيجورو أحد علماء جاوة على المذهب الشافعي الذين تصدوا للاحتلال الهولندي وخاض ضده حروبًا طويلة استمرت لأكثر من خمس سنوات بداية من سنة ١٢٤١هـ - ١٨٢٤م، تكبد خلالها الاحتلال الهولندي خسائر فادحة في الأموال والأنفس وفقدت خلالها حربها ضد الأمير الفقيه ديبو نيجورو خمسة عشر ألفًا من زهرة شبابها، ولما يئست هولندا من التغلب على المقاومة وبطلها المغوار لجأت إلى سلاح المكر والخيانة؛ إذ عرضت على الأمير الدخول في مفاوضات تحديد المصير، وإنهاء القتال، ثم خدعوه وغرروا به وألقوا عليه القبض أثناء المفاوضات ونفوه إلى جزيرة (سيلبس) وظل بها حتى توفي رحمه الله في ٨ فبراير سنة ١٨٥٥م بعد أن ضرب

أروع الأمثلة في مقاومة الاحتلال، وقد قام الاحتلال بفرض ضرائب مرهقة وباهظة على الشعب الأندونيسي لقتل روح المقاومة فيه وشغله بهمّ توفير حاجاته الأساسية، كما عمل الاحتلال على تركز كل جهوده في جزيرة جاوة التي كانت قلب المقاومة النابض ومعدن الثورة الدائمة ضد الاحتلال الصليبي الهولندي، وتركوا باقي الجزر تحت حكم الأمراء المحليين.

□ حركة البدرين (١٢٣٧هـ - ١٢٥٣هـ):

خلال الفترة التي وقعت فيها هولندا أسيرة الاحتلال الفرنسي وتنسم الأندونيسيون الحرية قليلاً، نشأت جمعية دينية في وسط جزيرة «جاوة» أطلق عليها اسم (بدري) ومعناها البيضاء، رمزًا لطهارة القلوب، وصفة للملابس والطواقي البيضاء التي كان يحرص المنتسبون إلى هذه الجمعية على لبسها، وقد اشتغلت الجمعية بالدعوة للإسلام وإزالة آثار الاحتلال الهولندي الخبيثة، فلما عاد الاحتلال مرة أخرى، أعلنت حركة «بدري» الجهاد ضد الهولنديين وذلك سنة ١٢٣٧هـ - ١٨٢٠م، واستمرت حركة المقاومة البدرية طيلة خمس عشرة سنة متواصلة، حققت خلالها الحركة انتصارات عديدة، وشكلت مجلسًا للحكم ضم ثمانية علماء، وكان قائد جيوش الحركة الشيخ مصطفى سحاب الذي كان مثالاً للشجاعة والتضحية، ولم يستطع الاحتلال الصليبي الهولندي أن يقضي على هذه الحركة الإسلامية للمقاومة إلا بإشعال نار الفتنة والعصبية العرقية بين السكان الذين ينتمون إلى قبائل شتى، وبالتالي تفرغت هي للبدريين وانشغل السكان بحروبهم الأهلية، وهكذا نرى الأثر

المقيت والخبيث للعصبية والقبلية والقومية في كل زمان ومكان، ولقد تكبدت الأمة بأسرها خسائر ضخمة ومهولة من جرائها، ومع ذلك لم يع أبناء الأمة الدرس وما زال جرح العصبية والقبلية غائرًا نازفًا، وفي أماكن كثيرة في السودان وفي الصومال وفي اليمن وفي بلاد المغرب العربي، والجراح كثيرة وأعداء الأمة يحسنون استغلال ذلك وبأبشع الصور.

❑ حروب مملكة آتشيه (١٢٩٠هـ - ١٣٢٢هـ):

وهي الفصل الأروع والأطول في فصول المقاومة الإسلامية على أرض أندونيسيا وقد أخذت هذه الحروب طابع الجهاد المقدس واستمرت لأكثر من ثلاثين سنة ومملكة آتشيه تقع في شمالي جزيرة سومطرة وهي أولى الممالك الأندونيسية القديمة وأول بقعة دخلها الإسلام، وأهلها مشهورون بالصلابة والاعتزاز بالإسلام لأقصى درجة، ولما جاء الاحتلال الهولندي أندونيسيا أول مرة لم يرد الصليبيون الصدام معهم لشدة بأسهم فتركوا المملكة لأحكام المحليين، فحدث نزاع طويل بين علماء المملكة وحكامها، ذلك أن العلماء كانوا يرفضون النفوذ الهولندي ويحرضون الناس على الخروج للجهاد ونجدة أهل جاوة، في حين أن الحكام آثروا السلامة ورضوا بدفع الضرائب للاحتلال على أن يتركوا المملكة وشأنها، ولكن مع بداية القرن الثاني عشر الهجري استعادت المملكة قوتها وبدأت تستعد لمواجهة الاحتلال الهولندي لأندونيسيا.

في الوقت نفسه كان الاحتلال الهولندي قد سيطر على جزيرة «جاوة» كلها، واتجه إلى الممالك الإسلامية الأخرى في سومطرة وما حولها، فأخضعوها جميعًا بالخديعة

والغدر لا بالقوة العسكرية، وإن كان النصر يتم أحيانًا على بعض الممالك بالقوة والسلاح الحديث، ولم يبق من سائر الممالك الإسلامية سوى مملكة آتشيه فبدأت حرب طويلة ورائعة ابتداءً من سنة ١٢٩٠هـ - ١٨٧٣م، أيام حكم السلطان (إبراهيم منصور شاه) وبرز خلال هذه الحرب الطويلة البطل «تنكو عمر» قائد جيوش آتشيه الذي اتبع تكتيكات فريدة في محاربة الهولنديين، وقد تكبد الاحتلال الهولندي خسائر مهولة خلال هذه الحرب، واستنزفت ميزانية الاحتلال في محاربة المجاهدين، ورغم انتهاء الحرب المفتوحة سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م، إلا أن الهولنديين لم يستطيعوا السيطرة على مملكة آتشيه إلا بعد عشر سنوات كاملة لاستمرار الاضطرابات وحروب العصابات من السكان، أي حتى سنة ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م وهي السنة التي اندلعت فيها الحرب العالمية الأولى.

❑ دور الجمعيات والمؤسسات الإسلامية في الاستقلال:

بعد حروب مملكة آتشيه استقرت أقدام الاحتلال الهولندي في أندونيسا، وأخذ الاحتلال في تنفيذ خطة منهجية وضعها المستشرق الهولندي (سنوك هورو) للسيطرة على مسلمي أندونيسيا تقوم على إبادتهم بالأمراض والجهل والتخلف وإبعادهم عن دينهم بنشر المفاسد والفجور، وتفريق صفهم وكسر وحدتهم الإسلامية، بإحياء العصبية والقبلية والقومية العرقية بين أبناء البلد الواحد، وقبل ذلك كله نشر النصرانية قسرًا بينهم.

فرأى رأي الأندونيسيون هذه الحرب الصليبية الضروس والمنظمة ضدهم،

اتجهوا نحو توحيد الصفوف وتأسيس الجمعيات والأحزاب والمؤسسات الإسلامية لمواجهة هذه الحرب الشاملة، فتأسست الجمعية الخيرية في جاكرتا، وجمعية مكارم الأخلاق في شرقي جاوة، وجمعية شركة إسلام وقد تحولت لحزب سياسي كبير وله شعبية، وجمعية الإرشاد للتعليم بالعربية، والجمعية العائشية وهي خاصة بالسيدات في جزيرة سومطرة، وجمعية نهضة العلماء التي صارت بعد ذلك أكبر حزب سياسي في البلاد وأكبر جمعية إسلامية على مستوى العالم، وجمعية الإصلاح الإسلامي، جمعية الشبان المسلمين، حزب التنوير الإسلامي.

فعدت هولندا كل هذه الجمعيات والمؤسسات الإسلامية في الجزر الأندونيسية خطرًا بالغ الأهمية، فعمدت هولندا على تشجيع العلمانيين والمفتونين بالغرب على تأسيس أحزاب خاصة بهم، فتأسس الحزب الشيوعي الماركسي والحزب الاشتراكي الديمقراطي وهو موالي للاحتلال، ثم عمدت هولندا لخطة في غاية المكر لتشغل بها مسلمي أندونيسيا عن قضية الاستقلال، إذ فتحت البلاد للدعوة القاديانية الضالة وهيأت لهذه الفئة الضالة الكافرة أفضل الظروف للانتشار فهب مسلمو أندونيسيا يقاومون هذه الفئة الضالة ويدافعون عن دينهم، كما عمل الاحتلال الهولندي على دعم الشيوعيين والعلمانيين وإفساح المجال لهم للتحدث مع الجماهير، في حين تم القبض على الزعماء المسلمين والزج بهم في السجون ونفي الكثيرين منهم إلى جزيرة غينيا الجديدة المعروفة باسم الجزيرة الحمراء لكثرة الأمراض والأوبئة الفتاكة بأرضها، فخلت الساحة الأندونيسية للشيوعيين والعلمانيين الذين أخذوا في العبث

بعقول البسطاء بالدعايات الكاذبة والأماني الزائفة.

ومع ذلك أبدى الأندونيسيون مقاومة نادرة لكل هذه الخطوات الشيطانية للاحتلال الصليبي الهولندي، إذ بدأت حركة اتحاد بين كل الجمعيات والأحزاب الإسلامية في البلاد وتشكل المجلس الإسلامي الأعلى الذي اكتسب صفة العالمية حتى أنه قد انشغل فترة من الوقت بقضية الخلافة.

وبعد ذلك تعرضت أندونيسيا للاحتلال الياباني أثناء الحرب العالمية الثانية، فقام الأندونيسيون بمقاومة الاحتلال الياباني وقد اتفق زعماء البلاد مع قوات الحلفاء على الاستقلال بعد هزيمة اليابان، ولكن هذه الوعود كلها تبخرت كما هي عادة الاحتلال في كل زمان ومكان، وما إن انتهت الحرب حتى عاد الهولنديون لاحتلال البلاد فانتفض الأندونيسيون جميعًا وأشعلوا نار الثورة والمقاومة حتى نالوا استقلالهم وأعلنوا دولتهم في ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٩م ليبدأ الأندونيسيون بعدها حربًا من نوع آخر ضد ذيول الاحتلال وصنائعه وأذنابه داخل البلاد، وضد الحملات التنصيرية الشرسة والمحمومة على هذه الأرض المباركة، ولقد أثبت الأندونيسيون رغم كل ما يتعرضون إليه من مآسي وكوارث أنهم شعب المقاومة الباسلة، حتى أصبحت أندونيسيا أكبر بلد مسلم على وجه الأرض من حيث تعداد السكان، والله عز وجل غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* * *

المصادر والمراجع

(١) التاريخ الإسلامي.

(٢) تاريخ الإسلام في بانتن.

(٣) المختار المصون.

(٤) تاريخ آسيا الحديث والمعاصر.

(٥) أطلس تاريخ الإسلام.

(٦) إندونيسيا.

(٧) صفحات من تاريخ إندونيسيا المعاصرة.

* * *

الفصل السابع

الاحتلال الإنجليزي لبلاد الهند

*** الهند عبر التاريخ:**

عندما نتكلم عن بلاد الهند في التاريخ فإننا لا نعني بذلك دولة الهند القائمة اليوم بحدودها المعروفة، ولكن نعني بذلك شبه القارة الهندية التي انقسمت بفعل الاحتلال الصليبي الذي يكره بشدة الكيانات الكبيرة وبالأخص تلك التي يحكمها المسلمون، انقسمت هذه البلاد الشاسعة الآن لعدة دول هي: الهند، وباكستان، وبنجلاديش، ونيبال، وبوتان، وسيريلانكا، إضافة إلى ما يتبعها من جزر في المحيط الهندي وهي: جزر المالديف، وجزر لكاديف في الغرب، وأندمان ونيكوبار في الشرق، وسيلان أو سرنديب في الجنوب.

وشبه القارة الهندية عالم قائم بذاته جغرافيًا في قلب القارة الآسيوية، ففي الشمال جبال الهمالايا الشامخة والتي تعرف بسقف الدنيا، وفي الشرق جبال آسام وهي في الأصل متفرعة من جبال الهمالايا، وفي الغرب جبال الهند وكوش الممتدة حتى الشاطئ، أما في جهة الجنوب فالمحيط، وهي بلاد شاسعة ممتدة الأرجاء تبلغ مساحتها قرابة ٤.٥ مليون كيلو متر مربع، وبها الكثير من الشعوب والقوميات واللغات واللهجات، وكانت عبر التاريخ من المناطق المؤثرة على ركب الحضارة

ومسيرة البشرية، وتعددت بها الأجناس والديانات بصورة واسعة حتى يمكن القول أن شبه القارة الهندية هي تجسيد حقيقي لجميع أدوار تاريخ البشرية في شتى صوره، وفيها التمثيل الكامل لفروق الآدميين وما عرفوه من معتقدات منذ ظهور الوثنيات حتى هداية الناس إلى التوحيد.

ونظرًا لاتساع رقعة هذه البلاد لم يستطع حاكم واحد أو دولة واحدة أن تخضع جميع أقاليمها، فقامت بها العديد من المالك والإمارات حتى آخر العهد الويدي، حيث بدأت معالم النظام الطبقي في الهند تتبلور وتستقر بين أهل هذه البلاد، وكان نظام الطبقات الهندي من أشد صور الظلم والقسوة والاستهانة بالكرامة الإنسانية، وقبل ميلاد المسيح عليه السلام بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وألف فيه قانون مدني وسياسي وهو المعروف الآن باسم (منوشاستر)، ويقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات وهي:

(١) **البراهمة**: وهم طبقة الكهنة ورجال الدين، ولهم امتيازات وحقوق تضعهم في مصاف الآلهة عندهم.

(٢) **شترى**: وهم طبقة العسكريين ورجال الحرب.

(٣) **الويش**: وهم طبقة رجال التجارة والزراعة.

(٤) **الشودر**: وهم المنبوذون والخدم، وهم عند البراهمة أحط من البهائم وأذل من الكلاب.

أما عن مكانة المرأة ووضعها داخل المجتمع الهندي فكانت مثل المتاع تباع وتشترى ولا حقوق لها بالكلية، وكان المجتمع الهندي قبل ظهور الإسلام زاخرًا بالشهوات والملذات المحرمة، وخاصة الشهوة الجنسية الجامحة حتى إنهم قد عبدوا جسد المرأة وصوروا مفاتنها في معابدهم، وكان كهنة المعابد وسدنتها من أفسق الناس وأفجرهم، وبالجملة كان المجتمع الهندي قبل الإسلام في حالة فوضى دينية وأخلاقية واجتماعية شاملة.

*** رحلة الإسلام داخل الهند:**

عرف العرب بلاد الهند قبل الإسلام وخبروها جيدًا للروابط التجارية بين الطرفين، فلما تشرَّف العرب بالإسلام، وحملوا أمانة التكليف ومسئولية نشر الرسالة والدعوة في أرجاء المعمورة، فحملوا سيوفهم على عواتقهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وكان أمام المسلمين عقبة كؤود قبل الوصول إلى بلاد الهند، وهي عقبة الدولة الفارسية، لذلك لم يكد المسلمون أن يقضوا على هذه العقبة حتى يمموا نواصي خيولهم ناحية بلاد الهند.

وصل المسلمون إلى بلاد الهند ووطئوا أرضها في أيام الراشدين وتحديدًا سنة ١٥ هـ أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عندما أغار الحكم بن أبي العاص الثقفي على مدينة (تانه) شمال مدينة بومباي، ومن يومها أخذ المسلمون يغيرون على أطراف الهند مرة بعد مرة ولا يستقرون بأي بلد يغيرون عليه حتى

استقرت أوضاع الدولة الأموية بعد صراعات داخلية طويلة، وفي سنة ٨٩هـ بدأت أولى الحملات الكبرى على بلاد الهند حيث استطاع القائد محمد بن القاسم أن يفتح بلاد السند وقتل ملكها الغادر (داهر).

في أيام الدولة العباسية اهتزت مكانة المسلمين في الهند بسبب انتشار الأفكار الهدامة والعصبية القبلية التي اجتاحت بلاد ما وراء النهر، وقامت عدة إمارات مستقلة داخل الهند معظمها من الباطنية الإسماعيلية، واستمر هذا الوضع المفكك حتى ظهور الدولة الغزنوية وسلطانها الكبير محمود بن سبكتكين سنة ٣٩١هـ وقد نذر نفسه للجهاد في سبيل الله، فدخل بلاد الهند عن طريق ممر خيبر ففتح بلادًا واسعة لم يفتحها المسلمون من قبل، وهدم معبد (سومنات) وثن الهنود الأكبر وظلت الدولة الغزنوية تحكم الهند حتى سنة ٥٥٥هـ ثم قامت بعدها الدولة الغورية، وهي التي فتحت بلاد البنغال ودهلي، وأسسوا أول سلطنة إسلامية مستقرة وثابتة بالهند سنة ٦٠٢هـ.

ثم تعاقبت الدول الإسلامية على حكم بلاد الهند مثل دولة (إيلتمش) من سنة ٦٠٧هـ - ٦٦٤هـ ثم دولة (بلبن) من سنة ٦٦٤هـ - ٦٨٩هـ ثم دولة الخلج من سنة ٦٨٩هـ - ٧٢٠هـ ثم دولة آل تغلق ٧٢٠هـ - ٨١٥هـ ثم دولة آل خضر ٨١٥هـ - ٨٥٥هـ ثم دولة اللودي من سنة ٨٥٥هـ - ٩٣٢هـ ولم تكن تلك الدول كلها تحكم بلاد الهند جميعًا ولكن قامت العديد من الإمارات الموازية في مناطق وأقاليم الهند الواسعة مثل كشمير والملتان والكوجرات والبنغال وجانبور وهضبة

الدكن، وحكم الإسلام للهند في تلك الفترة أشبه ما يكون بحكم ملوك الطوائف بالأندلس، وقد لاقت تلك الدول نفس مصير دولة الطوائف بالأندلس، إذ ظهرت الأسرة المغولية بقيادة محمد بابر شاه سنة ٩٣٢هـ ووحدت الهند تحت راية واحدة، وقامت دولة المغول الإسلامية في الهند، وهي التي ظلت تحكم البلاد حتى سقوطها في قبضة الاحتلال الإنجليزي الديني.

وخلال رحلة الإسلام الطويلة والعميقة داخل بلاد الهند نجد أن المسلمين خلال تلك الفترة الطويلة، والتي بدأت مبكرًا جدًا أيام الراشدين (١٥هـ) قد ارتكبوا عدة أخطاء جسيمة أدت في النهاية لضياع دولة الإسلام في الهند، من أهم تلك الأخطاء:

١- عدم استقرار المسلمين في البلاد المفتوحة في الهند في أيام الغزوات الأولى، وحتى عندما فتحوا السند على يد محمد بن القاسم والمسلمون الأوائل كانوا أقدر الناس على الدعوة وأكثرهم فهمًا ودراية بالإسلام، مما أضاع الفرصة على المسلمين في إدخال أكبر قدر ممكن في الإسلام من الهنود الذين كانوا على الوثنية والضلال، والذين جاءوا من بعدهم من المسلمين واستقروا في الهند لم يكونوا مؤهلين للدعوة أو إرشاد الناس وبالتالي ظل الإسلام محصورًا في منطقة السند والبنجاب، وذلك لفترة طويلة.

٢- جهل معظم الناس باللغة العربية التي هي لغة الشرع والوحيين، وذلك بسبب أعجمية معظم الفاتحين لبلاد الهند من أتراك ومغول وغيرهم، مما أفقد مسلمو

الهند الفهم الصحيح والكامل لتعاليم الإسلام، وأفقدهم تذوق معاني القرآن وحقائق السنة.

٣ـ أن الدول الإسلامية التي قامت بحكم بلاد الهند في أغلبها لم تحكم بالشريعة وبما أنزل الله عز وجل، وإنما كان أقصى مهامها السيطرة وضمان سكون رعية وكان أغلبهم من الهندوس، لذلك كان الحكام المسلمون يتركون الناس على عقائدهم الوثنية وشعائرهم الشركية، بل إن بعض حكام المسلمين مثل السلطان المغولي (جلال الدين أكبر) قد اخترع دينًا جديدًا مزج فيه بين الإسلام والهندوسية والنصرانية وحاول إجبار الناس على هذا الدين الجديد، وذلك كله إرضاءً للرعية والناس.

٤ـ اشتعال الحروب الداخلية الطاحنة بين الحكام المسلمين والتي شغلت حيزًا كبيرًا من حياة تلك الدول والممالك الإسلامية، مما أدى لإهمال شئون الدعوة ونشر الإسلام، بل كان جل اهتمام الحكام وقتها كسب الولاءات وفرض الضرائب وعقد التحالفات مع الآخرين ولو كانوا من الكفار الأصليين.

٥ـ معظم العلماء والدعاة الذين دخلوا بلاد الهند لخدمة نشر الدعوة والإسلام كانوا مدخلي العقيدة، مولعين بالفلسفة والتصوف والأفكار الهدامة مثل وحدة الوجود والحلول والاتحاد، وهي أفكار لاقت قبولاً عند متصوفة الهند مما جعلهم يقبلون على دخول الإسلام ولكن بنفس أفكارهم، فأصبحوا مسلمين ظاهرًا مشركين ضالين باطنًا، كما وجدت الفرق الضالة مثل الإسماعيلية والروافض موطئ

قدم، وقامت عدة إمارات باطنية في الملتان والسند، بل قامت إمارة للقرامطة في الملتان في القرن الخامس الهجري.

والقضية الكلية والسبب الجامع لما ذكرناه يرجع لكون المسلمون فتحوا معظم بلاد الهند في وقت الضعف وتواهي الخلافة الإسلامية، فلم يتمكن المسلمون من نشر تعاليم الإسلام بصورة صحيحة وكاملة، مما جعل دولة الإسلام في الهند غير مستقرة، دائمة التقلب، ثوب ريادتها مليء بالثقوب والخروق، مما جعل الهندوس يقيمون لهم عدة ممالك قوية في جنوب الهند ناوأت دولة الإسلام في الشمال لفترة طويلة، وسهلت طريق الاحتلال في القضاء على الحكم الإسلامي لبلاد الهند.

*** البرتغاليون وبلاد الهند:**

تعتبر بلاد الهند من أخصب بقاع العالم وأكثرها ثراءً بالموارد الطبيعية التي تجعل لعاب المحتلين الأوروبيين تسيل وبغزارة، ولكن ضخامة المساحة وكثافة السكان والطبيعة الجغرافية حالت دون تحقيق تلك الأطماع الصليبية على أرض الهند، وكانت ناحية الجنوب حيث المحيط الهندي هي الجهة الوحيدة التي يمكن النفوذ إلى بلاد الهند منها، وما غيرها من سبل دونه عقبات ودول وممالك كبيرة وقوية وأيضًا مسلمة كانت حتمًا ستحول دون الوصول إليها.

كان البرتغاليون هم أول من وصل إلى سواحل الهند من ناحية المحيط، وذلك خلال حركة الكشوف البحرية التي بدأت فور سقوط دولة الإسلام في الأندلس سنة

٨٩٧هـ وبالفعل وصل البحار البرتغالي الشهير (فاسكو دي جاما) إلى سواحل الهند عند إقليم الكوجرات سنة ٩٠٤هـ مكتشفًا بذلك طريقًا جديدًا للدوران حول العالم، وهو طريق رأس الرجاء الصالح، ورأى البحار البرتغالي من ثروات وخيرات البلاد ما جعله يعود مسرعًا إلى مليكه (إيمانويل الثاني) الملقب بالملاح لعنايته بالبحار والأساطيل، وأخبره بالكشف الجديد، فاستعد البرتغاليون لغزو بلاد الهند وحشدوا من أجل ذلك أمهر قادتهم وكل قوتهم البحرية.

كانت دولة الإسلام في الهند وقتها تعاني من ويلات الحروب الداخلية بين الممالك الإسلامية هناك، وسلطنة دهلي الإسلامية والتي تعتبر أكبر وأقوى الممالك الإسلامية وقتها، تعاني من صراع بين أمرائها على الحكم وأوضاعها الداخلية شديدة الاضطراب، وغيرها من الممالك الإسلامية ليس بأحسن حالاً منها، في حين استطاع الهندوس أن يقيموا لهم عدة ممالك قوية في جنوبي الهند ظلت شوكة في خاصرة دولة الإسلام في الهند.

استغل البرتغاليون تلك الأوضاع المضطربة داخل بلاد الهند وهجموا بأسطول كبير على إقليم الكوجرات، وهي شبه جزيرة تقع في غربي بلاد الهند، وذلك سنة ٩٠٦هـ وكانت مملكة الكوجرات تتبع سلطنة دهلي الإسلامية حتى سنة ٨٤٠هـ وبعدها استقلت وأصبحت مملكة خاصة مستقلة يحكمها أمراء أسرة مظفر شاه، وكان أمير الكوجرات وقت الهجوم الصليبي عليها اسمه (محمود باشا)، وحاول

صد العدوان الغاشم عليه، ولكنه فوجئ بالتفاوت الكبير بين السلاح الهندي والبرتغالي، وبالفعل نجح البرتغاليون في احتلال عدة نقاط في سواحل الكوجرات.

نظرًا للصراعات القديمة بين سلطنة دهلي الإسلامية وسلطنة الكوجرات لم يستطع محمود شاه أن يستنجد بالسلطان إسكندر الثاني سلطان دهلي، ولكنه طلب العون من سلطان المماليك (قنصوة الغوري) وكان بين دولة المماليك والممالك الإسلامية في غرب الهند روابط وثيقة، وكان المماليك يتخوفون من القوة البحرية الناشئة للبرتغاليين وأيضًا من طموحاتهم الصليبية وخططهم الخبيثة تجاه العالم الإسلامي، وكان البرتغاليون قد وضعوا نصب أعينهم السيطرة على الممرات العالمية للتجارة ومنها موانئ البحر الأحمر والخليج العربي، كما ذكرنا في ثنايا الكلام على العدوان البرتغالي على جنوب الخليج العربي.

بالفعل أرسل قنصوة الغوري حملة بحرية بقيادة حسين الكردي سنة ٩١٤هـ اصطدمت بالأسطول البرتغالي عند جزيرة «ديو» وأنزلت به هزيمة منكرة دفعت البرتغاليين لحشد كل قواتهم البحرية، واستعانوا بأمهر قادتهم البحريين وهو الشيطان الطاغية (البوكيرك)، وأعادوا الاصطدام مع أسطول المماليك سنة ٩١٥هـ عند جزيرة «ديو» وفيها تحطم معظم الأسطول المملوكي، وهي الهزيمة التي قضت على القوة البحرية للمماليك، وخلت الساحة البحرية للبرتغاليين تمامًا في الخليج العربي والمحيط الهندي.

أقام البرتغاليون عدة مراكز لهم بالساحل ووجدوا في الإمارات الهندوسية في جنوبي الهند حليفًا وثيقًا ضد المسلمين، ولما برزت قوة الدولة العثمانية على ساحة الأحداث وورثت دولة المماليك في مصر والشام والحجاز، استنجد ملك الكوجرات (بهادور شاه) بالسلطان العثماني سليمان القانوني وذلك سنة ٩٣٨هـ ونجحت الإمدادات العثمانية بقيادة القائد مصطفى الرومي في هزيمة البرتغاليين عدة مرات، ولكن حدث قتال داخلي بين حاكم الكوجرات (بهادور شاه) وسلطان دولة المغول المسلمة في الهند (همايون بن محمد بابر شاه) سنة ٩٤١هـ هذا القتال دفع بهادور شاه لئن يطلب العون من ألد أعدائه البرتغاليين، فوافقوا على الفور، فالقاتل والمقتول من المسلمين والخاسر دائمًا هو الأمة الإسلامية، واشترطوا عليه بناء قلعة حصينة لهم في جزيرة «ديو»، ولكن بعد قليل شعر (بهادور شاه) بفداحة خطأه وتصالح مع (همايون)، ودخل في حرب عنيفة ضد البرتغاليين سنة ٩٤٣هـ ولكنه هزم وقتل واحتل البرتغاليون جزيرة «ديو» كلها، فلما علم السلطان سليمان القانوني بما جرى أرسل أسطولاً كبيرًا من مصر عبر البحر الأحمر ثم الخليج العربي لطرد البرتغاليين نهائيًا من سواحل الهند، وضرب العثمانيون حصارًا قويًا على المراكز البرتغالية، ولكن وقع خلاف شديد بين ملك الكوجرات الجديد (محمود شاه) وبين قائد الحملة العثمانية (سليمان باشا)، بسبب بعض الوشايات التي لعبت بعقل محمود شاه، وأقنعته بأن العثمانيين يخططون للسيطرة على الكوجرات، فقطع محمود شاه المؤن عن

العثمانيين مما أجبرهم على رفع الحصار ومغادرة الهند.

وهكذا نرى أن البرتغاليين ما وجدوا لهم موطئ قدم ببلاد الهند إلا بسبب الصراعات الداخلية بين الممالك الإسلامية، وسوء الظن الدائم والمتبادل بين حكام المسلمين، وأيضًا بسبب المساعدات الهندوسية من الجنوب، وكلها أمور وعوامل تضافرت من أجل استمرار الاحتلال البرتغالي لسواحل الهند الغربية طيلة قرن من الزمان [٩٠٦هـ - ١٠٠٩هـ] نهبوا خلالها خيرات البلاد وثرواتها باسم التجارة، غير أنهم لم يستطيعوا التوغل في الداخل الهندي لقلة عددهم أمام السكان وعدم قدرة جيوشهم البرية على منازلة جيوش المسلمين هناك، فالتفوق البرتغالي كان تفوقًا نوعيًا في البحر فقط دون البر، كما أن وحشيتهم الصليبية المعروفة وحقدهم التاريخي على المسلمين جعلهم لا يجاوزون مراكزهم البحرية التي تحكموا من خلالها بالتجارة العالمية لثروات الشرق كله، بل بلغت قوة البرتغاليين البحرية خلال تلك الفترة مبلغًا كبيرًا جعل السلطان (جلال الدين أكبر) وهو أكبر سلاطين الهند وبلغت دولة الإسلام في عهده أقصى اتساعها، جعلته يقدم موقع «دامان» الساحلي للبرتغاليين سنة ٩٨٣هـ حتى لا يتعرضوا للأسرة الملكية أثناء رحلة أداء فريضة الحج، مما يوضح مدى سيطرة البرتغاليين على سواحل المحيط الهندي.

ذاعت شهرة الهند في البلدان الأوروبية وسال لعاب أباطرة الاستعمار وقتها - إنجلترا وفرنسا - وكان البرتغاليون قد تحكموا في تجارة الهند ورفعوا أسعار المنتجات

واحتكروا تصديرها، فتبرمت الدول الأوروبية وقررت دخول ميدان المنافسة مع البرتغاليين، فدخل الهولنديون أولاً ثم الفرنسيون ثم الإنجليز.

ورغم تدهور أحوال الممالك الإسلامية وقتها ووقوع سواحل الهند تحت الاحتلال البرتغالي إلا إن مكانة السلاطين والملوك المسلمين كانت ما زالت باقية ونفوذهم بالداخل الهندي كبير وواسع، وأبرز دليل على ذلك إن ملك إنجلترا جيمس الأول أرسل رسولاً من عنده لمقابلة سلطان المسلمين الكبير (نور الدين محمد جهانكير) وذلك سنة ١٦٠٨م ـ ١٠١٨هـ فظل الرسول واسمه (وليم هوكنز) عامين في دهلي ولم يحظ بمقابلة السلطان، فلما ألح في أن يأخذ كتابًا منه يحمله إلى ملك إنجلترا، أجابه وزير السلطان بكل عزة وكرامة: «إن مما لا يناسب قدر ملك مغولي مسلم أن يكتب كتابًا إلى سيد جزيرة صغيرة يسكنها صيادون بائسون».

*** خطوات الاحتلال الإنجليزي لبلاد الهند:**

نستطيع أن نقول بكل أمانة تاريخية وحيادية بحثية؛ إن الإنجليز هم أساتذة المكر والدهاء وأخطر المحتلين لبلاد الإسلام، نظرًا لاتباعهم سياسات خبيثة ومتنوعة في احتلال البلاد حتى كونوا لهم إمبراطورية ضخمة يضرب بها المثل السائر أنها إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، هذا على الرغم من صغر مساحة إنجلترا وقلة عدد سكانها وفقرها الشديد في الموارد الطبيعية، ولكن بالمكر والخداع والصبر وطول النفس سيطروا على أجزاء كبيرة من المعمورة وذلك في القرنين الثامن والتاسع عشر

حتى منتصف القرن العشرين الميلادي.

دخل الإنجليز لأول مرة بلاد الهند على هيئة شركات تجارية لنقل البضائع من الهند إلى أوروبا، وقد اجتمع كبار تجار إنجلترا مع محافظ مدينة لندن سنة ١٠٠٨هـ، وقرروا تأسيس شركة تجارية تتعامل مع حكومة الهند (سلطان المغول) مباشرة دون وساطة البرتغاليين، فأرسلت ملكة إنجلترا وقتها إلى السلطان جلال الدين أكبر تستأذنه في ذلك، فأذن لهم، فتكونت شركة تجمع كبار التجار الإنجليز، وهي التي ستصبح بعد فترة من الزمان شركة الهند الشرقية، المشهورة في التاريخ بأنها واجهة الاحتلال الإنجليزي في المنطقة بأسرها.

رحب أهل البلاد بالإنجليز في بادئ الأمر كراهية منهم للبرتغاليين شديدي الصليبية وأنشأت المراكز التجارية في سورات وجوكوندا ومدراس وكلكتا، فلما تولى السلطان نور الدين محمد جهانكير السلطنة سنة ١٠١٤هـ ـ ١٦٠٥م أراد الاستفادة من دخول الإنجليز سواحل الهند، فأغراهم بالبرتغاليين فاشتبكوا معهم في أعالي البحار، وأنزلوا بهم هزائم كبيرة أسعدت سلطات الهند فأعطاهم حقوقًا على سواحل الهند مهدت لهم السبيل للسيطرة على البلاد كلها فيما بعد.

أدرك الإنجليز بأن سلطنة المغول الإسلامية وسلطان دهلي القوة الحقيقية والفاعلة في الهند، فساروا على خطة التقرب من سلاطين دهلي ومحالفتهم ضد خصومهم من البرتغاليين والإمارات الهندوسية في جنوبي الهند، وفي المقابل توسع

سلاطين دهلي في الاعتماد على القوة الإنجليزية نظير منح الامتيازات التجارية وبناء المراكز التجارية التي ستصبح فيما بعد قواعد الاحتلال الإنجليزي للبلاد.

كان السلطان «محيي الدين أوزنكزيب عالم كير» أول من توسع في محالفة الإنجليز رغم أنه كان من أفضل وأصلح سلاطين دولة المغول المسلمة بالهند، بل هو من كبار العلماء وله مؤلفات في الفقه الحنفي، ولكنه تحالف مع الإنجليز من موضع قوة، ولما شعر الإنجليز بنوع من القوة في البنغال وأرادوا أن يستعرضوا هذه القوة سنة ١٦٨٠م أمر السلطان بالاستيلاء على كل مراكزهم ومصانعهم، وفقد الإنجليز نتيجة تهورهم كثيرًا من مكتسباتهم في الهند، ولكن سرعان ما أعاد لهم السلطان مراكزهم بعد أن علم أنهم قد وعوا الدرس جيدًا، وبالفعل ظل الإنجليز قرابة النصف قرن بعدها بعيدين عن أمور الدولة الداخلية وانصرفوا خلالها لتثبيت أقدامهم ووجودهم في البلاد.

لم يكن خلفاء السلطان محيي الدين على شاكلته في الحزم والشجاعة، فأخذ الضعف يدب في سلطنة المغول في الهند، وتصارع أمراؤها على الحكم، وأخذ الهندوس يرفعون رؤوسهم في هضبة الدكن والبنغال، وأخذت عرى الدولة الكبيرة في الانفصام، الإقليم تلو الإقليم، وأخذ ولاة الأقاليم والقادة الكبار في الانفصال بأجزاء السلطنة، وذلك بسبب ضعف السلطة المركزية عن التصدي لثورات الهندوس والسيخ والمراتها، ومن أبرز الإمارات التي ظهرت في تلك الفترة إمارة

نظام الملك في حيدر آباد الدكنية، وإمارة ميسور في جنوب شرق الهند، وتلك الإمارات هي التي ستتولى محاربة الإنجليز والهندوس وقيادة الجهاد المسلح ضدهم.

لعب الإنجليز لعبة تبادل الجياد بكل خبث ومكر، فبعد أن شعروا بسريان الضعف في أوصال سلطنة المغول في دهلي، وفي المقابل أخذت قوة الهندوس والسيخ في التنامي، نقلوا رهانهم على الهندوس والسيخ، وعملوا على محالفتهم ضد المسلمين ولكن بصورة خفية بادئ الأمر حتى يبقوا على علائقهم مع المسلمين وظلوا يتسللون شيئًا فشيئًا بالداخل الهندي حتى سيطروا على البنغال وأوده سنة ١٧٦٠م، ثم حيدر آباد سنة ١٧٦٦م، ثم ميسور سنة ١٧٩٢م، وأخيرًا دخلوا دهلي عاصمة سلطنة المغول الإسلامية.

أفصح الإنجليز عن وجههم الحقيقي وكشفوا عن عنصرية قبيحة وصليبية مقيتة، وأعلنوا عن عدائهم لكل ما هو إسلامي، وعملوا على تعفية أي أثر للحكم الإسلامي لتلك البلاد الواسعة واستعانوا من أجل ذلك بكل أعداء المسلمين من هندوس وسيخ وبوذيين، والعجب كل العجب إذا علمنا أن الجيش الإنجليزي الذي سيطر على تلك البلاد الشاسعة كان قوامه مائة ألف جندي منهم عشرون ألفًا فحسب من الإنجليز، مما يوضع مدى المكر والكيد الذي استعمله هؤلاء الشياطين لإنهاء حكم المسلمين بالهند.

وحتى يضمن الإنجليز عدم ثورة المسلمين عليهم أبقوا على منصب سلطان دهلي، ولكن مجرد صورة بلا أي معنى أو نفوذ ويأخذ راتبًا شهريًا من الإنجليز، ونفوذه لا يجاوز عقبة داره في مدينة «الله أباد» بعد أن نقلوه من دهلي سنة ١٨٠٢م إليها.

كفاح المسلمين في تحرير الهند

كما قلنا من قبل اتبع الإنجليز أسلوب المكر والخداع ولعبة تبادل الجياد للتسلل إلى داخل البلاد، تمامًا مثل الأفعى ناعمة الملمس التي تنساب بكل هدوء حتى تلتف حول ضحيتها وتنفث في جسدها السم الزعاف، هكذا كان الإنجليز، ظل المسلمون في غفلة من كيدهم ومخططاتهم طويلة المدى، حتى أصبحوا قوة تستعصي على الطرد، ولقد كان تسامح القوي من حيث لا يدري سببًا من أهم أسباب سقوط دولة الإسلام في الهند، ونعني بالقوي السلطان الفقيه محيي الدين عالم كير، الذي تعامل مع الإنجليز من موضع قوة وسيطرة، فخنعوا له حتى حين، ولم يحسب ذلك السلطان الكبير رغم علمه وفقهه حسابًا للأيام التي ستأتي من بعده، فجاء خلفاؤه ضعافًا الواحد تلو الآخر، حتى ذهبت قوة تلك السلطنة العظيمة، وتفصمت عراها إلى إمارات ودويلات صغيرة، سهل على الإنجليز محاربتها والسيطرة عليها، مما جعل المسلمون ينتبهون للواقع الأليم ولكن وللأسف الشديد متأخرًا، ولكن رغم غفلة المسلمين وتأخرهم في الدفاع عن بلادهم إلا إنه قام العديد من الرجال الأقوياء وحركات التحرر الإسلامية التي كان لزامًا عليها أن تجاهد ليس الإنجليز فحسب، ولكن معهم أيضًا العدو القديم والتاريخي للمسلمين في بلاد الهند وهم الهندوس.

◻ حركة الأمير سراج الدولة (١١٦٩هـ - ١٧٥٦م):

كان الإنجليز في بداية أمرهم ينقلون البضائع من الهند إلى أوروبا، وبعد الثورة الصناعية أخذ الإنجليز في نقل المنتجات من أوروبا إلى الهند، فحقق الإنجليز ثروات ضخمة خيالية من جراء ذلك الجشع والاستغلال التجاري البشع، وبدأ الإنجليز في التعامل مع الهندوس لتقوية جانبهم على حساب المسلمين الذين كان الإنجليز يرون فيهم عدوًا أصيلاً وحقيقيًا لهم، وبدأ زعماء المسلمين في الشعور بالخطر وقرروا ضرورة التحرك سريعًا.

من هؤلاء كان الأمير سراج الدولة حاكم البنغال الذي قرر إنهاء الوجود الإنجليزي في البنغال، فهجم على مراكزهم التجارية على الساحل، واستولى عليها كلها سنة ١١٦٩هـ - ١٧٥٦م، وهاجم حصن «فورت وليم» الإنجليزي واستولى عليه، فجاءته قوة إنجليزية - هندوسية مشتركة فانتصر عليها في شوال سنة ١١٦٩هـ، فأثار ذلك النصر مخاوف الإنجليز خاصة وأن الفرنسيين ألد أعداء الإنجليز قد دخلوا حلبة الصراع ودعموا سراج الدولة بالسلاح والخبرات الفنية.

لجأ الإنجليز إلى سلاح الغدر والخيانة وهم أساتذة في ذلك الفن، فألقوا شباكهم على رجال وأعوان الأمير سراج الدولة، فعلق بها للأسف الشديد «مير جعفر علي خان»، أكبر قادة سراج الدولة وزوج ابنته، وكان رجلاً طموحًا يطمع في المنصب، فاشتراه الإنجليز بلعاعة من الدنيا زائلة، واستعد الإنجليز لمعركة فاصلة مع سراج

الدولة، ووقعت الحرب سنة ١١٧٠هـ - ١٧٥٧م عند «بلاسي» وصمد المسلمون صمودًا رائعًا، وظلت المعركة متأرجحة بين الجانبين حتى حانت لحظة الخيانة، فانفصل مير جعفر بجزء من الجيش وانضم للإنجليز، فهزم سراج الدولة ووقع أسيرًا بيد الإنجليز الذين تفننوا في تعذيبه ثم أعدموه وجعلوا مير جعفر الخائن حاكمًا على البنغال، وهكذا الخيانة على مر العصور، تفعل في الأمة أشد من أعتى الجيوش.

لم تمض سوى مدة يسيرة حتى خلع الإنجليز الخائن مير جعفر واستبدلوه بآخر وهو قاسم علي خان، الذي أبدى نوعًا من الاعتزاز بدينه ونسبه، فعزله الإنجليز وأعادوا عميلهم المخلص لهم الخائن لدينه وأمته مير جعفر، فأسرع القائد قاسم علي خان وتحالف مع السلطان المغولي (عالم شاه) وحاكم إقليم «أوده» شجاع الدولة، وساروا جميعًا لمحاربة الإنجليز وسرت روح جهادية قوية في الجند، والتقوا مع الإنجليز في «بكسر» بالبنغال، ووقع خلاف شديد بين قادة التحالف الإسلامي أدى في النهاية لهزيمة المسلمين وذلك سنة ١١٧٢هـ - ١٧٨٠م، ووقع السلطان عالم شاه في الأسر وأجبروه على التنازل عن كثير من بلاده ونفوذه من أجل إطلاق سراحه، وانتهت تلك الحركة الإسلامية للمقاومة بضياع بلاد البنغال وأوريسا وبيهار، وانهيار مكانة ونفوذ السلاطين المغول في دهلي.

◻ حركة الأمير حيدر علي خان (١١٩٠هـ - ١٧٧٧م):

من أشهر حركات المقاومة الإسلامية في بلاد الهند، وكان مركزها مقاطعة ميسور في جنوب شرق الهند، وكان معظم سكان جنوب الهند من الهندوس، فلما

ضعفت السلطة المركزية لدولة سلاطين المغول فكر الهندوس في الاستقلال بها تحت أيديهم ولكن قبل أن يضربوا ضربتهم أسرع أحد قادة المسلمين واسمه (حيدر علي خان) واستلم السلطة بالقوة وقضى على معظم زعماء الهندوس، وأحكم قبضته على «ميسور» وأخذ في توسيع بلاده حتى ضم معظم جنوب الهند ووصلت حدود دولته إلى بلاد مدراس على ساحل خليج البنغال.

خاف الإنجليز من تلك القوة الفتية الجديدة فتحالفوا مع الهندوس كما هي العادة وحاربوا الأمير (حيدر علي خان) فانتصر عليهم، وأخذ الأمير يفكر في تطوير جيوشه وتحديثها لمواصلة التفوق على الإنجليز، فقرر الاستعانة بالفرنسيين لتحقيق هدفه؛ وبالفعل أخذت فرنسا في تدريب جنوده وتحديث أسلحته، ولكن الكفر ملة واحدة، وأعداء الإسلام مهما اختلفوا فيما بينهم إلا إنهم في النهاية أبناء دين واحد، فما إن اصطلح الإنجليز مع الفرنسيين سنة ١١٩٥هـ ـ ١٧٨١م حتى تخلوا عن الأمير حيدر، فلا يتصور مسلم أن ينصره صليبي على صليبي آخر مهما كان الثمن، فلما تخلوا عنه هجم التحالف الصليبي الهندوسي على معاقله، وهزموه هزيمة شديدة أثرت في نفسيته فمات حزنًا وهمًا سنة ١١٩٦هـ ـ ١٧٨٢م، فحمل الراية من بعده ولده الشجاع الباسل فتح علي المشهور باسم (تيبو).

❑ حركة السلطان تيبو (١١٩٦هـ ـ ١٧٨٢م):

واحدة من أروع صور الجهاد الإسلامي الخالص ضد الاحتلال الإنجليزي على

أرض الهند، فلقد كان السلطان تيبو مجاهدًا باسلاً مخلصًا يبتغي من جهاده وجه الله عز وجل ويخطط لطرد الإنجليز من عموم البلاد ليس من البنغال وميسور فقط، ولقد خاض هذا البطل الجسور معارك حامية الوطيس ضد الإنجليز والهندوس على حد السواء، وكان السلطان تيبو قد ألزم الهندوس في بلاده دخول الإسلام والتزام شعائره أو الهجرة من البلاد أو القتل، وهذا الأمر ليس من باب إكراه الناس على الدين، فدولة الإسلام كما لا تقبل إكراه أحد على الإسلام، لا تقبل أبدًا وبأي حال من الأحوال وجود مشركين أو وثنيين تحت مظلتها، فإما الإسلام وإما أهل الكتاب، وما عدا ذلك مرفوض تمامًا داخل الدولة المسلمة.

تولى السلطان تيبو حكم مقاطعة ميسور بعد رحيل أبيه المجاهد الأمير حيدر علي خان وذلك سنة ١١٩٦هـ، فقرر متابعة القتال ضد الإنجليز، وحقق عليهم عدة انتصارات مهمة وطردهم من بلاده، ولكنهم عادوا الكرة واستغلوا فرصة انشغاله بمحاربة الهندوس في بلاد البيهار جنوب الهند، وهجموا على معاقله واستولوا على العديد منها، فاضطر السلطان تيبو بقبول الهدنة، وأجبر على توقيع معاهدة «سرنجا بتام» التي فقد فيها كثيرًا من أراضيه وذلك سنة ١٢٠٧هـ ـ ١٧٩٤م.

أخذ السلطان تيبو يفكر في كيفية تنظيم جيوشه وأخذ مع قادة جيشه في بحث أسباب الهزيمة، والبحث عن حليف قوي، ولكن الأوضاع داخل بلاد الهند وقتها كانت مزرية للغاية، فمعظم الإمارات المسلمة أضعف من أن يدخل في حرب ضد

الإنجليز، وبعضهم مشغول بحروب داخلية فيما بينهم، والإمارة الوحيدة القوية للأسف وهي إمارة حيدر آباد، وكانت على خلاف شديد مع إمارة ميسور وسلطانها، حتى أن جيشها كان يحارب في صف الإنجليز، وذلك الأمر مما يحزن النفس ويدمي القلب، فانتهى تفكير السلطان إلى الاستفادة من عودة الخلاف بين إنجلترا وفرنسا، وبالفعل بدأت المكاتبات بين السلطان والفرنسيين، ولكن سرعان ما كشفت إنجلترا تلك الاتصالات بسبب الطابور الخامس الذي دائمًا يحرص الإنجليز على بثه في صفوف المسلمين.

نقض الإنجليز هدنتهم مع السلطان وشنوا سلسلة هجمات خاطفة ضد السلطان وقواته، ولكنه تصدى لها بنجاح كبير أدخل الفزع في قلوب الإنجليز، إذ حقق ذلك النصر الكبير بلا أدنى مساعدة من الفرنسيين، وكالعادة لجأ الإنجليز إلى سلاح الغدر والخيانة والعمالة واستطاعوا أن يستقطبوا أحد أعوان السلطان واسمه (مير صادق)، وفي الفرصة المناسبة دلهم ذلك الخائن على القلعة التي يقيم بها السلطان، بل فتح أبوابها للإنجليز فاقتحموا المكان فبرز لهم السلطان تيبو بنفسه وقد هانت عليه نفسه لله عز وجل وأبت عليه كرامته وعزته أن يقع أسيرًا بيد الإنجليز، فظل يقاتل حتى سقط شهيدًا فيما نحتسبه عند الله عز وجل سنة ١٢١٤هـ - ١٧٩٩م، وبرحيله تنفس الإنجليز الصعداء، واستراحوا من أقوى خصم لهم في الهند، وأحكموا قبضتهم على البلاد طولاً وعرضًا.

□ حركة الشهيد أحمد عرفان البريلوي (١٢٣٩هـ):

هذه الحركة الجهادية الأبرز في تاريخ حركات المقاومة الإسلامية في الهند، ذلك أن الحركات قبلها كانت تختلط فيها الفكرة الإسلامية مع الفكرة القومية، ولكن هذه الحركة تحديدًا قامت على أساس إسلامي سلفي خالص، بل هي بداية الدعوة والحركة السلفية في بلاد الهند التي كانت تموج بالتصوف والفلسفة وعلوم الكلام والمنطق كما أسلفنا في مقدمة الكلام.

قائد هذه الحركة المباركة هو السيد الإمام أحمد بن عرفان البريلوي المولود سنة ١٢٠١هـ ببلدة «راي بريلي» ونشأ في بيئة دينية أقرب ما تكون إلى التصوف، فكان صالحًا تقيًا محبًا لفعل الخيرات، حريصًا على طلب العلم، نال قسطًا منه على يد الشيخ عبد العزيز بن علامة الهند ولي الله الدهلوي، ثم غلب عليه حب الجهاد في سبيل الله وأخذ يحرض أصحابه وأقرباءه عليه، والتحق بخدمة الأمير المجاهد نواب مير خان، ومكث معه عدة سنين يحارب الإنجليز بنظام الكر والفر، ثم تركه لما وقع الأمير معاهدة صلح مع الإنجليز، بعدها عاد إلى دهلي وشد المئزر بنصرة السنة والمنهج السلفي، وكان أهل الهند قبلها لا يعرفون شيئًا عن السلفية، وعامتهم غارق في التصوف وطرقه الكثيرة.

انضم الكثيرون إلى دعوته السلفية منهم جماعة من أهل العلم مثل الشيخ إسماعيل بن عبد العزيز الدهلوي، ودخل في مناظرات حامية مع أتباع الفرق

والطوائف المخالفة لأهل السنة، خرج منها جميعًا مظفرًا، وقد كسر بعض العادات الهندية المتوارثة والتي تخالف هدي الإسلام وتعاليمه، فتزوج من أرملة أخيه، وكان ذلك لأول مرة بين مسلمي الهند، ثم سافر للحج مع ٧٥٧ رجلاً من أصحابه وذلك سنة ١٢٣٧هـ وكانت الفتاوى قبل ذلك تقول أنه لا حج مطلقًا على أهل الهند لبعد المسافة وكبر المشقة، وقد بايعه الكثير من الناس خلال رحلة الحج تلك.

حتى تلك الفترة لم يعر الإنجليز دعوة الإمام ولا حركته أدنى اهتمام ظنًا منهم أنها طريقة صوفية جديدة ستزيد من فرقة المسلمين واختلافهم، حتى سنة ١٢٤١هـ وهي السنة التي سافر فيها الإمام إلى بلاد أفغانستان، وبث رجاله ودعاته في أرجائها فأقبل الناس على دعوته خاصة في منطقة الحدود بين الهند وأفغانستان (وزيرستان الآن)، وعندها ارتج الإنجليز وأيقنوا خطورة الحركة، فحرضا زعيم السيخ (رنجيت) في إقليم البنجاب على الاصطدام مع حركة الإمام وذلك سنة ١٢٤١هـ فحقق المسلمون انتصارًا كبيرًا على السيخ الكفرة، وازدادت الحركة قوة.

شعر الإنجليز بالندم لعدم تحركهم سريعًا للقضاء على تلك الحركة التي خرجت عن الطور وأصبحت قوة كبيرة في شمال غرب الهند يأتيها الرجال من أفغانستان، فعمدوا إلى سلاح المكر والخداع، فأخذوا في بث الشائعات والأكاذيب بحق الإمام ورجاله ونسبوا طريقته إلى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ولقبوهم بالوهابية وساعدهم في ترويج تلك الأباطيل أتباع الطرق الصوفية والمذاهب

المخالفة لأهل السنة حتى ملئوا الهند عليه كذبًا وبهتانًا وزورًا، وأخذ الناس ينفضون من حوله وعندها تحركت قوات السيخ بقيادة (رنجيت) واشتبكوا مع ورجاله عند مدينة «بالاكوت» في شمال البنجاب في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٤٦هـ، وفي القتال سقط الإمام شهيدًا ومعه الكثير من رجاله وأصحابه.

وعلى الرغم من أن تلك الحركة لم تصطدم مع الإنجليز، إلا إنها كانت من أكثر حركات المقاومة تأثيرًا في البلاد؛ إذ أحيت شعيرة الجهاد في قلوب مسلمي الهند، وظل أتباعها يقودون حركة الجهاد المقدس في البلاد، وقاموا بالعديد من الحركات القوية أبرزها حركة جعفر ويحيى سنة ١٨٦٤م، أي حتى بعد ثورة الهند الكبرى.

☐ حركة جعفر ويحيى (١٢٨٢هـ - ١٨٦٤م):

على الرغم من استشهاد الإمام أحمد بن عرفان البريلوي وكثير من أتباعه ورجال حركته في معركة «بالاكوت» سنة ١٢٤٦هـ إلا إن دعوته ظلت قائمة في منطقة البنجاب خصوصًا في الشريط الحدودي بين الهند وأفغانستان، وكان الإنجليز يعرفون أن قوة المسلمين في الهند مركزها أفغانستان، بل إن معظم دول الإسلام في الهند مثل الغزنويون والغوريون والخلجيون وآل تغلق وآل السادات وآل لودهي وسلاطين المغول كلهم هؤلاء أصلهم من الأفغان، وقد حاول الإنجليز احتلال أفغانستان عدة مرات لوقف خروج المجاهدين منها إلى الهند، ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعًا بسبب المقاومة الضارية من قبائل الأفريدي والمحسودي والوزيري.

هذه الحركة أقامها عمدة بلدة «إنبالة» السيد جعفر بالتعاون مع الشيخ مولانا يحيى الصادق بوري، وبعض الرجال الآخرين معظمهم من البنجاب، وقد اتبعوا أسلوبًا جديدًا في مقاومة الاحتلال، حيث أقاموا شبكة محكمة لجمع التبرعات والأموال وتجنيد الرجال، وإرسال ذلك كله لأتباع الإمام الشهيد وأنصاره على حدود أفغانستان، وقد وضعوا لمراسلاتهم لغة رمزية حتى إذا وقعت إحداها في قبضة الإنجليز لم يعرفوا ما فيها، ومن شدة دقة تحركاتهم أنهم كانوا يجمعون التبرعات من رعايا الإنجليز أنفسهم، وظلوا على ذلك عدة سنوات حتى وشى جندي مسلم يعمل لحساب الإنجليز بالأمر وتم القبض على رجال الحركة في مدن «بتنا» و«تهانسير» و«لاهور» وتفنن الإنجليز في تعذيبهم ثم أصدروا قرارًا بإعدام السيد جعفر ومولانا يحيى الصادقبوري والحاج محمد شفيع، ولما أحس الإنجليز بفرح المجاهدين بالشهادة، عدّلوا الحكم إلى النفي إلى جزائر أندمان المعروفة باسم جزائر الموت، تشفيًا وحقدًا منهم على المجاهدين.

*** ثورة الهند الكبرى:**

بعد انتهاء الإنجليز من حركات المقاومة الإسلامية الكبيرة، أخذوا في القضاء على أي مظهر من مظاهر الحكم الإسلامي القديم، فاستولوا على الأوقاف والأملاك، وقضوا على الصناعات المحلية، وأغلقوا المدارس والمعاهد الدينية، وقتلوا ونفوا الكثير من العلماء، ليبقى الهندي عمومًا والمسلم خصوصًا فقيرًا جاهلاً عالة

على الإنجليز في أمور حياته كلها، ونتيجة للفقر الذي عم سكان الهند، انخرط الكثير منهم في الجيش وكان الإنجليز يتكبرون عليهم ويستخفون بهم ويستهزئون بتعاليم دينهم وذلك في مواطن كثيرة، وزادت التعديات الإنجليزية عن حدها حتى كفح الكيل وانفجرت الثورة الكبرى.

بدأت شرارة الثورة في البنغال، وكان أكثر من ثلث الجيش الإنجليزي من البنغاليين وحدث أن طلب الضباط الإنجليز من جنودهم تشحيم بنادقهم، وسرت شائعة أن هذا الشحم من شحم الخنزير والبقر لإهانة سكان الهند سواء أكانوا مسلمين أو هندوسًا فهاج الهنود واعترضوا، فتحداهم الإنجليز وأرغموهم على تشحيم بنادقهم بهذا الشحم فاعترض ٨٥ جنديًا في سرية الفرسان في بلدة «ميرته» على بعد ٤٠ ميلاً من دهلي، فحكم عليهم بالسجن عشر سنوات لعصيان الأمور العسكرية، وكبلوا بالحديد، وسيقوا إلى السجن مشاة مسافة ميلين ومن لم يستطع مواصلة المشي ضربوه بأعقاب البنادق على رأسه، ففار الدم في العروق، وانقض الهنود مسلمون وهندوس على الإنجليز لتحرير اسر زملائهم، فقتلوا وجرحوا العديد من الإنجليز، فحضرت قوات إنجليزية كبيرة للموقع واندلع قتال شامل في المنطقة.

كانت قيادة الثورة بيد المسلمين وبالتحديد القائد الأفغاني محمد بخت خان، والقائد المغولي ميرزا ابن السلطان بهادور شاه المغولي آخر سلاطين المغول المسلمين

بالهند، وقد انضم للثورة الهندوس والمراتها، وقد دخل الثوار بيت السلطان بهادور شاه وكان قد جاوز التسعين من عمره، وبايعوه ملكًا على عموم الهند، وانتقلت هذه الثورة المحلية إلى ثورة عارمة شملت معظم أجزاء البلاد.

طلب الإنجليز النجدات من دول أوروبا الدينية، فجاءتهم قوات كبيرة من الخارج وكانت إنجلترا وقتها قد انتهت من حرب القرم في روسيا، وحاصر الإنجليز مركز الثورة وقبضوا على السلطان بهادور شاه وأسرته، وقاموا بمجزرة مروعة بحق أبناء السلطان حتى بلغت وحشيتهم مبلغًا غير مسبوق ولا معقول، حيث طبخوا لحوم أبناء السلطان وأجبروه على الأكل منها، ثم قاموا بنفي السلطان إلى رانجون عاصمة بورما حيث مات هناك شريدًا طريدًا فريدًا، وبذلك انتهت سلطنة المغول المسلمين بالهند بعد عدة قرون من الحكم.

تسامع الناس في الهند بما فعله الإنجليز مع السلطان وأسرته فاشتعلت البلاد طولاً وعرضًا بالثورة، فأنزل الإنجليز بالمدن الثائرة مذابح بشعة ليرتدع غيرها من المدن فلا تثور ولا تنتفض، وآتت تلك السياسة الصليبية الشنيعة أكلها فهدأت حركة الناس، واعتبر الإنجليز أن المسلمين هم سبب الثورة فصبوا عليهم جم غضبهم فصادروا الأملاك والأراضي والأوقاف وهدموا المساجد والجوامع وانتهز الهندوس الفرصة وشاركوا الإنجليز في التنكيل بالمسلمين، فأخذوا أراضيهم ومنازلهم وهجَّروهم من ديارهم، بل حلوا مكانهم في الوظائف والأشغال، وقد عبر اللورد

آلان برو المندوب الإنجليزي في الهند عن سياسة الإنجليز هناك بقوله: «ليس في وسعي أن أغمض عيني بأن هذا العنصر الإسلامي عدو أصيل العداوة لنا، وأن سياستنا الحقة أن نتجه إلى تقريب الهنادك».

ومع أن الهند قد أصبحت تحت قبضة الاحتلال الإنجليزي إلا أن الإنجليز قد أبقوا على بعض الإمارات، بعضها تحت حكم المسلمين، والبعض الآخر تحت حكم الهندوس، ولكن الحكم صوري لا معنى له، إذ إن السلطة الحقيقية في الدفاع والخارجية وهي بيد الإنجليز، والحاكم المسلم أو الهندوسي مفوض بالأمور الداخلية فقط ومعه مستشار إنجليزي لمراقبة تصرفاته وخاصة الأمور المالية.

*** الإنجليز وإبطال فكرة الجهاد:**

رغم خفوت صوت المقاومة والكفاح ضد الإنجليز بعد ثورة الهند الكبرى إلا إن جذوة الجهاد لم تمت أبدًا في قلوب المسلمين في الهند، وظل المجاهدون على قلتهم وضعف إمكانياتهم شوكة مؤلمة في جنب الإنجليز، لذلك كان أكثر ما يخشاه الإنجليز هو تنامي تلك الروح الجهادية وسريانها في عامة المسلمين في الهند، لذلك عمدوا لعدة أساليب لإبطال فكرة الجهاد في قلوب المسلمين منها:

١ـ اصطناع بعض علماء السوء الذين يفتون بترك جهاد الإنجليز بحجة عدم التكافؤ بين القوتين وأن طالما المحتل الإنجليزي لا يتدخل في منع الشعائر من صلاة وصيام وغيره فإن البلاد ليست دار حرب وقد صدرت تلك الفتوى من بعض علماء

السوء بالهند سنة ١٨٧٠م، ولم يكتف الإنجليز بذلك بل عضدها بفتاوى مشابهة من بعض علماء مكة الذين لا يدرون صورة الحال الواقعية، وقد تورط في تلك الفتوى المشبوهة جمال بن عبد الله شيخ عمر مفتي الحنفية، والشيخ أحمد بن زيني مفتي الشافعية، والشيخ حسين بن إبراهيم مفتي المالكية، وكان الأولى بالعلماء عدم التسرع في الفتوى حتى يطلعوا على حقيقة الأمور، وكان غرض الإنجليز من تلك الفتاوى إبطال أثر فتوى أخرى قديمة كان علامة الهند ولي الله عبد العزيز الدهلوي قد أصدرها سنة ١٨٠٣م، ونادى فيها بوجوب الجهاد ضد الإنجليز وأن بلاد الهند دار حرب بوجودهم فيها وظل علماء الهند على منوالها حتى ظهور تلك الفتاوى المريبة.

٢ـ تبني الدعوات الضالة والهدامة مثل دعوة القاديانية ودجالها (ميرزا غلام أحمد القادياني) الذي ادعى نزول الوحي عليه وأن الإنجليز هم أولي الأمر الواجب طاعتهم، وكان إبطال شعيرة الجهاد هي أهم مبادئ هذه الفرقة الضالة الكافرة، لقد دعم الإنجليز هذه الفرقة الضالة بقوة وروجوا لمبادئها وعملوا على نشر أفكارها حتى خارج الهند، وما زالت هذه الفرقة الضالة تنخر في جسد الأمة بدعم كبير من أعداء الإسلام.

٣ـ إطلاق الأكاذيب والأباطيل على المجاهدين وبث الشائعات في صفوفهم، ووصف المجاهدين بالوهابية، تمامًا مثلما فعلت الرافضة والصوفية سدنة القبور مع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وذلك لتنفير الناس البسطاء من

المجاهدين وقد أثمرت تلك السياسة الخبيثة في إبطال حركة المجاهد الكبير أحمد عرفان الملقب بالشهيد، فقد أطلق الإنجليز عليه وعلى أتباعه اسم الوهابيين، فانفض كثير من جهلة المسلمين عن نصرته، بل وخانوه في قتاله ضد السيخ حتى خر شهيدًا وكثير من رجاله في القتال سنة ١٨٤٣م.

٤ـ التنكيل بالمجاهدين والتفنن في تعذيبهم ومصادرة أملاكهم وتشريد أسرهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم، فلا تحدث أحدًا نفسه بالجهاد، وكان الإنجليز قد اختاروا مكانًا في خليج البنغال هو جزائر «أندمان» ليكون معتقلاً ومسلخًا للمجاهدين تمامًا مثلما جعلت أمريكا جزر «جوانتانامو» معتقلاً للمجاهدين الآن بدعوى محاربة الإرهاب، فما أشبه السياسات الصليبية وتطابقها مع بعضها البعض على مر العصور.

٥ـ إحياء فكرة القومية المخالفة لعقيدة الولاء والبراء حتى يضيع المسلمون بين الهنود وكان الضابط الإنجليزي (آلن هيوم) هو مؤسس تلك الفكرة والتي تبلورت بعد ذلك في شكل حزب المؤتمر الهندي الذي تأسس سنة ١٣٠٣هـ ـ ١٨٨٥م، والذي راجت مبادئه الظاهرية على كثير من المسلمين حتى انضم إليه من ينتسب إلى العلم وبعض قادة المسلمين.

* دور المدارس الدينية في مقاومة الاحتلال الإنجليزي:

كان أكثر شيء يقض مضاجع المسلمين ويشغل عقولهم بعد فشل ثورتهم الكبرى سنة ١٢٧٤هـ هو تسلط المحتل الصليبي على دينهم، وقد رأوا خطوات هذا التسلط

بدأت بمصادرة الأوقاف وإغلاق المدارس الإسلامية، وفتح مدارس تنصيرية يقودها المنصرون مكانها، فخاف المسلمون من ضياع دينهم كما ضاع سلطانهم، ففكر علماء المسلمين في إنشاء المدارس الإسلامية الشعبية التي لا تعتمد على أوقاف ورواتب نظامية ولكن تعتمد على عامة الشعب المسلم الذي لا يستطيع المحتل الصليبي مهما أوتي من قوة أن يقمعه أو يرده عن دعم هذه المدارس ولو بأقل القليل.

من هذا الأساس كانت مدرسة «دار العلوم» في مدينة «ديوبند» وهي على بعد تسعين ميلاً شمال «دهلي» أول مدرسة إسلامية شعبية في الهند، وقد أسسها الشيخ محمد قاسم نانوتوي قائد جيش العلماء الذي اشترك في القتال ضد الإنجليز في ثورة الهند الكبرى، وقد بدأت هذه المدرسة في مسجد صغير، ما زال قائمًا حتى الآن، وبأستاذ واحد هو (ملاقاري محمود) وبطالب محمود وهو (محمود الحسن) وذلك في المحرم سنة ١٢٨٣هـ.

ومما يدل على بركة الفكرة وإخلاصها أن أول تلاميذها (محمود الحسن) قد أصبح فيما بعد من كبار زعماء الهند، وقاد حركة جهادية قوية ضد الإنجليز، حتى اعتقلوه ونفوه خارج البلاد أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد لقبه سكان البلاد بشيخ الهند، ولما عاد إلى البلاد سنة ١٩٢٠م، خرج سكان البلاد بأسرهم لاستقباله وكان ممن خرج معهم وقتها «غاندي» وكان شابًا صغيرًا وقتها.

ظلت هذه المدرسة تنمو وتترعرع مع الزمان حتى صارت جامعة إسلامية

ضخمة وأكبر مدرسة دينية في وسط آسيا، يؤمها الطلبة من كل مكان، ويطلق عليها اسم أزهر آسيا، وكان الأساس التي قامت عليه مدرسة دار العلوم في ديوبند وزميلاتها أساسًا فكريًا خالصًا يهدف إلى المحافظة على الثقافة والهوية الإسلامية من الطمس والضياع الذي اجتهد الإنجليز بشتى الوسائل وأخبثها لتحقيقه، ونجحت هذه المدارس في تقوية روح الجهاد والعداء للمحتل الإنجليزي، بل لكل ما هو إنجليزي، وإن كان ذلك قد أدى على المدى الطويل لانزواء المسلمين عن أسباب التقدم والرقي، وابتعادهم عن ساحة الأحداث وخاصة الساحة السياسية وتركها خالية للهندوس والسيخ يسدون فراغات الحكم الإسلامي.

وبسبب الأثر الكبير التي تركته تلك المدارس في حياة المسلمين، وتنامي الروح الجهادية والعدائية ضد الإنجليز، أخذ المحتل الصليبي وبدهاء شديد يبحث في أبناء المسلمين عمن يقوم بدور البديل المؤثر لتلك المدارس، حتى وقعوا على (سيد أحمد خان) الذي تبنى فكرة التقارب بين الإنجليز والمسلمين، وأخذ في ترويج الأفكار العلمانية وقد ساعده الإنجليز على بناء جامعة علمية على غرار مدرسة دار العلوم، ولكن في بلدة «عليكره» وهي على بعد ستين ميلاً جنوب شرق دهلي، ولكن هذه المدرسة وصاحبها تعرضوا لانتقادات شديدة من المسلمين، واتهموا صاحبها بالعمالة للإنجليز، وصدرت العديد من الفتاوى تحرّم على المسلمين دخول هذه المدرسة، وخاصة بعد أن أنعمت ملكة إنجلترا فكتوريا بلقب سير على سيد أحمد خان سنة

١٨٦٩م، ومما كشف عوار هذه المدرسة وصاحبها، أن سيد أحمد خان لم يكتف بكونه علمانيًا مواليًا للإنجليز، بل راح يهاجم ثوابت الدين وينكر الجنة والنار والغيب، ويقدح في القرآن ويشتم العلماء والأئمة والفقهاء، فزادت النقمة عليه وعلى مدرسته وأبطل الله عز وجل كيد الإنجليز وعميلهم وباء من أهله وعشيرته بالندامة والخسران.

*** وفي النهاية:**

ظل المسلمون صامدين في وجه الاحتلال الإنجليزي، يقاومون وجوده الصليبي في البلاد ويقاومون أيضًا آثاره الخبيثة والضارة، وأصبح لزامًا على المسلمين أن يحاربوا على عدة جبهات من أجل تحرير بلادهم من الاحتلال الصليبي الغاشم والجاثم منذ عقود طويلة، كان لزامًا عليهم أن يحاربوا الإنجليز ومعهم الهندوس الذين كانوا أشد عداوة لهم من الإنجليز، والذين انتهزوا الفرصة لإخراج مكنون صدورهم وأفرغوا شحنات الغضب والحقد الأعمى على المسلمين، وتاريخ الهند المعاصر والحديث زاخر بالمجازر البشرية المروعة التي قام بها الهندوس بحق المسلمين، خاصة في فترة تقسيم البلاد إلى باكستان والهند.

كان لزامًا على المسلمين أن يقاوموا الغزو الفكري والثقافي لهويتهم وعقيدتهم الإسلامية ويقاوموا تيارات التغريب والقومية والعلمانية التي بثها الإنجليز في بلادهم طولاً وعرضًا.

كان لزامًا عليهم أن يقاوموا الفرق الضالة والمذاهب الهدامة التي ظهرت في البلاد على يد الإنجليز مثل القاديانية والنوربخشتية (فرقة ضالة من فرق الشيعة).

كان لزامًا عليهم أن يتصدوا للعملاء والخونة والمشبوهين والمندسين في صفوفهم والذين تسببوا في الكثير من الهزائم والإخفاقات للإسلام والمسلمين.

كان لزامًا عليهم قبل ذلك كله أن يوحدوا صفوفهم ويقضوا على خلافاتهم الجانبية والشخصية والتي جعلت بعض من ينتسب إلى الإسلام والمسلمين يؤثر محالفة المحتل الصليبي على عون أخيه المسلم، كما حدث من أمراء مملكة حيدر آباد الذين تحالفوا مع الإنجليز ضد السلطان (تيبو) صاحب مملكة ميسور كما أسلفنا الذكر.

وعلى الرغم من كثرة الأعداء وتعدد الجبهات وقلة الإمكانيات ظل المسلمون على جهادهم حتى نالوا مرادهم واستقلوا ببلادهم وأقاموا لهم دولة هي باكستان الكبرى أي أرض الأطهار وذلك سنة ١٩٤٧م بعد زيادة على أربعة قرون من دخول الاحتلال الديني إلى بلادهم.

* * *

المصادر والمراجع

(١) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية.

(٢) تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي.

(٣) أطلس تاريخ الإسلام.

(٤) التاريخ الإسلامي.

(٥) تاريخ المسلمين في الهند.

(٦) كفاح المسلمين في تحرير الهند.

(٧) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام.

(٨) تاريخ آسيا المعاصر.

(٩) المسلمون في الهند.

* * *

مأساة كشمير المسلمة

بعد أن استعرضنا رحلة الكفاح الطويلة والمريرة التي خاضها مسلمو الهند من أجل تحرير بلادهم من نير الاحتلال الإنجليزي الذي لم يخرج إلا بعد أن أبقى نار حرب لا تنطفئ أبدًا، وهي حرب المسلمين الموحدين مع الهندوس الوثنيين عباد البقر، بعد أن تجزأت بلاد الهند الشاسعة لدولتين كبيرتين هما الهند وباكستان، وكانت نقطة الصراع الدائمة والمزمنة بين الجارتين اللدودتين هي بلاد كشمير المسلمة التي سوف نتعرض لمأساتها المعاصرة بشيء من التفصيل لإتمام الفائدة في الكلام عن الحرب الضروس التي تشن على بلاد الإسلام باسم الدين في وقتنا المعاصر.

* كشمير جغرافيًا وتاريخيًا:

تعتبر كشمير من البقاع السحرية في قارة آسيا، حيث تتمتع بموقع جغرافي فريد وفي غاية الأهمية، فلا عجب أن تكون بؤرة صراع ملتهبة ومستمرة لعشرات السنين، تقع كشمير في أقصى شمال غربي شبه القارة الهندية، تحدها باكستان من الجنوب الغربي وجزء من الشمال الغربي، بينما تحدها الهند بحدود طولها ٣٠٠ كيلو متر من الجنوب ومن الغرب، وتقع أفغانستان عند حدود كشمير في الشمال الغربي أيضًا، وتتصل حدودها بما عرف بجمهوريات وسط آسيا الإسلامية، كما تشترك معها تركستان الصينية ناحية الشمال بحدود طويلة، أي أن كشمير تشترك بحدودها مع

أكبر القوى العالمة المعاصرة وقتها الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية والهند وباكستان وأفغانستان وهذه الحساسية الجغرافية الفريدة أدت لاشتعال الحرب بين الهند وباكستان أربع مرات، وصدرت بشأنها عدة قرارات من مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة.

وإقليم كشمير ذو طبيعة جبلية، حيث تمتد سلاسل الجبال الشاهقة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وأهم هذه السلاسل سلسلة جبال «كراكورم» والتي تمثل الحد الفاصل بين كشمير ومناطق تركستان الصينية، وجبال «الهملايا»، وجبال الهندكوش في الشمال الغربي، وجبال «لداخ» و«زسكار» في الجنوب الشرقي، كما يوجد بالإقليم عدة وديان مهمة، مثل وادي كشمير في الشمال، ووادي «جمو» في الجنوب، وبينهما جبال «بانجال» ويعد هذان الواديان تتمة لسهول باكستان.

تبلغ مساحة كشمير الكلية حوالي ٢٢٣ ألف كيلو متر مربع يقسمها خط هدنة تم الاتفاق عليه عام ١٩٧٢م جعل لباكستان مساحة ٣٧٪، وللهند ٦٣٪، وغالبية سكان كشمير من المسلمين وإن كان تعدادهم في تناقص مستمر بسبب المجازر والمذابح المروعة التي يقوم بها الهندوس ضد مسلمي كشمير.

وتعد بلاد كشمير بلاد زراعية بالدرجة الأولى، وتشتهر بزراعة الفواكه والأرز، وتغطي الغابات مساحات كبيرة بالإقليم ويستغلها السكان في تصدير الأخشاب، كما إن كشمير مشهورة بصناعة الحرير، وبالعاصمة سرنجر أكبر معمل في العالم لنسج

الحرير، أما أشهر قبائل كشمير فهي قبائل الشيخ والباتان والمغول وهي قبائل مسلمة، وقبيلة الBانديت، وريشي وهي قبائل هندوسية شديدة التعصب لهندوسيتها.

* كشمير والإسلام:

على الرغم من وصول الإسلام إلى شمالي بلاد الهند منذ القرن الثاني الهجري إلا إن الطبيعة الجبلية لإقليم كشمير جعلته منعزلاً عن الفتوحات الإسلامية، وقد حاول السلطان الكبير محمود بن سبكتكين فتحه فلم يستطع لمناعتها الجبلية، وكانت البلاد تحكم تارة من قبل الهندوس وتارة من قبل البوذيين، وفي القرن الثامن الهجري بدأ الإسلام يطرق أبواب كشمير الحصينة بواسطة الدعاة المخلصين، ومن أشهر هؤلاء داعية اسمه (بلبل شاه مرزا)، وكان أصله من خراسان ودخل كشمير سنة ٧١٥هـ والتحق بخدمة ملكها الوثني (سيه ديو) وأبدى كفاءة عالية في عمله، فلما توفي (سيه ديو) خلفه ولده (رينجن ديو) الذي أسلم على يد (بلبل شاه) وسمى نفسه صدر الدين، وبإسلامه بدأ الناس في كشمير في دخول الإسلام، وأخذ الدين في الانتشار.

في سنة ٧٤٤هـ استقل شاه مرزا بحكم كشمير وأسس أسرة حاكمة عرفت باسم ملوك كشمير المسلمة، ظلت تحكم الإقليم لأكثر من قرنين من الزمان (٧٤٤ـ ٩٩٥هـ) برز خلالها العديد من الملوك الأقوياء والصالحين، من أبرزهم وأفضلهم الملك (إسكندر بن قطب الدين) ومدة حكمه من سنة ٧٩٦هـ ـ ٨١٩هـ، وكان

صالحًا عادلاً شديد الكراهية للبوذية والهندوسية، منع البراهمة من ممارسة شعائرهم وألزمهم الإسلام أو الهجرة أو القتل، وهدم معابدهم كلها في أرجاء مملكته حتى لقبوه بإسكندر بت شكن؛ أي كاسر الأصنام، ومنع بيع الخمور في أيامه حتى صارت أشح من الذهب والجوهر، وقد خافه طاغية العصر تيمورلنك فلم يجرؤ على مهاجمة كشمير على الرغم من أن جيوشه الجرارة قد دمرت شمال الهند كله في أوائل القرن التاسع الهجري، وقد أهدى تيمورلنك إلى إسكندر شاه، فيلين كعربون محبة وصداقة.

أصبحت كشمير تابعة لسلطنة المغول الإسلامية في دهلي سنة ٩٩٥هـ أيام حكم السلطان (أكبر شاه) وأولى سلاطين دهلي كشمير عناية خاصة لموقعها الجغرافي الفريد والحصين وأصبحت «سرينجر» عاصمة كشمير المقر الدائم لنائب السلطان وكبار وزرائه، وشهدت البلاد أفضل أيامها وعمرت الطرق وزاد السكان والصناعات المحلية بها.

ظلت كشمير تابعة لسلطنة دهلي الإسلامية منذ سنة ٩٩٥هـ حتى سنة ١١٦٤هـ عاشتها في رخاء ونعيم، بعيدة عن التطورات الكبيرة التي وقعت داخل بلاد الهند من دخول الاحتلال البرتغالي ثم الفرنسي ثم الإنجليزي، وذلك لمناعتها الجغرافية التي تجعلها بمأمن من الأطماع الصليبية المشهورة، ولكن مع تزايد حركات الانفصال التي حدثت داخل سلطنة دهلي الإسلامية، وإستقلال العديد من أمراء الأقاليم بما تحت

أيديهم، جاء الأفغان ومدوا سيطرتهم إلى كشمير وضموها إلى بلادهم، وذلك لقرابة السبعين سنة، من سنة ١١٦٤هـ حتى سنة ١٢٣٤هـ وهي السنة التي بدأت فيها كشمير تدخل عهد الظلم والاستعباد.

*** كشمير والوثنية:**

ظلت بلاد كشمير تنعم بالأمن والأمان والرفاهية والرخاء في ظل الحكم الإسلامي للإقليم والذي امتد خمسة قرون كاملة (٧٤٤هـ ـ ١٢٣٤هـ) حتى استطاع الإنجليز أن يحكموا قبضتهم على معظم أنحاء الهند، وقد شنوا على أفغانستان حربًا متواصلة من أجل قطع المساعدات الأفغانية لمجاهدي الهند، ومع ضغط الإنجليز على الأفغان اضطر الأفغان للخروج من كشمير، فأعطى الإنجليز حكم كشمير إلى طائفة السيخ الوثنية.

السيخ هي طائفة ضالة وثنية أسسها رجل هندوسي اسمه (جورو) أي المعلم في عهد السلطان المغولي جلال الدين أكبر وبدعم منه، وقد مزج فيها بين الهندوسية والإسلام، وقد منحه السلطان جلال الدين قطعة أرض واسعة بنى عليها مدينة «أمريتسار» وجعلوها مدينة مقدسة عندهم، وقد ادعى (جورو) أنه قد ذهب إلى مكة حاجًا، وقرأ القرآن، وادعى أنه بمكة قد أصبح إلهًا، وكان السيخ من أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين وهم أيضًا يعادون الهندوس لذلك اعتمد عليهم الإنجليز في قمع حركات المقاومة الإسلامية بالهند، وفي عهد زعيم السيخ (رانجيت سنج)

توطدت علاقة السيخ مع الإنجليز، فمنح الإنجليز للسيخ مقاطعة البنجاب الشرقية ليحكمها (راجنيت سنج) وقد اشترك السيخ مع الإنجليز في قتال الأفغان، ومن أجل ذلك سمح الإنجليز للسيخ بضم كشمير إلى البنجاب الشرقية وظل السيخ يحكمون كشمير من سنة ١٢٣٤هـ حتى سنة ١٢٦٢هـ.

كانت فترة حكم السيخ الوثنيين لكشمير فترة حالكة السواد على البلاد، حيث اضطهد السيخ المسلمين اضطهادًا بشعًا وأوقعوا بهم الكثير من المذابح ودمرت المساجد والجوامع والمدارس الإسلامية، ومن بشاعة جرائمهم ضد المسلمين بكشمير قامت العديد من الحركات الإسلامية الكبيرة ضدهم أبرزها حركة الإمام أحمد بن عرفان الملقب بالشهيد سنة ١٢٤٦هـ، وخوفًا من تنامي روح المقاومة الإسلامية عند مسلمي الهند بسبب بشاعة جرائم السيخ في كشمير قرر الإنجليز القضاء على حكمهم في البنجاب وكشمير، وهكذا سلط الله عز وجل الظالمين على الظالمين، وذلك سنة ١٢٦٢هـ ـ ١٨٤٦م.

* كشمير وحكم "مهراجات" الهندوس:

بعد القضاء على حكم السيخ في كشمير كان على الإنجليز البحث عن حليف جديد لهم يحكم بلاد كشمير بالنيابة عنهم ويقوم بنفس الدور الإنجليزي في تكميم الأفواه وقمع المقاومة الإسلامية، وبالفعل قام الإنجليز ببيع كشمير كأنها من جملة أملاكهم، باعوها لأسرة هندوسية هي أسرة (الدوجرا) بمبلغ ٧.٥ مليون روبية،

وذلك لمدة مائة سنة ميلادية (١٨٤٦م-١٩٤٦م).

وبتلك الصفقة باع من لا يملك إلى من لا يستحق بلدًا مسلمًا كبيرًا وشعبًا مسلمًا عريقًا بأكمله، وعانى المسلمون في ظل حكم مهراجات أسرة الدوجرا الهندوسية ضروبًا شنيعة من العسف والجور والظلم، وفرض الجهل والظلام والتخلف على مسلمي كشمير فرضًا، وضرب عليهم الفقر وأحقر الأعمال وصنوف النكال والظلم البين ومنعوا من ممارسة شعائر دينهم ومباشرة أبسط حقوقهم المدنية والاجتماعية، على الرغم من كون المسلمين قرابة ٨٠٪ من شعب كشمير إلا إنهم كانا في فقر مدقع وجهل مطبق وحرمان واسع من المناصب العامة والانضمام للجيش، وكلما حاول مسلمو كشمير الثورة ضد ظلم المهراجا هرع الجيش الإنجليزي لنجدة حليفه الهندوسي وحمايته.

ظل المسلمون في كشمير يعانون من ويلات الحكم الهندوسي حتى أوائل القرن العشري الميلادي، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بدأ المسلمون في الهند بتنظيم صفوفهم وتوحيد جهودهم، تشكلت الأحزاب والهيئات، وبرز العديد من قادة المسلمين في كشمير من أهمهم الشيخ محمد عبد الله الملقب بأسد كشمير والواقع أن هذا الرجل كان من أسباب نكبة مسلمي كشمير، ذلك لأنه كان صاحب هدف خاص ومحدد وهو أن يصبح زعيمًا على كشمير، وحلمه الجامح للرئاسة جعله يغير بوصلة ولاءاته عدة مرات، فالرجل كان صاحب طموحات وهوس بالسلطة جعل

المسلمين في كشمير في نهاية الأمر يلقبونه بالخائن وليس الأسد، كما برز العالم الكبير مير واعظ محمد يوسف شاه مؤسس جمعية (نصرة الإسلام) وكان شديد الكراهية للهندوس وفرقة القاديانية الضالة الحليفة للإنجليز، وبرز أيضًا تشودري غلام مؤسس الحزب الإسلامي.

وفي سنة ١٩٤٢م - ١٣٦٣هـ كان هناك بكشمير حزبان كبيران للمسلمين:

١- حزب المؤتمر الإسلامي برياسة (تشودري غلام) ويعتبر امتدادًا لحزب الرابطة الإسلامية الذي كان ينادي بوطن مستقل للمسلمين بالهند.

٢- حزب المؤتمر الوطني برياسة الشيخ (محمد عبد الله) ويعتبر امتدادًا لحزب المؤتمر الهندي ذي الأغلبة الهندوسية، والذي ينادي بوحدة الهند ولكن تحت الحكم الهندوسي، وقد حاول الزعيم محمد علي جناح التوفيق بين الحزبين ليوحد بين جهود المسلمين ولكن الشيخ محمد عبد الله رفض؛ لأنه كما قلنا كان يخطط لحكم كشمير.

*** كشمير والاحتلال الهندوسي:**

نستطيع أن نقول أن مشكلة الاحتلال الهندوسي لكشمير قد بدأت مع تقسيم شبه القارة الهندية إلى الهند وباكستان، ذلك أن البلاد وقت التقسيم كانت منقسمة إلى قسمين قسم يحكمه الإنجليز مباشرة بأنفسهم، والقسم الآخر عبارة عن ولايات وأقاليم يحكمها أمراء بصورة الحكم الذاتي شبه المستقلين، وعددهم ٢٢ أميرًا بعضهم أمراء مسلمين ولقب الواحد منهم (نواب) والبعض الآخر أمراء هندوس لقب

الواحد منهم (مهراجا)، وبالطبع كان أمير كشمير كما عرفنا من الهندوس.

كان الأساس العام لتقسيم الهند أن الأقاليم ذات الأغلبية الهندوسية تكون ضمن الهند، في حين الأقاليم ذات الأغلبية المسلمة تابعة للباكستان، وبالتالي كان من الطبيعي جدًا أن تكون كشمير ضمن دولة باكستان، ولكن الهندوس كانوا يخططون لابتلاع كشمير، ففي عشية ليلة الاستقلال ٢٧ رمضان ١٣٦٦هـ ـ ١٤ أغسطس ١٩٤٧م، وقع مهراجا كشمير (هاري سنج) الهندوسي اتفاقية مع باكستان من باب المكر والخديعة على أن يبقى الوضع على ما هو عليه، وفي الخفاء أخذ الطاغية الهندوسي في تكوين العصابات الهندوسية والتي قامت بإثارة الشغب ونشر الفوضى والاعتداء على المسلمين مما أدى لاندلاع ثورة عارمة في كشمير.

ومن باب إشعال الأوضاع الداخلية في كشمير وتفريق الصف المسلم قام المهراجا الهندوسي بإخراج الشيخ محمد عبد الله من السجن الذي أودعه فيه وجعله في منصب مدير عمليات الطوارئ في كشمير، وقبل الشيخ محمد المنصب وأعلن وقوفه بجوار المهراجا فأدى ذلك لزيادة الوضع الداخلي توترًا وثورة، وغضب الكشميريون من الشيخ محمد ولقبوه بالخائن، وأدت الاضطرابات الحادثة في الفترة من شوال سنة ١٣٦٦هـ حتى ذي الحجة من نفس السنة لمقتل ٦٢ ألف مسلم على يد العصابات الهندوسية والقوات الخاصة بالمهراجا الهندوسي.

قررت الباكستان التحرك بسرعة لنجدة مسلمي كشمير الذين راح منهم

عشرات الآلاف ضحية الأحقاد الهندوسية، فدفعت بقوات كبيرة قوامها قبائل الباتان القاطنة في منطقة الحدود الشمالية الغربية في أواخر أكتوبر سنة ١٩٤٧هـ - أوائل ذي الحجة سنة ١٣٦٦هـ واستولت هذه القبائل على مساحة الـ٣٧٪ التي تخضع الآن لدولة باكستان، فأسرع المهراجا (هاري سنج) فارًا إلى دهلي (التي أصبح اسمها تحت الحكم الهندوسي دلهي)، وعقد اتفاقية مع الحكومة الهندية في ١٢ ذي الحجة سنة ١٣٦٦هـ - ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٤٧م لضم ولاية كشمير إلى الهند، في تحد واضح وسافر للأسس العامة لتقسيم الهند وباكستان وبصورة تتعارض تمامًا مع رغبات الشعب الكشميري في الانضمام إلى باكستان.

وفي نفس يوم توقع الاتفاقية سارعت القوات الهندية باقتحام الولاية وسيطرت على ٦٧٪ من مساحة كشمير وفرضت عليها الأحكام العرفية وبدأ الاحتلال الهندوسي في ممارسة الإبادة الجماعية بأشنع وأبشع الوسائل بحق مسلمي كشمير، وبدأت المجازر في العاصمة (جمو) عندما أعلن الاحتلال الهندوسي بفتح باب الهجرة إلى باكستان لمن شاء من أهل كشمير وستقدم لراغبي الهجرة المساعدات ووسائل النقل اللازمة لذلك، والهدف تجميع أكبر عدد من المسلمين في مكان واحد، وفي يوم ٢١ ذي الحجة سنة ١٣٦٦هـ، وفي مدينة «جمو» عاصمة كشمير تم ذبح قرابة النصف مليون مسلم واغتصاب الآلاف من بنات ونساء المسلمين على يد الجيش الهندوسي الخبيث في واحدة من أبشع الجرائم الهندوسية بحق مسلمي كشمير والهند عمومًا.

هب المسلمون للدفاع عن أعراضهم وأنفسهم وانطلق المجاهدون من الجزء الخاضع للسيطرة الباكستانية، دارت معارك شرسة بين المسلمين والجيش الهندوسي وصُدم الهندوس من ضراوة المقاومة وبسالتها، مما دفع الهند لطلب التدخل الدولي، وكما هي عادت هيئة الأمم المتحدة حملت المسئولية على المسلمين وعلى باكستان وضغطت على باكستان من أجل سحب المجاهدين من كشمير وذلك في ١٩ صفر سنة ١٣٦٧هـ ـ ٣١ ديسمبر ١٩٤٧م، ورفضت باكستان وأصبحت قضية كشمير دولية ذات أبعاد كثيرة ويشترك في تحديد مصيرها العديد من الأطراف الداخلية والخارجية.

*** سياسة الاحتلال الهندوسي في كشمير:**

عندما احتل الهندوس إقليم كشمير بالقوة العسكرية سنة ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م ظنوا أن مسألة القضاء على مسلمي كشمير لن تأخذ وقتًا طويلاً؛ ذلك لأن الشعب الكشميري كان يرزح قبلها تحت الاحتلال الغاشم والظالم للحاكم الهندوسي المهراجا (من أسرة دوجرا) وذلك طيلة قرن من الزمان، حسب الهندوس أن قوة المسلمين قد انهارت خلالها، فلما احتلوا الإقليم وقاموا بالمجازر المروعة التي ذكرنا طرفًا منها، كان رد فعل مسلمي كشمير عكس ما يتوقعه الهندوس، فقد هب الشعب الكشميري يدافع عن دينه وأرضه وعرضه، وقام المجاهدون ببطولات رائعة وأعمال خارقة وحربًا شاملة، فأوقفت الهند الحرب ودوَّلت القضية، وانتزعت من هيئة التآمر

المتحدة قرارًا بوقف الحرب وإبقاء الوضع داخل كشمير على ما هو عليه، أي تكريس الاحتلال الهندوسي لكشمير.

كان قرار الأمم المتحدة يقضي بإجراء استفتاء محايد تحت إشرافها لتقرير المصير وكان ذلك سيؤدي حتمًا لانضمام كشمير للباكستان؛ لأن أغلبية الشعب سيؤيد الانضمام فأخذت الهند تتلكأ في تنفيذ القرار الدولي وتواصل جرائمها البشعة بحق مسلمي كشمير من أجل إرهابهم وأيضًا تقليل كثافتهم السكانية في كشمير بالقتل أو بالهجرة إلى باكستان، ومارس رئيس الوزراء الهندوسي المتعصب (جواهر لال نهرو) دجلاً سياسيًا وخداعًا متواصلاً من أجل التحايل على تنفيذ القرارات الدولية.

ومع اشتداد الضغط الهندي على مسلمي كشمير وارتكاب الهندوس لأبشع الجرائم والمذابح المروعة انتفض مسلمو كشمير مرة بعد مرة، وفي كل مرة كان الهندوس يقمعون المقاومة الإسلامية في كشمير بكل قوة، والمجاهدون يقومون بتوجيه ضربات موجعة للاحتلال الهندوسي، وظل الأمر على ذلك المنوال عدة سنوات حتى سنة ١٩٦٥م وفيها حقق المجاهدون الكشميرون انتصارات عديدة على المحتل الهندوسي وكادت البلاد أن تتحرر فطار صواب الهندوس وشنت الهند حربًا شاملة وواسعة النطاق ضد كشمير وباكستان التي كانت تتهمها الهند بمساعدة المجاهدين الكشميريين، وكانت حربًا ضخمة ولكنها قصيرة لم تستمر سوى أسبوعين ذلك أن الهند قد شعرت بأنها مقبلة على هزيمة فاضحة، فلجأت الهند

كعادتها إلى الأمم المتحدة لإنقاذ سمعتها، وعرض الاتحاد السوفيتي الوساطة وتم عقد مؤتمر طاشقند في رمضان سنة ١٣٨٥هـ ـ يناير ١٩٦٦م وكانت مقررات المؤتمر في غير صالح باكستان وكشمير، وخسرت المقاومة الإسلامية مكتسباتها في الحرب على طاولة المفاوضات المشئومة.

بعد حرب ١٩٦٥م أخذ الهندوس في تطوير محاربتهم لمسلمي كشمير، وانتقل القتال من الميادين المفتوحة إلى العقول والنفوس والأفكار، واستفاد الهندوس من التجربة الإسبانية والروسية في إبادة ومحو الوجود الإسلامي، قرر الاحتلال الهندوسي القيام بعدة خطوات في ذلك المضمار، منها على سبيل المثال:

١ـ تغيير مناهج التعليم في كشمير وفرض الثقافة والتراث الهندوسي الوثني وجعله مختلطًا وإدخال مناهج وثقافة الانحلال والفجور في المدارس مثل تعليم الرقص والغناء.

٢ـ منع تدريس اللغة العربية والتاريخ الإسلامي تمامًا لقطع الصلة مع الأمة الإسلامية.

٣ـ بث فكر القومية الهندية مع إثارة الخلافات القبلية والإقليمية والمذهبية.

٤ـ تحديد النسل بين المسلمين بأحط وأحقر الوسائل لوقف زيادة عدد المسلمين.

٥ـ فتح بيوت الدعارة بصورة رسمية وتوزيع الخمور مجانًا على المحال وأماكن العمل لنشر الانحلال والفساد الأخلاقي بين المسلمين.

٦ـ اتباع سياسة تجنيد العملاء والجواسيس وبثهم في صفوف المسلمين والمقاومة وتكوين قيادة كشميرية مسلمة موالية وعميلة للاحتلال الهندوسي.

هذه الخطوات كلها تسير بالتوازي مع المجازر والمذابح اليومية بحق مسلمي كشمير.

على الرغم من خبث وبشاعة الأساليب الهندوسية الوثنية ضد مسلمي كشمير وعلى الرغم من محاولاتهم المضنية والدائمة لمحو الوجود الإسلامي في كشمير وتغيير تركيبة البلد السكانية بشتى الوسائل إلا إن المقاومة الإسلامية أثبتت صدق وحقيقة المعدن الإسلامي النقي القوي التقي، وقامت الحركة الإسلامية بعدة خطوات مضادة للكيد الفكري الهندوسي بمسلم كشمير ومنها:

١ـ تأسيس قرى إسلامية نموذجية خالية من موبقات ومفاسد الهندوس.

٢ـ توحيد جهود المسلمين وتوعيتهم بمخاطر الغزو الفكر الهندوسي، وبالفعل تم تأسيس الجبهة الإسلامية التي ضمت أكثر من عشرة أحزاب سياسية وجمعيات دينية.

٣ـ التوسع في بناء المدارس الإسلامية الأهلية التي يشرف عليها المسلمون وحدهم بعيدًا عن السيطرة الهندوسية.

٤ـ نشر مفهوم وحدة المسلمين وحتمية الانضمام إلى باكستان المسلمة.

وقد آتت تلك الخطوات أكلها وأثمرت جيلاً جديدًا من مسلمي كشمير على

وعي تام بمخططات العدو الهندوسي، جيد التنظيم، قوي العزم والهمة على تحرير كشمير والتضحية بكل عزيز من أجل ذلك الهدف الأسمى.

*** كشمير والانتفاضة الأخيرة:**

وقعت عدة أحداث هامة في المنطقة أدت لاندلاع الانتفاضة العارمة في كشمير، أبرزها النصر الكبير الذي حققه المجاهدون الأفغان على الآلة العسكرية الروسية والتي تعد الأضخم في العالم وقتها، ثم اتحاد قوى حركات المقاومة الكشميرية في إطار واحد باسم «الاتحاد الإسلامي لمجاهدي كشمير» ثم اتحاد قوى العمل السياسي في إطار واحد باسم «حركة تحرير كشمير».

وفي أوائل سنة ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م بدأت الانتفاضة الكشميرية الباسلة واستهدفت مقار الجيش الهندوسي وأوكار الفحش والخنا، فرد الهندوس بوحشية مفرطة وقتل وشرَّد وجرح عشرات الآلاف من مسلمي كشمير، واعتقل مثلهم، وفصل من الوظائف الحكومية كل من يثبت عليه أدنى شبهة في مساندة المقاومة ولو بالقول لا الفعل كما قام الهندوس بتدمير البنية التحتية من مدارس ومشافي ومحال وشبكات طرق ومساجد وذلك في العديد من مدن الإقليم، وذلك كله تحت سمع وبصر العالم المعاصر الذي وقف موقف المتفرج الصامت الذي يرقص قلبه فرحًا وسرورًا بما يحدث للمسلمين، أما العالم الإسلامي فاكتفى كعادته الذميمة بالشجب والإدانة والدعوة إلى ضبط النفس والهدوء، في حين لم تجرؤ دولة مسلمة واحدة على

طرد السفير الهندي من بلادها وهو جهد المقل الذي لم تقم به أي دولة مسلمة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

في سنة ١٩٩٩م ـ ١٤٢٠هـ تسللت مجموعات من مجاهدي كشمير من الشق الباكستاني في كمشير إلى الشق الهندي وسيطرت هذه المجموعات على قمم الجبال بعد أن أنزلت بالجيش الهندوسي هزيمة ساحقة، ولم يستطع الهندوس زحزحة المجاهدين عن مواقعهم لعدة شهور وتكبد الهندوس خسائر ضخمة دفعتهم لطلب النجدة من الولايات المتحدة الأمريكية التي ضغطت بقوة على القيادة الباكستانية من أجل إقناع المجاهدين بالانسحاب من مواقعهم، وكاد الأمر يتحول إلى حرب شاملة بين باكستان والهند.

وفي سنة ٢٠٠٨م ـ ١٤٢٩هـ قامت مجموعة من الفدائيين بتنفيذ عمليات مؤثرة في مدينة مومباي الهندية التي تعتبر العاصمة المالية والتجارية مما أدى لاشتعال التوتر في المنطقة، وها هي الهند تدق طبول الحرب مرة أخرى مع باكستان بسبب كشمير، وما زالت محنة مسلمي كشمير قائمة حتى الآن، ولكن عزم مسلمي كشمير لم يلن ولم يهن، وما زالت ملحمة المقاومة الإسلامية على أرض كشمير على أوجها حتى يقضي الله عز وجل أمرًا كان مفعولاً.

المصادر والمراجع

(١) مأساة كشمير المسلمة.

(٢) كشمير ميراث متنازع عليه.

(٣) قضية كشمير المسلمة.

(٤) التاريخ الإسلامي.

(٥) تاريخ آسيا الحديث والمعاصر.

* * *

الفصل الثامن
الاحتلال الإسباني لجزر الفليبين

* **الفليبين والإسلام:**

تقع جزر الفليبين في منطقة جنوب شرقي آسيا على شكل أرخبيل يضم زيادة على سبعة آلاف جزيرة، تتفاوت هذه الجزر في مساحتها تفاوتًا كبيرًا، ومعظم هذه الجزر غير مأهول بالسكان، وتعتبر جزر الفليبين جزءًا من أرخبيل الملايو الذي يضم إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة، وهي الدول العامرة بالخيرات والثروات الطبيعية والتي جلبت عليها الكثير من المتاعب وأطماع الدول الأوروبية.

بدأ الإسلام يطرق أبواب جزر الفليبين في أواسط القرن الثالث الهجري عن طريق التجار الذين كانوا يجوبون البلاد، ويطوفون أنحاء المعمورة ليس للتجارة وحدها ولكن للدعوة أيضًا؛ فالتاجر المسلم قديمًا كان خير داعية للإسلام بحسن تعامله مع الناس وعدله وأمانته وسمته وهديه، ومع دخول القرن الخامس ظهر الأثر الإسلامي في الجزر، حيث استوطن كثير من المسلمين شبه جزيرة الملايو وسومطرة وجاوة وأرخبيل الفليبين.

ومع سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م حدث تحول كبير في تاريخ الوجود الإسلامي في المنطقة بأسرها؛ إذ هاجر كثير من الفقهاء والمشايخ والأسر المسلمة إلى تلك الجزر، وحصل نشاط كبير للدعوة الإسلامية في الفليبين، أدى لقيام

العديد من الممالك والإمارات الإسلامية، على الرغم من أن غالبية السكان ما زالوا على الوثنية، ولكن المسلمين كانوا هم الفئة الحاكمة لرقيهم في شتى المجالات، ومن هذه الممالك والإمارات مملكة «صولو» الإسلامية والتي كانت تشرف على أكثر إمارات وممالك الجنوب، ومملكة «أمان الله» التي أصبحت بعد ذلك «مانيلا» وتشرف على إمارات وممالك الشمال، وعلى رأس كل مملكة أو إمارة صغيرة حاكم يُدعى (داتو) ويندمج بعضها مع بعض في كيانات أكبر يحكمها (راجا)، وكان أشهر الراجات راجا مانيلا، وراجا صولو.

وبالجملة فإن الإسلام قد وصل جزر الفلبين وانتشر وحكم وساد وأقام الممالك الكبيرة والقوية وذلك كله دون أن يشهر سيف واحد أو تراق نقطة دم واحدة من المسلمين أو من أهل البلاد، مما يوضح مدى عظمة هذا الدين وتأثيره، ويوضح أيضًا الدور الكبير والرائع الذي حققه التجار والدعاة في نشر رسالة الإسلام حتى أقصى بلاد الأرض.

*** البرتغال وجنوب شرق آسيا:**

يعتبر البرتغاليون أول أباطرة الاحتلال الصليبي وصولاً لمنطقة جنوب شرق آسيا، وذلك خلال حركة الكشوف البحرية التي قاموا بها بدوافع صليبية محضة، ولكنها مغلفة بأطماع وطموحات اقتصادية، فالبرتغاليون هم أول الأوروبيين وصولاً إلى بلاد الهند والجزر الإندونيسية، وأرخبيل الملايو، وذلك في أوائل القرن العاشر الهجري وبعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بالدوران حول أفريقيا.

كان البرتغاليون يستهدفون من وصولهم إلى هذه الجزر أمرين: أولهما وأهمهما

ديني وهو القضاء على الإسلام ونشر النصرانية، وثانيهما اقتصادي وهو السيطرة على تجارة المشرق وحرمان المماليك وأعوانهم من المدن التجارية الإيطالية من مصادر هذا الثراء العظيم، أي أن البرتغاليين كانوا قطاع طرق شديدي التعصب والحقد.

أدرك مسلمو الفليبين لأول وهلة مدى خطورة وتعصب البرتغاليين، وكان أكبر سلاطين المنطقة آنذاك السلطان محمود شرف الدين حاكم «ملقا» في شبه جزيرة الملايو، فقدر ببعد نظره أن يخلي عاصمة حكمه ويستدرج البرتغاليين للداخل حيث التجمعات السكانية الكثيفة للمسلمين، وبدأ في تأسيس سلطنة جديدة تزعمت لواء مقاومة العدوان البرتغالي على بلاده، وذهب أحد أبناء السلطان محمود واسمه (محمد كابونسوان) وأسس سلطنة جديدة أخرى في «ملابانك»، وعجز البرتغاليون رغم تفوقهم العسكري عن زحزحة المسلمين عن مناطق نفوذهم وممالكهم حتى ظهر في الأفق عدو طارئ جديد هم الإسبان.

* ماجلان الصليبي ولابولابو المسلم:

كما كان فاسكو دي جاما أشهر بحارة البرتغال ومكتشف طريق رأس الرجاء الصالح، كان فرناندو ماجلان أشهر بحارة إسبانيا، ونظرًا للتنافس الكبير بين إسبانيا والبرتغال قررت الأولى إرسال حملة بحرية تدول حول أفريقيا لتكتشف طريقًا جديدًا للتجارة يصلون خلاله مباشرة إلى مناجم الثروات الطبيعية في جنوب شرق آسيا دون المرور على المراكز البرتغالية التي تتحكم في حركة التجارة العالمية وقتها.

خرج (ماجلان) بحملة بحرية مكونة من خمس سفن وطاقم مكون من ٢٦٥

بحارًا، لاكتشاف الطريق الجديد وذلك في أواخر سنة ٩٢٥هـ فظل في رحلته البحرية طيلة عشرين شهرًا في غير فائدة حتى استبد اليأس بقلبه، وأخيرًا رست سفن ماجلان على سواحل الجزر الفليبينية، وقد ظن ماجلان أنه وصل جزر المولوك المشهورة بالتوابل ولكن سرعان ما اكتشف الحقيقة، فأطلق على الجزيرة التي رست سفنه عندها اسم «سانت لازار» وكان من حسن حظ الإسبان أنه قد نزل في منطقة الممالك الوثنية، فاتفق ماجلان مع حاكم جزيرة «سيبو» ويُدعى (هومابون) وكان وثنيًا على أن يدخل النصرانية مقابل أن يكون ملكًا على جميع الجزر تحت اسم ملك إسبانيا، وفي المقابل يعمل ماجلان بجنوده وأسلحته النارية على توسيع ملك (هومابون) وتمكينه من السيطرة على سائر الجزر.

انتقل ماجلان من جزيرة «سيبو» إلى جزيرة أخرى بجوارها وهي جزيرة «ماكتنان» وكان عليها سلطان مسلم يُدعى (لابولابو)، فلما علم الإسبان بإسلام أهل الجزيرة أصابهم الغضب الشديد وثارت أحقادهم، فأضرموا النار في بيوت السكان وسرقوا مؤنهم، ورفض لابولابو العرض الذي قدمه له ماجلان مثلما فعل مع (هومابون)، فحشد ماجلان قواته وقرر تأديب لابولابو حتى يكون عبرة لغيره من الأمراء والسلاطين، فيخضعوا لسلطان ملك إسبانيا الصليبي.

طلب ماجلان الصليبي من لابولابو المسلم التسليم والخضوع بكل صلف وعنجهية واستعلاء صليبي مقيت ووقف يخطب في أهل الجزيرة قائلاً: «إنني باسم المسيح أطلب منكم التسليم، ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم

بحكم هذه البلاد»، فأجاب السلطان المسلم الحكيم (لابو لابو) بكل عزة وشموخ: «إن الدين لله وإن الإله الذي أعبده هو إله جميع البشر على اختلاف ألوانهم»، ثم اشتبك المسلمون الفليبينيون مع الإسبان، وقتل لابو لابو ماجلان بيده، وشتت شمل فرقته، وأنزل بهم هزيمة منكرة، ورفض تسليم جثة ماجلان للإسبان، ودفنه في أرض الجزيرة كرمز على نصر المسلمين على الصليبيين، وبعد الهزيمة انسحب الإسبان إلى بلادهم.

أرسل الإسبان أربع حملات دينية متتابعة ليشفوا غليلهم وينتقموا من مصابهم ومن سوء طالعهم أن هذه الحملات رست على شواطئ جزيرة «ميندناو» في الجنوب حيث أغلبية السكان من المسلمين، ففتك المسلمون بتلك الحملات كلها وذلك خلال الفترة من ٩٣٠هـ حتى سنة ٩٥٠هـ وكان (روي لوبيز) قائد الحملة الرابعة وهو الذي أطلق على تلك الجزر اسم (الفليبين) على اسم ملك إسبانيا (فليب الثاني) وخلال الحملات الإسبانية الفاشلة كوّن الإسبان رؤية مستقبلية في التعامل مع صلابة المقاومة الإسلامية في الفليبين.

*** الاحتلال الإسباني لجزر الفليبين:**

بدأ الاحتلال الإسباني الحقيقي للفليبين سنة ٩٧٣هـ أي بعد قرابة الخمسين عامًا من وصول ماجلان لشواطئها، فلقد وصلت حملة إسبانية ضخمة بقيادة (ميجل لوبيز) إلى سواحل الفليبين سنة ٩٧٣هـ فرست عند جزيرة «سيبو» وقام الإسبان ببناء قلعة حصينة، جعلوها مقرًا لإقامة الجند ونقطة انطلاق للإغارة على باقي الجزر

وبعد قتال عنيف ومرير استولى الإسبان على مملكة «راجا سليمان» في الشمال، ودمر عاصمتها «أمان الله» وأقاموا مكانها مدينة جديدة أسموها «مانيلا»، ولكن مع ذلك التوسع والنصر على المملكة الإسلامية في الشمال ظل الإسبان في حالة فزع وخوف من انقضاض السكان عليهم لضراوة المقاومة الإسلامية هناك، لذلك عمدوا إلى بناء مدينة صغيرة داخل مدينة مانيلا، ولكن شديدة التحصين أطلقوا عليها اسم «انترامورس» أي المدينة المسَّورة ضد المسلمين، وجعلوها مقرًا لحكومة الاحتلال، وسبحان الله ما أشبه الليلة بالبارحة، فهذا الفكر المذعور هو نفسه الذي دفع الأمريكان عند احتلال العراق لبناء المنطقة الخضراء داخل بغداد لتكون مقرًا لحكومة الاحتلال أيضًا.

وانطلاقًا من مدينة «مانيلا» استولى الإسبان على الجزر الشمالية لقلة عدد المسلمين بها وغلبة الوثنيين، في حين عجزوا تمامًا عن السيطرة على الجزر الجنوبية التي يحكمها المسلمون، وعلى الرغم من المحاولات المستميتة للإسبان لاحتلال مناطق المسلمين إلا إنهم فشلوا في النهاية، فقرروا التركيز على ما تحت أيديهم، فأجبروا السكان على التنصر والتحول إلى الكاثوليكية، وامتزج الإسبان مع السكان الأصليين للجزر المعروفين بالأنديو، فنشأ عنصر خليط من ذلك التمازج هو عنصر «المستيزو» وهو الذي سيشكل رأس الحربة الصليبية ضد مسلمي الفليبين لعهود طويلة وحتى وقتنا الحاضر.

*** السياسة الإسبانية في محاربة مسلمي الفليبين:**

كانت مقاومة المسلمين في الفليبين عنيفة وحامية بدرجة أذهلت الإسبان وأدخلت اليأس في قلوبهم من احتلال الجزر الجنوبية حيث ممالك المسلمين، فلجأ الإسبان إلى سياسية دينية صرفة في تدمير قوى المسلمين هناك بشتى الوسائل والإجراءات منها:

١ـ فرض حصار اقتصادي شديد على الممالك الإسلامية في جزر الفليبين لحرمان المسلمين من أهم مصادر حياتهم اليومية وهي التجارة، وذلك باستخدام أسلوب القرصنة الذي يجيده الإسبان، وقد اتفقوا مع الهولنديين الذين كانوا يفعلون نفس الشيء مع مسلمي إندونيسيا، ومع الإنجليز الذين كانوا يفعلون نفس الشيء مع مسلمي الملايو.

٢ـ العمل على تفريق الصف المسلم ببث الشائعات والأكاذيب وإثارة العرقيات والأحقاد وهو أسلوب صليبي معروف وما زال يتبع حتى الآن، فما أن يطأ الاحتلال الغاشم أي بلد مسلم حتى يفتش عن العداوات القديمة والأحقاد الدفينة، فيثيرها ويؤججها من جديد، ويثير العرقيات والقوميات وهكذا، فعمل الإسبان على عزل الممالك الإسلامية عن بعضها البعض، وقطع خطوط الاتصال بين مسلمي الفليبين وإندونيسيا والملايو، وذلك كله لينفردوا بكل مملكة على حدة فيسهل محاربتها.

٣ـ إيفاد الإرساليات التنصيرية إلى جزر الفليبين لنشر النصرانية في صفوف الوثنيين والإغداق عليهم بالأموال والمنح واستخدامهم في محاربة المسلمين فيما بعد.

٤ـ الإغارة المستمرة على التجمعات الإسلامية والتخريب المتعمد لكل مصادر الحياة في هذه التجمعات من إحراق البيوت وإتلاف المحاصيل وتدمير السفن والموانئ، وإتباع سياسة الأرض المحروقة لإجبار المسلمين على الهجرة وترك ديارهم.

*** ملحمة حروب المورو ـ المقاومة الإسلامية ضد الاحتلال الإسباني:**

المورو هو الاسم الذي يطلق على المسلمين في الفليبين وتايلاند وسيلان ومدغشقر وسائر البقاع التي دخلها الاحتلال الإسباني والبرتغالي لمنطقة جنوب شرق آسيا، وأصل التسمية مأخوذ من لفظة إسبانية معناها صاحب الوجه الأسمر أو الكالح، وكان الإسبان يطلقونها على مسلمي الأندلس والمغرب، فلما فرغوا من إنهاء الوجود الإسلامي في بلاد الأندلس في أواخر القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي، وداروا دورتهم الشهيرة حول القارة الأفريقية، ورست أساطيلهم على جزر أرخبيل الملايو، ظنوا أن البلاد خالية أمامهم، فلما رأوا المسلمين بها صعقوا بشدة وقالوا الموروس هنا، ومن يومها أطلق على مسلمي تلك الجزر اسم المورو.

ونحن لا نحبذ إطلاق هذا الاسم على مسلمي الفليبين وغيرهم لما يحويه من دلالات عنصرية وصليبية مقيتة، وأيضًا فيها طمس لحقيقة مسلمي الفليبين حتى ظن البعض أن المورو يعني بها قومية أو عرقية محددة في الفليبين، والأمر غير ذلك تمامًا؛ لذلك فإننا سوف نسمي الأمور باسمها الحقيق ونقول المقاومة الإسلامية الفليبينية ضد الاحتلال الديني الإسباني.

عند احتلال الإسبان للجزر الشمالية للفليبين كان للمسلمين عدة ممالك قوية في

الجنوب أهمها سلطنة «ديبتروان»، وسلطنة «صولو»، وسلطنة «ماجنيدنا»، وسلطنة «بويان»، وتلك الممالك هي التي قادت الجهاد الإسلامي ضد الاحتلال الديني الإسباني وبرز العديد من قادة الجهاد الإسلامي مثل البطل المقدام (ديبتروان قدرات) الذي دوخ الإسبان وقهرهم في معارك كثيرة، ومنهم السلطان نصر الدين سلطان المسلمين في جزيرة صولو، والذي قاد الجهاد الإسلامي من داخل الغابات، وأصبح أسطورة البلاد والشبح الذي بث الرعب في نفوس الإسبان لفترات طويلة.

استمرت المقاومة الإسلامية في الفليبين ضد الاحتلال الإسباني طيلة فترة وجود ذلك الاحتلال أي لزيادة على ثلاثة قرون، أخذت خلالها المقاومة الإسلامية هناك شكل الملحمة التاريخية الرائعة ومرت بست مراحل لا تكاد تنتهي الحروب من واحدة حتى تبدأ الثانية، وذلك في التواريخ الآتية:

١ـ الحروب الأولى من سنة ١٥٦٥م حتى ١٥٧٨م.

٢ـ الحروب الثانية من سنة ١٥٨٧م حتى ١٥٩٩م.

٣ـ الحروب الثالثة من سنة ١٦٠٦م حتى ١٦٣٥م.

٤ـ الحروب الرابعة من سنة ١٦٣٧م حتى ١٦٤٥م.

٥ـ الحروب الخامسة من سنة ١٨١٨م حتى ١٨٥٠م.

٦ـ الحروب السادسة من سنة ١٨٥١م حتى ١٨٩٨م.

وخلال تلك الحروب كلها استخدم الإسبان كل أنواع الأسلحة المادية والمعنوية، وأظهروا صليبية مقيتة وصبغوها بصفة دينية كاملة، وتعاون معهم في

بعض مراحلها الهولنديون على الرغم من العداوة التاريخية الشديدة بين الإسبان والهولنديين، ولكنه نداء الدين ووحدة الصليب الذي جعلهم يتناسون أحقادهم ويتحالفون ضد المسلمين.

وقد أبدى المسلمون في الفليبين مقاومة باسلة ورائعة صارت مضرب الأمثال في جنوب شرق آسيا كله، فلقد حارب المسلمون من بيت إلى بيت، فلما أحرقوا منازلهم انتقلوا إلى الغابات، فلما أحرقوا الغابات عادوا يبنون بيوتًا جديدة من الأغصان وظلوا يقاتلون بمنتهى الشراسة على الرغم من وحشية الاحتلال الإسباني مع مواجهة المقاومة، حتى أنهم أجبروا الحاكم العام الإسباني في الفليبين على الفرار إلى هونج كونج سنة ١٨٩٥م وهو ما جعل الإسبان يفكرون جديًا في كيفية الخروج من المأزق الفليبيني المرعب ولكن بصورة تحفظ لهم كرامتهم التي تمرمغت في الوحل على يد المقاومة الإسلامية هناك.

* المؤامرة الأمريكية الإسبانية:

شعر الإسبان بعجزهم الكبير عن مواجهة المقاومة الإسلامية في الفليبين، وبحثوا عن مخرج لأزمتهم تلك وأخيرًا قرروا الاتفاق مع الولايات المتحدة الأمريكية وكانت وقتها قوة جديدة وناشئة على بيع جزر الفليبين وكوبا وبورتوريكو وهي المستعمرات الإسبانية بمبلغ خمسة ملايين دولار، وذلك بعد عدة معارك استعراضية بين الإسبان والأمريكان سنة ١٣١٦هـ ليظهر الأمريكان بصورة المنقذ والمحرر لجزر الفليبين من الاحتلال الإسباني، وبالفعل انطلت الخدعة على سكان

البلاد ورحبوا بالأمريكان وساعدوهم بقوة ضد الإسبان، وأعلنت إسبانيا على لسان الحاكم العام للفليبين الجنرال (جوينالدو) استقلال الفليبين عن إسبانيا وذلك سنة ١٣١٦هـ وفرح السكان بشدة لذلك.

ولكن سرعان ما اكتشف أهل البلاد الخديعة إذ أعلن الإسبان انسحابهم من الجزر والأمريكان ما زالوا على أراضيها، فطلب المسلمون في الفليبين من الأمريكان المغادرة فرفضوا بشدة وأعلنوا ضم الفليبين للولايات المتحدة الأمريكية، فثار المسلمون لذلك وحملوا سلاحهم مرة أخرى ضد الأمريكان الذين ساروا على نفس الخط الإسباني في محاربة الممالك الإسلامية وعزل مناطق المسلمين وفرض سياج من الجهل والتخلف والفقر على أبناء الإسلام هناك، في حين تم تقريب نصارى البلاد واحتضانهم ورفع مستوى المعيشة لأبنائهم وذلك للهدف البعيد وهو تسليم البلاد لتلك الطبقة النصرانية الموالية للاحتلال الأجنبي.

استمر الاحتلال الأمريكي الصليبي للفليبين قرابة النصف قرن استطاع خلالها أن يحقق ما عجز عنه الإسبان في ثلاثة قرون باستخدام الخديعة والمكر والخداع، فالأمريكان هم ورثة الإنجليز في الأساليب الاستعمارية، والإنجليز كما هو معروف تاريخيًا هم أساتذة المكر والخداع، فلقد ابتلعت السياسة الأمريكية في الفليبين الممالك الإسلامية العريقة مثل مملكة صولو ومملكة ماجنيدنا ومملكة بويان، وذلك بعد أن ثبت الفرقة وأذكت الخلافات بين الممالك باتباع السياسة الإنجليزية الشهيرة (فرق تسد)، فضاع التماسك الإسلامي الذي وقف بكل صمود وتحدي للإسبان لعدة

قرون، كما وضعت أمريكا نظامًا لحيازة الأراضي كان من نتيجته فقدان المسلمين لمعظم أراضيهم لصالح نصارى الفليبين، كما عمل الأمريكان على فتح باب الهجرة لليهود والصهاينة إلى البلاد وأفسحوا لهم المجال للتسلل إلى الساحة السياسية في البلاد تمهيدًا لمرحلة ما بعد الاستقلال.

□ كفاح المسلمين ضد أذناب الاحتلال:

حصلت الفليبين على استقلالها الظاهري من الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٤٦م ـ ١٣٦٥هـ بعد أن سلمت أمريكا الحكم لحلفائهم النصارى وتأكدت من ولائهم التام للسياسة الأمريكية، وأيضًا تركت لهم مهمة محاربة الوجود الإسلامي في البلاد، وبالفعل بدأت الحكومة الصليبية في الفليبين تمارس سياسة البطش والإرهاب ضد مسلمي البلاد بصورة منهجية كما يلي:

١ـ تشجيع النصارى على الاستيطان في مناطق المسلمين وتمليكهم لأراضيهم، مع حرمان المسلمين من المشاركة في المشاريع الهامة والحيوية في البلاد.

٢ـ إغراق المناطق الإسلامية بأعداد ضخمة من قوات الأمن لمراقبة تحركات المسلمين وقمع أي ثورة يقوموا بها ضد مظالم الحكومة الصليبية.

٣ـ دفع المسلمين لترك أراضيهم الزراعية ومصايد الأسماك، وإرغامهم على اللجوء إلى الغابات والأحراش وشعب الجبال ليمتهنوا أشق الأعمال وأحقرها.

٤ـ تشكيل العصابات الإجرامية والمنظمات الإرهابية التي تعمل على إنهاء الوجود الإسلامي في الفليبين وإجبار المسلمين على التنصر أو القتل. ولقد تشكلت

عدة عصابات إرهابية كبيرة مثل منظمة «إيلاجا» وقد أشرف عليها الرئيس الفليبيني الهالك ماركوس، وهي مزودة بأحدث الأسلحة ويبلغ عدد أفرادها مائة ألف مجرم وقاتل مأجور، وعصابة الفئران وكانت تهدف لإحراق المزارع وتدمير الأملاك، وعصابة الأخطبوط وتهدف لتصفية قادة المسلمين واغتيال الشباب والعلماء والشيوخ، ولقد قامت تلك التشكيلات الإرهابية والإجرامية بمجازر مروعة بحق المسلمين يندى لها جبين كل حر في العالم المعاصر

٥ـ معارضة كل اتجاه نحو فتح مدارس إسلامية أو إقامة شعائر الإسلام مع تبني عمليات التنصير المنظمة داخل مناطق المسلمين وخاصة الفقيرة منها تحت شعار الفلبيني الصالح هو الفلبيني النصراني.

٦ـ استدراج المسلمين لصدامات مفتعلة لخلق الذرائع اللازمة للقضاء عليهم وجر المسلمين لمعركة هم غير مستعدين لها، وكانت الخطة الصليبية تقضي بأن يتم الاستيلاء على أراضي المسلمين في البداية لجرهم إلى القتال وهم غير مستعدين على حين تهيأ النصارى للقتال واستعدوا، وبالفعل تم زحف النصارى من الشمال إلى الجنوب حيث مناطق المسلمين وذلك سنة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧٠م، وبدأت عمليات الشغب وحرق المزارع وإلقاء السموم في الآباء وقتل الحيوانات، كما قامت حوادث الخطف والاغتيال وأدى ذلك القتال لتشريد أكثر من ستين ألف أسرة مسلمة في الجبال والغابات.

على الرغم من ضخامة وكثافة الهجوم الصليبي على مسلمي الفليبين إلا أن

مسلمي الفليبين الذين جاهدوا الاحتلال الإسباني ثم الأمريكي لقرون زادوا استمساكًا بدينهم وإصرارًا على حقوقهم، وتكونت في بداية الأمر منظمة إسلامية لقيادة الكفاح الإسلامي ضد العدوان الصليبي وهي جبهة اتحاد الهيئات الإسلامية وتعرف اختصارًا (بانسا) بزعامة الدكتور أحمد ألونتو ثم تكون الذراع العسكري لتلك الجبهة باسم «الجبهة الوطنية لتحرير مورو» بزعامة نورميسوري وسلامات هاشم رحمه الله.

تحصن المسلمون بأعداد كبيرة في بلدة «بابا لومان» وطالبوا بفصل المناطق الإسلامية في جزر ميناداناو وصولو وبالاوان، وتدخلت منظمة المؤتمر الإسلامي، ولكن أصر نصارى الفليبين وزعيمهم ماركوس على مواصلة قمع المسلمين، وظل القتال بين الطرفين عدة سنوات أبدى فيه المسلمون ضراوة في القتال والمقاومة أجبرت الحكومة الصليبية في الفليبين على الجلوس على مائدة المفاوضات وذلك سنة ١٣٩٦هـ بعاصمة الجماهيرية الليبية طرابلس وبرعاية الرئيس الليبي معمر القذافي، وتم الاتفاق على بنود معاهدة السلام بين الطرفين كانت في مجملها لصالح المسلمين في الفليبين.

لم يكن في نية الحكومة الصليبية في مانيلا الوفاء بأي بند من بنود معاهدة السلام، وإنما كانت مناورة لالتقاط الأنفاس والتعرف على قادة المسلمين الحقيقيين ومواطن قوة المقاومة، وبالفعل لم تمض سوى عدة شهور حتى نقضت الحكومة الصليبية في مانيلا تعاهداتها كلها وهجمت بقوات ضخمة على جزيرة ميناداناو سنة ١٣٩٧هـ

وأوقعت عدة مجازر مروعة في بولوان وكوتاباتو، وقرية سوباه بوكول، وكان الهجوم من كل الاتجاهات برًا وبحرًا وجوًا، وسقط الضحايا بالآلاف، وكان القصف بأسلحة محرمة دوليًا، وكانت القوات الصليبية تتعمد استهداف المساجد والجوامع والكتاتيب لطمس معالم الوجود الإسلامي غير أن قوات حركة تحرير مورو استطاعت أن تصد الهجوم الحكومي وتكبده خسائر كبيرة من بينها قائد الحملة الصليبية نفسه الجنرال المجرم (باتيستا)، وبرز في المقاومة الإسلامية القائد البطل (عثمان صالح) الذي أرهق الصليبيين بتكتيكاته القتالية الذكية حتى أن الطاغية ماركوس قد وضع مكافأة تقدر بمائة ألف دولار لمن يأتي بعثمان صالح حيًا أو ميتًا، وقد حاولت منظمة المؤتمر الإسلامي وبعض الدول الإسلامية الاحتجاج على المجازر التي ترتكبها الحكومة الصليبية بحق مسلمي الفليبين، ولكن ذهبت كلها أدراج الرياح.

وعلى الرغم من رحيل ماركوس الصليبي في سنة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، وتظاهر الحكومة الجديدة بإنصاف المسلمين وإعطائهم حقوقهم السليبة إلا إن شيئًا لم يتغير على أرض الواقع، وما زالت فصول الملحمة قائمة حتى كتابة هذه السطور.

* * *

المصادر والمراجع

١ـ التاريخ الإسلامي.

٢ـ أطلس تاريخ الإسلام.

٣ـ تاريخ آسيا الحديث والمعاصر.

٤ـ تاريخ العالم الإسلامي في آسيا.

٥ـ المسلمون في العالم تاريخيًا.

٦ـ الإسلام في أرخبيل الملايو.

٧ـ الأقليات الإسلامية في آسيا.

٨ـ الأقليات الإسلامية.

* * *

الفصل التاسع

الاحتلال الروسي للقوقاز

* بلاد القوقاز جغرافيًا وتاريخيًا:

بلاد القوقاز هي البلاد المحصورة بين بحرين كبيرين وشهيرين في شمال آسيا، وهما بحر قزوين (الخزر قديمًا) في الشرق، والبحر الأسود في الغرب، كما يحدها شمالاً وجنوبًا مجموعة من الأنهار، مثل نهري ترك وقوبان في الشمال، ونهري كورا وريفون في الجنوب، وتشكل سلسلة جبال القوقاز العمود الفقري لتلك البلاد، حيث تمتد تلك الجبال من الشمال الغربي من عند المضيق الذي يفصل بحر آزوف عن البحر الأسود، إلى الجنوب الشرقي عند مدينة باكو، وذلك بطول ١٢٠٠كم٢، وتلك الجبال تعتبر الحد الفاصل بين قارتي آسيا وأوروبا، مما جعل بلاد القوقاز تقف على حدود الحضارتين الإسلامية والأوروبية.

ونظرًا للطبيعة الجبلية والصحراوية لتلك البلاد فلقد كانت موطنًا مفضلاً لكثير من الشعوب والقبائل المختلفة في عاداتها ولغاتها، والتي تختلف في كل شيء تقريبًا ما عدا الرغبة العارمة في الاستقلال ورفض الانضواء تحت راية أو حكم بعينه، مما جعلها عرضة عبر القرون لكثير من محاولات الغزو والاحتلال الخارجي، ولكن نظرًا لشدة أهل القوقاز وصلابتهم القتالية لم تستطع دولة ولا مملكة ولا إمبراطورية بعينها أن تحكم قبضتها على تلك البلاد الهامة.

وقد أضحت المناطق الجنوبية والشرقية من بلاد القوقاز جزءًا من دولة الإسلام

وذلك سنة ٢٢هـ أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عندما فتح سراقة بن عمرو أذربيجان، ثم اتجه نحو الشمال فقام قائد جيشه عبد الرحمن بن ربيعة بفتح مدينة دربند المعروفة بباب الأبواب، في حين فتح القائد الآخر وهو حبيب بن مسلمة بفتح بلاد الكرج (جورجيا الآن) وأرمينيا في نفس السنة ٢٢هـ ودخل الإسلام أذربيجان والمناطق الشرقية وتمكن فيها أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، إلا إنه لم يتقدم بنفس السرعة في المناطق الجنوبية لقربها من الدولة البيزنطية والروابط الوثيقة بين سكان تلك المناطق والروم الذين أغروهم بالثورة والانتفاض ضد الحكم الإسلامية مرة بعد مرة، مما جعل سكان الكرج (جورجيا)، والأرمن مصدر قلق دائم وعداء مستمر داخل جسد الدولة الإسلامية، كلما شعروا بضعف الخلافة الإسلامية ثاروا وخلعوا الطاعة وجاهروا المسلمين بالعداء وأعلنوا ولاءهم الديني وتبعيتهم المذهبية للدولة البيزنطية، وإذا قوي مركز الخلافة واشتد ساعدها خنس الثائرون وأذعنوا بالطاعة، وطلبوا العفو والصفح، وفي كل مرة كان يصفح المسلمون الطيبون عن هؤلاء المتآمرين حتى أضرت تلك السياسة الساذجة بمركز الدولة الإسلامية، وأصبحت المناطق الجنوبية مصدر قلق وتوتر مستمر في خاصرة العالم الإسلامي.

أما الأجزاء الشمالية فقد ظلت على الوثنية لفترة طويلة لتوقف حركة الفتح الإسلامي، وبدأ الإسلام يشرق على وهادها مع قيام دولة مغول الشمال المعروفين بالقبيلة الذهبية وذلك سنة ٦٦٥هـ أيام سلطانها العظيم بركة خان حفيد جنكيز خان، ثم عمَّ الإسلام أهل شمال القوقاز جميعًا أيام الدولة العثمانية في ظل سلطنة مراد الثالث سنة ٩٨٣هـ.

تضم بلاد القوقاز العديد من القوميات والأعراق والشعوب المتباينة والتي شكلت عدة أقاليم وجمهوريات خضعت للعالم الإسلامي لفترة ثم وقعت تحت نير الاحتلال الروسي القيصري ثم الشيوعي لفترة طويلة، ثم استقل بعضها وما زال الباقي يسعى للاستقلال عن روسيا الاتحادية التي ورثت الاتحاد السوفيتي الهالك، وتلك الأقاليم والجمهوريات تنقسم في الشمال والجنوب القوقازي إلى ما يلي:

أولاً: منطقة شمال القوقاز: جميع سكانها من المسلمين تقريبًا وتضم عدة جمهوريات وأقاليم ذات حكم ذاتي وهي:

١ـ جمهورية داغستان: وهي لفظة تركية معناها بلاد الجبل وتبلغ مساحتها زيادة عن خمسين ألف كيلو متر مربع، وبها مجموعات قبلية متعددة مثل القوموق والنوجاي واللزكي واللان والعفر والآندي، والآندي هم أكثر العشائر القوقازية محاربة للروس ومقاومة لهم، وكانت اللغة العربية هي اللغة السائدة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، بل هي لغة التخاطب بين الناس حتى أجبرهم الشيوعيون على تركها.

٢ـ جمهورية الشيشان: وسنفرد عنها الكلام في مبحث خاص بها لاستمرار فصول الصراع الإسلامي الروسي على أرضها حتى الآن.

٣ـ جمهورية أوستنيا الشمالية: وهي صغيرة المساحة وأصل سكانها من الشراكسة ومعظم سكانها من المسلمين.

٤ـ جمهورية قباردیا ـ بُلكاريا: وبها عنصران من السكان؛ القبرطاي وهم من الشراكسة، والبلكار وهم من الأتراك، ومعظمهم من المسلمين، وهم مشهورون بتربية الخيول وركوبها.

٥ـ مقاطعة قراتشاي الشراكسية.

٦ـ مقاطعة الأديغة.

ثانيًا: منطقة جنوب القوقاز: وتعرف بمنطقة ما وراء الجبال وتضم ثلاث جمهوريات اتحادية وثلاث ذات استقلال ذاتي ومقاطعتان ذواتا استقلال ذاتي، وذلك كما يلي:

١ـ جمهورية أذربيجان: وأغلب سكانه مسلمين شيعة منذ أيام الحكم الصفوي للمنطقة، وعلى أرضها جرت فصول طويلة من الصراع بين المسلمين والروس عبر العصور، وبها ثروات طبيعية كثيرة، وهي غنية بالنفط، ويتبع أذربيجان مقاطعتان ذواتا استقلال ذاتي وهما:

أ ـ جمهورة ناختشيفيان: وتقع بين تركيا وأرمينيا ومعظم سكانها من المسلمين.

ب ـ مقاطعة قره باخ، وهي في قلب أذربيجان ومعظم سكانها من الأرمن النصارى، وهم يطالبون بالانضمام إلى أرمينيا الأم وبسببها دارت عدة حروب بين أذربيجان وأرمينيا.

٢ـ جمهورية جورجيا أو بلاد الكرج: وقد فتحها الصحابة رضوان الله عليهم في أيام الفتوحات الأولى، ولكن ظل معظم أهلها على النصرانية، وعندما ضعفت الخلافة الإسلامية أصبحت جورجيا شوكة في خاصرة العالم الإسلامي، واستغلها البيزنطيون في محاربة المسلمين، ويتبع جمهورية جورجيا النصرانية جمهوريتان ذواتا أغلبية مسلمة وهما: جمهورية أبخازيا، وجمهورية آجاريا، ومقاطعة أوستينا الجنوبية وهي ذات أغلبية نصرانية.

٣ـ جمهورية أرمينيا: وهي بلاد الأرمن وأغلبهم من النصارى المتعصبين ضد

المسلمين، وكانت تابعة من قبل للدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وبين الأرمن والمسلمين عمومًا والأتراك خصوصًا إحن وضغائن طويلة ما زالت آثارها قائمة حتى الآن.

*** رحلة بلاد القوقاز مع الدول الإسلامية:**

ظلت بلاد القوقاز منذ الفتح الإسلامي لجنوبها وشرقها سنة ٢٢هـ تتأرجح في تبعيتها واستقلالها عن الدولة الإسلامية، ففي حين بقيت الأجزاء الشمالية التي تحتل صحراء القوقاز معظم مساحتها بعيدة عن الحكم والدعوة الإسلامية، دخلت المناطق الشرقية بكاملها وأطاعت وبقيت الجنوبية تتقلب بين التبعية والاستقلال.

ظل الوضع في بلاد القوقاز على ما هو عليه حتى جاء المغول الذين اكتسحوا المنطقة بأسرها، وقام جنكيز خان بتقسيم المعمورة كلها بين أبنائه الأربعة، وقد قسمت بلاد القوقاز بين اثنين من أولاد جنكيز خان، فالمناطق الشمالية وداغستان قد ضمن أملاك ولده الأكبر (جورجي) الذي مات في حياة أبيه وخلفه ابنه (باتو)، والمناطق الجنوبية كانت من نصيب ابنه الآخر تولوي الذي أسس ابنه هولاكو الطاغية الدولة الإيلخانية.

وقد أسس باتو حفيد جنكيز خان أسرة مغول الشمال التي عرفت باسم القبيلة الذهبية والتي تواكب دخولها الإسلام وتشرفها به مع بدايات الدولة العثمانية في الأناضول، فعمرت المناطق الممتدة من شمال القوقاز إلى آسيا الصغرى بالإسلام والمسلمين، ونذرت أسرة مغول الشمال نفسها لخدمة الإسلام ومحاربة باقي التتار الوثنيين حتى عم الإسلام وانتشر بين قبائل التتر جميعها.

تفككت عرى الدولة الإيلخانية ودولة مغول الشمال مع الضربات القوية التي قام بها طاغية العصر تيمورلنك الذي أسس إمبراطورية واسعة شملت كل أملاك التتار السابقة وحكم تيمورلنك خراسان كلها والقوقاز والأناضول والهضبة الإيرانية وغرب الصين، ولكن بعد وفاته سنة ٨٠٧هـ ـ ١٤٠٤م لم يستطع خلفاؤه المحافظة على ذلك الملك الشاسع، وبدأ نجم الدولة العثمانية في السطوع، وقد حققوا إنجازًا عالميًا بفتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ ـ ١٤٥٣م، وورث العثمانيون الأرض بعد التيموريين، وأصبحت منطقة القوقاز وآسيا الوسطى تابعة للدولة العثمانية وإن كان يحكمها خانات وأمراء من التتر، وكان خوف مسلمي القوقاز ومسلمي التتر في القرم واستراخان وقازان وغيرها من تعاظم قوة الروس الدافع الحقيقي وراء دخول تلك المناطق الواسعة في طاعة العثمانيين.

حدث تطور سريع وكبير في المنطقة وذلك بظهور خصم جديد وقوي وهو الدولة الصفوية الشيعية الرافضية سنة ٩٠٦هـ ـ ١٥٠٠م في قلب الهضبة الإيرانية والتي اتخذت من مدينة تبريز عاصمة لها، وقد نذر ملوك تلك الدولة الخبيثة أنفسهم لحماية ونشر التشيع في المنطقة التي تفصل شرقي الأناضول عن ممالك آسيا الوسطى، وقد حرص الصفويون على نشر التشيع في شرقي الأناضول وجنوب القوقاز غربًا، وفي خراسان وممالك ما وراء النهر شرقًا، وخاضت من أجل ذلك الهدف حروبًا طاحنة ومتصلة في الشرق مع خانات وأمراء آسيا الوسطى، وفي الغرب مع سلاطين الدولة العثمانية، مما كبد الإسلام والمسلمين خسائر ضخمة، واستفاد الروس ألد أعداء الإسلام من ذلك الصراع في توسيع أملاكهم في شمال آسيا.

وقد استطاع الصفويون احتلال العديد من الأجزاء الجنوبية والشرقية لبلاد القوقاز مثل شروان وأذربيجان وداغستان وجورجيا، ولكن ورغم السيطرة الصفوية على تلك البلاد واشتدادهم في إجبار أهلها على التشيع إلا إن التشيع لم ينتشر إلا في أذربيجان وحدها، في حين بقيت المناطق المطلة على البحر الأسود خاضعة للدولة العثمانية، وظلت بلاد القوقاز لفترة طويلة بين مد وجزر، تارة للصفويين وتارة للعثمانيين، مما جعلها ميدانًا متواصلاً للصراع التاريخي الكبير بين أهل السنة ويمثلهم العثمانيون والروافض الشيعة ويمثلهم الصفويون.

*** روسيا القيصرية والإسلام:**

الروس في الأصل مجموعة من القبائل الوثنية التي كانت تقطن في أحواض المجاري العليا لأنهار الفولجا والدون والدونيا والدينيبر، وتبلغ مساحة أراضيها قرابة المليون كيلو متر مربع، وقد وصفهم الرحالة المسلم ابن فضلان في رسالة شهيرة وتكلم عن طباعهم وسلوكهم وعاداتهم، ولقد عرف الروس في التاريخ الإسلامي القديم بالصقالبة، وهو الاسم الذي أطلقه المسلمون على الأرقاء من ذوي البشرة البيضاء المائلة للحمرة، وكانت بلادهم فقيرة جرداء لا زرع فيها ولا ثروات من أي نوع، لذلك اعتمدوا على السلب والنهب والإغارة على الجيران لتأمين معيشتهم.

كان الروس على الوثنية لفترة طويلة على الرغم من انتشار الديانات السماوية في المناطق المحيطة بهم، فلقد كان الروم في جنوبهم الغربي على النصرانية، وقبائل الخزر في ناحية الشرق على اليهودية والإسلام، والبلغار في الشمال الشرقي على الإسلام، وحصل نوع من المنافسة بين المسلمين والنصارى واليهود لكسب القبائل الروسية

الوثنية إلى دين كل طائفة، وذلك في أواسط القرن الرابع الهجري، ونظرًا لحالة الضعف الشديدة التي كانت عليها دولة الخلافة العباسية وقتها بسبب تسلط الشيعة البويهيين عليها وبسبب منافسة الدولة الفاطمية الخبيثة في مصر والمغرب، فإن النصارى قد حسموا المنافسة لصالحهم ودخل الروس النصرانية سنة ٣٧٨هـ - ٩٨٨م أيام ملكهم فلاديمير، وأصبحت الأرثوذكسية مذهبهم الرسمي، وكان للقسطنطينية دور كبير في تحول الروس من الوثنية إلى النصرانية.

انضم الروس للقتال بجانب الدولة البيزنطية ضد أعدائها وفي مقدمتهم بالطبع المسلمين واعتمد البيزنطيون على الروس في العديد من المعارك بسبب شدتهم وبأسهم في القتال، بل إن مقدمة الجيوش البيزنطية عادة ما تكون من القبائل الروسية، وظل وضع الروس على ذلك الحال، تابعين للدولة البيزنطية حتى ظهر المغول واكتسحوا المشرق كله وقامت لهم عدة دول كبيرة بعد رحيل مؤسسهم الكبير جنكيز خان، وكانت بلاد الروس ضمن أملاك دولة مغول الشمال المعروفين بالقبيلة الذهبية، وكانت دول مغول الشمال واسعة تمتد من أواسط بولندا في الغرب حتى وسط سيبريا في الشرق، ومن القطب الشمالي المتجمد في الشمال حتى أذربيجان في الجنوب، وكانت عاصمتها مدينة «سراي»، وتقوم مكانها حاليًا مدينة «ساراتوف» في شرق روسيا، وظلت تلك الدولة المسلمة قوية وظاهرة لأكثر من مائة وعشرين عامًا كان الروس خلالها خاضعين لها وأحد رعاياها، حتى بدأ الضعف يدب في أوصالها الكبيرة، وابتداءً من سنة ٧٦٢هـ أخذ أمراء وحكام الأقاليم البعيدة بالانفصال عن جسد الدولة، فاستقل الحاج محمد خان بإقليم سيبريا الغربية وأسس ما عرف تاريخيًا

باسم خانية سيبريا، واستقل الحاج شركس باستراخان، واستقل ماماي بالقرم، ومما زاد الطين بلة قيام الطاغية تيمورلنك باكتساح المنطقة واحتل مدينة سراي سنة ٨٠٢هـ ودمرها تدميرًا مهولاً فزاد من فرقة المسلمين واستقلت قازان عن الدولة، ولم يستطع سلاطين دولة مغول الشمال من وقف مسلسل الانفصال لجسد الدولة، وكان ذلك من حسن طالع الروس وبداية ظهورهم.

كان الروس يكرهون المسلمين بشدة منذ أيام الحروب الإسلامية البيزنطية في القرن الخامس والسادس الهجري، ثم زاد حقدهم وبغضهم للمسلمين بعدما وجدوا أنفسهم تحت حكم دولة مغول الشمال المسلمة، ولم يستطيعوا أن يرفعوا رأسًا لأكثر من قرن من الزمان بسبب قوة الدولة وقتها، فلما أحسوا ببداية ضعف الدولة أخذ أمراء موسكو في التحضير للانفصال عن الدولة، وخلعوا الطاعة فعلاً سنة ٧٨٣هـ ولكن السلطان (بوقتاميش) سلطان دولة مغول الشمال تمكن من إعادتهم للطاعة وأن يدخل موسكو ويؤدب أهلها في نفس السنة ٧٨٣هـ ثم حاول الروس مرة أخرى سنة ٨١١هـ ولكنهم فشلوا فقرروا الركون إلى الطاعة والانتظار لفترة حتى تحين اللحظة المناسبة.

في تلك الفترة ظهرت الدولة العثمانية في الجنوب وأخذت في الجهاد على الجبهة الأوروبية وحققت الدولة نجاحات كبيرة في البلقان وشرق أوروبا، ولكن قمة نجاحاتها تمثل في فتح مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ومركز الأرثوذكسية العالمية، وذلك سنة ٨٥٧هـ ومن يومها انتقلت قيادة الأرثوذكسية العالمية إلى موسكو وأصبح الروس هم حملة النصرانية الشرقية، واعتبر الروس

أنفسهم الورثة الشرعيين للدولة البيزنطية وعلى عاتقهم يقع عبء مهمة استعادة المجد المسلوب، وذلك الإرث الديني أدى لإثارة الحمية الدينية عند المواطنين الروس، وبتلك النفسية الدينية المضطرمة التف الروس حول أمير موسكو إيفان الثالث سنة ٨٨٦هـ وأعلنوا استقلالهم عن دولة مغول الشمال.

وضع الروس أمام أعينهم في سجل طموحاتهم هدفًا إستراتيجيًا بعيدًا وهو استعادة القسطنطينية ومجد الدولة البيزنطية وجعلوه أهم أهدافهم، واتبعوا من أجل ذلك سياسة ذكية وكانوا أكثر وعيًا وإدراكًا لأهدافهم من الدول الإسلامية القائمة وقتها الدولة العثمانية والدولة المغولية، فعملوا على توحيد صفوفهم وقواتهم وكونوا مملكة كبيرة في عهد إيفان الرابع الملقب بالرهيب لكثرة المجازر التي قام بها بحق مسلمي التتار، وأصبحت روسيا قيصرية منذ سنة ٩٥٤هـ وفي نفس الوقت تفتت دولة مغول الشمال لعدة إمارات أو خانات لم تقو واحدة منها منفردة على مواجهة قوة روسيا القيصرية، كما أن العثمانيين وقتها كانوا منشغلين بقتال الإسبان والبرتغاليين ولم يعيروا للقوة الناشئة اهتمامًا لحداثتها، وكان ذلك من أشد أخطاء السياسة العثمانية، إذ إن تلك القوة الناشئة أخذت في التهام أطراف العالم الإسلامي شيئًا فشيئًا حتى صارت أشد قوة وأكثر بطشًا من العثمانيين أنفسهم بل ومن أي دولة على وجه الأرض وقتها.

* الاحتلال الروسي القيصري لبلاد القوقاز:

اعتبر الروس المسلمين عدوهم الرئيس والوحيد، وكان أمامهم عدة قوى إسلامية في المنطقة، الدولة العثمانية والدولة المغولية وكلاهما أهل السنة، والدولة الصفوية الرافضية، فتحالف الروس مع الصفويين ضد العالم الإسلامي، وذلك

ليتفرغ الروس لمنازلة مغول الشمال، في حين يتفرغ الصفويون الروافض لقتال العثمانيين، وخلال الفترة من سنة ٨٧٠هـ حتى سنة ١٠٧٨هـ أي القرنين من الزمان استطاع الروس أن يستولوا على دولة مغول الشمال كلها باستثناء بلاد القرم التي كانت وقتها قد دخلت في حوزة العثمانيين، فأجل الروس مسألة احتلالها ريثما يشتد ساعدهم لمنازلة العثمانيين والقرميين.

أول ما لفت انتباه الروس للموقع الإستراتيجي الخطير لبلاد القوقاز هو الشاه الصفوي الخبيث طهماسب، وذلك عندما كاتب قيصر روسيا إيفان الرهيب سنة ٩٧٨هـ وعرض عليه خطة شيطانية لمحاربة الدولة العثمانية في الجبهة القوقازية، ولكن انتباه العثمانيين لتلك الخطة جعل الروس يؤجلون تنفيذها لمرحلة ما بعد احتلال القرم حتى لا يقعوا بين كماشة العثمانيين من الجنوب والقرميين من الغرب.

انتبه العثمانيون لأهمية الموقع الجغرافي لبلاد القوقاز في عهد السلطان العثماني القوي مراد الثالث (٩٨٢هـ ـ ١٠٠٣هـ) فضموا جورجيا لدولتهم سنة ٩٨٥هـ ثم شروان (أذربيجان الشمالية) سنة ٩٨٦هـ ثم بلاد الداغستان سنة ٩٩١هـ وأصبحت بلاد القرم تابعة لهم سنة ٩٩٢هـ كما أنهم أعلنوا الحماية على بولندا قبل ذلك سنة ٩٨٤هـ وكل تلك التحركات العثمانية جعلت الروس يخنسوا قليلاً ويتربصون الفرصة الملائمة لتحقيق طموحاتهم.

بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة العثمانية بسبب تسلط قادة الإنكشارية على سلاطين الدولة، كما دخلت الدولة الصفوية مرحلة التراجع والانحطاط، فقرر الروس العمل على كل الجبهات والدخول في معارك مع العثمانيين وأيضًا الصفويين

حلفائهم سابقًا، وانتصر الروس على العثمانيين في عدة مواقع هامة أجبرت العثمانيين على الجلوس على مائدة المفاوضات وتوقيع معاهدات مجحفة تنازلت فيها الدولة عن كثير من أملاكها في بلاد القوقاز والقرم، كما حدث في معاهدة قينارجة سنة ١١٨٧هـ ونجح الروس في احتلال بولندا ورومانيا، ثم احتلت بلاد القرم نهائيًا سنة ١٢٠٦هـ بمعاهدة ياسي، وبالتالي لم يبق في المنطقة بأسرها إلا بلاد القوقاز، وقد استطاعوا بالفعل أن يحتلوا أجزاءها الشمالية منذ سنة ١١٦٤هـ.

بدأ الروس احتلالهم لجنوب القوقاز باحتلال بلاد الكرج أو جورجيا وذلك سنة ١٢١٥هـ ولم يكن ذلك عليهم عسيرًا لأن غالب السكان من النصارى، ثم واصل الروس تقدمهم فاحتلوا بلاد شروان وأذربيجان سنة ١٢٢٨هـ وبالتالي يكون الروس قد أحكموا قبضتهم على بلاد القوقاز كلها.

كما قلنا من قبل أن الروس كانوا من ألد أعداء الإسلام والمسلمين، وللروس إرث ديني وتاريخي مع المسلمين جعلهم ما إن تمكنوا من رقاب المسلمين حتى أفرغوا شحنات ضخمة من الحقد والكراهية ضد مسلمي التتار والقوقاز والتركمان، بصورة لم تعرف البشرية مثلها إلا في أماكن محددة وأوقات قليلة، وكثير من المسلمين يظن أن روسيا الشيوعية كانت الأشد في التنكيل بالمسلمين، ولكن الذي حدث أيام روسيا القيصرية أمر يفوق الوصف ويتجاوز الخيال، وخاصة الأيام الأولى للاحتلال الروسي لبلاد الإسلام، وهي الفترة من سنة ٩٥٤هـ حتى سنة ١٠١٤هـ وهي فترة حكم إيفان الرهيب وأبنائه والذين قاموا بأبشع المجازر والمظالم بحق المسلمين، إذ صودرت الأملاك وأتلفت المزارع وأحرقت البيوت وهدمت المساجد وأقفلت

المدارس وهُجرت العائلات ومنع من تأدية أي شعائر دينية، وأجبروا المسلمين على التنصير أو القتل أو الهجرة، وخطف الأطفال المسلمين ووضعوا في الكنائس والمعاهد التنصيرية، كما شجعوا كل من أراد الارتداد وأعطوه مزايا كثيرة وأعفوه من الضرائب ومن الخدمة العسكرية، وبالجملة عانى المسلمون الويلات الرهيبة الواحدة تلو الأخرى تحت نير الاحتلال الروسي ولم يتذوقوا طعم الحرية والأمن، وانطبع في قلوب المسلمين خاصة التتار منهم عداوة للروس لا ولن تنمح أبدًا عبر العصور.

❑ الجهاد الإسلامي لتحرير بلاد القوقاز:

اتبع الروس في بداية احتلالهم لبلاد الإسلام حول حوض نهر الفولجا وسائر أملاك دولة مغول الشمال سياسة البطش الشديد والقسوة المفرطة تحت شعار إبادة الإسلام والمسلمين ومحو الوجود الإسلامي في المنطقة بأسرها، ومن هول المجازر والمذابح التي قام بها الروس والتي أنست البشرية مجازر الصليبيين في بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ، ومجازر التتار في بغداد سنة ٦٥٦هـ من هولها لم يستطع المسلمون المقاومة أو الدفاع، وإن كان لتفرقهم واختلافهم فيما بينهم من قبل دور كبير في تلك الانهزامية والخنوع الذي أصابهم أمام الجحافل الروسية.

ومع مرور الوقت خفت حدة الاضطهادات الروسية للمسلمين، ورفع عنهم الضغط الهائل الذي تعرضوا له من قبل وكان ذلك إيذانًا ببداية تنظيم الصفوف استعدادًا للمقاومة وكانت أولى محاولات المقاومة سنة ١١٨٧هـ عندما قام شعب الباشكير في حوض نهر الفولجا بانتفاضة كبيرة ضد المحتل الروسي، غير أن الروس قد قمعوها بمنتهى العنف.

أما في القوقاز فقد كان الوضع مختلفًا، فلقد كانت منطقة شمال القوقاز منطقة ضيقة يغلب عليها الطابع الجبلي والصحراوي والمساحات الزراعية التي تسمح للروس بدفع أعداد غفيرة من فلاحيهم ضيقة ومحدودة، ذلك فضلاً عن قوة المسلمين بها وشجاعتهم ووعرة بلادهم وسهولة اتصالهم بالدولة العثمانية، لذلك لجأ الروس للأسلوب الإنجليزي في السيطرة على شمال القوقاز وهو اصطناع بعض الأمراء والعملاء الذين يحكمون المنطقة نيابة عن الروس، في حين يكتفي الروس بحاميات عسكرية ونقاط حماية تراقب الأوضاع، أما منطقة جنوبي القوقاز فقد كانت أسهل المناطق الإسلامية التي احتلها الروس وذلك لسببين؛ الأول: وجود صراع قديم قائم في المنطقة منذ مئات السنين بين المسلمين والنصارى الأرمن والجورجيين، الثاني: أن الدولة الصفوية الشيعية هي التي كانت تحكم المنطقة لفترة طويلة وغالب سكانها المسلمين من الشيعة وهم أبعد الناس عن مقاومة الاحتلال على مر العصور.

□ ثورة العلماء في القوقاز:

كان العلماء في القوقاز هم أصحاب الكلمة المسموعة والنفوذ الكبير داخل الشعب القوقازي خاصة في المناطق الشمالية، ولقد أعلن العلماء عداءهم الصريح والواضح ضد الاحتلال الروسي على الرغم من عدم التدخل المباشر من جانب الروس في شئون مسلمي المنطقة، ولكن العلماء رفضوا أن يكونوا تابعين للروس، ورفضوا إمارة ما اصطنعهم الروس من أبناء القوقاز ليكونوا حكامًا وولاة عليهم، وأخذ العلماء في تحريض المسلمين على الجهاد ضد الروس وأذنابهم، وكان بعض علماء الداغستان قد درسوا ي الحجاز ومصر والشام وعندما عادوا إلى بلادهم أثروا

الحياة العلمية وحركوا ركودها، ومن أبرز هؤلاء الحاج محمد بن موسى القدوقي، والشيخ سعيد الهركاني، والشيخ محمد الكمراوي، والأخير هو الذي أعلن الجهاد ضد الروس سنة ١٢٤٦هـ وكان عالمًا عاملاً مجاهدًا شديد الوطأة على أعداء الإسلام.

قاد الشيخ الغازي محمد محمد الكمراوي جيشًا قوامه ثمانية آلاف مقاتل وهاجم به المعسكرات الروسية عند جبل «تارجو» ولكنه لم يستطع أن يهزم الروس لمتانة تحصيناتهم الدفاعية، فانتقل بجيشه إلى الشيشان، فانضم إليه الكثير منهم فتوغل في المنطقة حتى وصل إلى مدينة درنبد المعروفة بباب الأبواب، وغنم كثيرًا من أموال الروس، ثم عاد إلى داغستان ليحارب الأمراء الموالين للروس، وذلك سنة ١٢٤٧هـ فحشد الروس قوات ضخمة وحاصروا جيشه عند قريته «كيمرة»، ودارت معركة شديدة في جمادى الآخرة سنة ١٢٤٨هـ سقط فيها الشيخ الغازي محمد الكمراوي شهيدًا، وأخذ الروس الحاقدين جثته ومثلوا بها، وكان الشيخ محمد يدعو الناس إلى إحياء الشريعة ونصرة الدين، ويعتبر رائد الجهاد القوقازي ضد الروس، وأول من حارب الأمراء الموالين للروس، وله رسالة لطيفة سماها «إقامة البرهان على ارتداد عرفاء داغستان»، والعرفاء هم الأمراء الموالون للروس.

بعد استشهاد الشيخ محمد الكمراوي اجتمع أهل الحل والعقد في جماعته واتفقوا على تولية الشيخ «حمزة بك بن علي» على جيش العلماء، وقد قرر الشيخ حمزة التركيز على قتال الأمراء الموالين للروس لأنهم حسب رأيه مصدر البلاء وأس الفساد، مما جعلهم يخططون لاغتياله وهو ذاهب لصلاة الجمعة سنة ١٢٥٠هـ.

❑ دولة الإمام شامل القوقازية:

كانت سنة ١٢٥٠هـ - ١٨٣٣م نقطة البدء لعمل إسلامي كبير وشامل ضد الوجود الروسي في بلاد القوقاز، وهي السنة التي تولى فيها الإمام شامل بن دنكاو قيادة الكفاح الإسلامي ضد الاحتلال الروسي، وكان الإمام شامل الساعد الأيمن للشيخ المجاهد محمد الكمراوي ورفيقه في العلم والجهاد، وكان معه يوم استشهاده في جمادى الآخرة سنة ١٢٤٨هـ، وقد ارتاث بين القتلى، ثم نهض وهو مثخن بالجراح حتى عاد إلى بلده، فلما برئ من جراحه انضم إلى القائد الثاني الشيخ حمزة، فلما اغتيل سنة ١٢٥٠هـ اتفق الناس على تولية الإمام شامل في قيادة المقاومة الإسلامية وكان ذلك فتحًا كبيرًا للإسلام والمسلمين في بلاد القوقاز.

اتبع الإمام شامل سياسة إقامة الدولة الكاملة في مقاومة الاحتلال الروسي، واتخذ من مناطق الجبال مركزًا لإقامة دولته الوليدة فطرد العمال الروس والولاة التابعين لهم من منطقة أوارستان، وحصنها جيدًا، واستعد للانطلاق على باقي بلاد الداغستان فحشد الروس جيشًا ضخمًا وانضم إليهم الخونة والموالون لهم وحاصروا دولة شامل الوليدة حتى ألجأوه إلى الخروج إلى بلاد الشيشان وذلك بعد معارك ضارية وبطولات نادرة من جنود الإمام شامل.

وفي الشيشان انضم كثير من أهلها للإمام شامل، وقويت حركته واشتد عودها وعمل الإمام على تكوين جيش نظامي حديث مزود بالأسلحة الثقيلة، فهلع الروس من تنامي قوته واتساع نفوذه، فحشدت جيشًا كبيرًا مجهزًا بالأسلحة الثقيلة سنة ١٢٥٣هـ وباغت الإمام شامل وجنوده في «ويدانو» ولكن الإمام شامل أوقع بهم

هزيمة ثقيلة كانت بداية انتشاره وفاتحة الإقبال لدعوته وحركاته.

قسَّم الإمام شامل دولته إلى عدة ولايات وعين لها نوابًا وقضاة ومعلمين، والتف حوله علماء وشيوخ الشيشان وداغستان، وأنشأ معامل ومصانع للأسلحة واستقدم مهندسين وفنيين من الشام ومصر في صنع المدافع، وبلغ عدد جنوده زهاء الستين ألفًا وظل يكافح الروس زيادة على خمسة وعشرين سنة متصلة، أقام خلالها دولة إسلامية كاملة الأركان في الشيشان والداغستان على الرغم من اختلاف طبائع ولغات الناس هناك وكثرة قبائلهم وشعوبهم مما يدل على مدى مهارته ونجابته.

ومما ساعد الإمام شامل على تقوية مركزه وتدعيم دولته انشغال الروس بحرب القرم الشهيرة وتوتر العلاقة بين الروس والدول الأوروبية وتصارع القوى والمصالح على تركة الرجل المريض، فلما انتهت تلك الحرب سنة ١٢٧٥هـ قرر الروس تسخير كل قواتهم العسكرية للقضاء على دولة الإسلام التي أقامها الإمام شامل في القوقاز فحشدوا ثلاثمائة ألف مقاتل مدعومين بقوات برية وبحرية وبأحدث الأسلحة الثقيلة وواصل الروس قتالهم للإمام شامل عدة سنوات متتالية حتى أنه لم يكن للإمبراطورية الروسية هم ولا شغل ولا قوة إلا في محاربة تلك الدولة الوليدة.

ومع مواصلة القتال وشدة وطأته بدأ التعب والوهن يدب في قلوب أتباع الإمام شامل حتى في قلوب بعض قواده، وكان بعضهم يحسده ويغار من نجاحاته وإنجازاته فأخذوا في الانفضاض عنه شيئًا فشيئًا حتى شعر الإمام شامل بقرب السقوط وخاف من غائلة ذلك وعاقبته على أهل الشيشان والداغستان وما سيفعله بهم الروس بعد سقوط دولته، وقد خانه أقرب الناس إليه من أصدقائه وقواده،

فاضطر إلى تسليم نفسه سنة ١٢٧٦هـ ـ ١٨٥٩م.

الجدير بالذكر أن الدولة العثمانية حاولت تقديم المساعدات للثورة الإسلامية التي كان يقودها الإمام شامل إلا إن الإنجليز والفرنسيين قد منعوا وصول هذه المساعدات بالتنسيق مع الروس على الرغم من أن الإنجليز والفرنسيين كانوا ضد روسيا القيصرية في حرب القرم.

وبعد سقوط دولة الإمام شامل، حملوه أسيرًا إلى قيصر روسيا إسكندر الثاني الذي أحسن استقباله لشدة إعجابه ببطولة وشجاعة الإمام شامل، ومكث الإمام في روسيا تسع سنين ثم استأذن في الحج فأذنوا له وقد جاوز الثمانين من عمره، فحج سنة ١٢٨٧هـ ـ ١٨٧١م، ثم ما لبث أن توفاه الله عز وجل ودفن في البقيع صحبة الأطهار والأشراف.

*** الاضطهاد الشيوعي لأهل القوقاز:**

بانتهاء حركة الإمام شامل لم تبق بالقوقاز حركات مقاومة قوية تجابه الاحتلال الروسي للبلاد وأحكم الروس قبضتهم على القرم والقوقاز وآسيا الوسطى أو التركستان، وفرضوا على المسلمين التنصير بالقوة أو الإبادة، فهاجر مئات الألوف من مسلمي القوقاز إلى أقاليم الدولة العثمانية حتى بلغ عدد مهاجري القوقاز وحدها ثلاثة ملايين مسلم فروا بدينهم من الاضطهاد الروسي العنيف.

بلغ الكتاب أجله وقامت الثورة الشيوعية سنة ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م، وحاول الشيوعيون استمالة مسلمي القوقاز والقرم ومارس لينين وستالين دجلاً سياسيًا فاضحًا من أجل خداع المسلمين فنشر الشيوعيون ذلك الإعلان الخادع والذي جاء فيه ما يلي: «أيها المسلمون في روسيا القيصرية، يا من هدمت مساجدهم ومنابرهم بيد ظلمة قياصرة

الروس، يا من سحقت أديانهم وعاداتهم، نتوجه إليكم جميعًا بالخطاب: إننا نعلمكم من الآن أن عقائدكم وعاداتكم وجميع مؤسساتكم القومية والدينية حرة ومصونة من كل تعدي وتجاوز، واعلموا أن حقوقكم وحقوق كل الأمم التي تعيش في روسيا تحميها قوى الثورة البلشفية، فقدموا يد العون للثورة البلشفية وللحكومة البلشفية».

وبالفعل انخدع كثير من المسلمين الحالمين بالحرية والعدل بتلك الشعارات البراقة، ولم يعرفوا أن الاضطهادات التي سيلاقونها على يد الشيوعيين أشد هولاً وألمًا مما جرى لهم أيام القياصرة، في حين فطن المسلمون في القوقاز لأهداف الشيوعيين ومنهجهم الإلحادي، وبرز القائد الإمام نجم الدين جوتسنسكي كزعيم للشيشان والداغستان وبرز أيضًا القائد أوزون حاجي، وأعلن الإمام نجم الدين استقلال الشيشان والداغستان عن روسيا، فأسرع الشيوعيون بإرسال قواتهم لشمال القوقاز سنة ١٣٣٧هـ ـ ١٩١٩م، وبعد معارك طاحنة سيطر الشيوعيون على القوقاز وأعدموا الآلاف من المسلمين هناك وبالغ الشيوعيون في وحشيتهم حتى ركن الناس هناك للهدوء والرضا بالواقع الأليم.

وفي الحرب العالمية الثانية اتهم ستالين الشيوعي مسلمي القوقاز بالتعاون مع الألمان وصب الطاغية جم غضبه على المسلمين هناك فنفى الملايين من سكانها إلى مجاهل سيبريا، حتى بلغ عدد من هلك من المسلمين في عهد ستالين الرهيب ما يزيد عن ١١ مليون مسلم.

ومن أجل القضاء المبرم على المقاومة الإسلامية لجأ الشيوعيون إلى تقسيم البلاد لوحدات سياسية تتراوح بين الكبر والصغر لضمان السيطرة على المسلمين وتحجيم حركاتهم ومن أجل بث الأفكار الشيوعية والمناهج الإلحادية في صفوفهم.

مشكلة الشيشان المسلمة

من باب إتمام الفائدة في الكلام عن ملحمة المقاومة الإسلامية في أرض القوقاز ضد الاحتلال الروسي رأيت أن أفرد فصلاً مستقلاً عن الكلام في قضية الشيشان ومحنة أهلها وكفاحهم الطويل والمجيد ضد الاحتلال الروسي بأوجهه الثلاثة المتعاقبة؛ القيصري ثم الشيوعي ثم الاتحادي، وهو الكفاح الذي ما زالت فصوله قائمة لم تنته بعد، وحتى كتابة هذه السطور.

* الشيشان تاريخيًا وجغرافيًا:

تقع جمهورية الشيشان والأنجوش في الأطراف الشرقية لمرتفعات شمال القوقاز، ويحدها من الشرق والجنوب الشرقي جمهورية داغستان، ومن الجنوب جمهورية جورجيا، ومن الغرب أوسيتيا الشمالية، وعاصمة الجمهورية مدينة «جروزني»، وهي كلمة روسية معناها الرهيب أو المهدد، وقد بناها القائد الروسي «برملوف» على أنقاض قرية شيشانية مسلمة تقع على ضفاف نهر السونجا وذلك سنة ١٨١٨م.

الغالبية العظمى من سكان الشيشان المسلمين المتمسكين بدينهم، وفيهم نسبة ضئيلة من النصارى الروس، والشيشان من الشعوب القديمة التي سكنت القوقاز منذ آلاف السنين، والشيشانيون أكثر شعوب القوقاز محافظة على هويتهم القومية والثقافية والدينية، ونسبة التعليم مرتفعة بين أبناء الشيشان، ويغلب على البلاد الطابع الريفي ـ الجبلي، إذ يعيش ٦٧٪ من السكان في المناطق الريفية والجبلية، وتحتل الزراعة مكانة هامة في حياة السكان، ويتوافر البترول بكميات كبيرة في أرض

الشيشان، وهو وصناعاته العديدة أساس الاقتصاد الشيشاني.

وقد دخل الإسلام الشيشان على يد الدعاة والمبشرين والتجار القادمين من بخارى والداغستان وأواسط آسيا، ومنذ اعتنق أهل الشيشان الإسلام تمسكوا به أشد التمسك وجعلوه بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت خاصة في نضالهم ضد الروس القياصرة ثم الشيوعيين ثم الاتحاديين، والشيشان مسلمون يتبعون المذهب الشافعي، وللطرق الصوفية أثر كبير في صفوف الناس هناك، خاصة الطريقة القادرية والطريقة النقشبندية.

*** الشيشان في عهد القياصرة:**

احتلت روسيا القيصرية بلاد القوقاز ومنها الشيشان في مرحلة متأخرة من بداية هجومها على العالم الإسلامي في آسيا، ذلك لأن الروس قد بدءوا باحتلال سيبريا وسائر أملاك دولة مغول الشمال، وفرضوا على أهلها التنصير بالقوة واستخدموا من أجل ذلك أبشع أنواع القهر والنكال وأنزلوا بمسلمي سيبريا واستراخان والأورال المذابح المروعة، فلما أرادوا احتلال بلاد القوقاز وجدوا مقاومة عنيفة من أهلها الذين هالهم ما حدث لإخوانهم المسلمين في سيبريا وغيرها، وقرروا التصدي للغزو القيصري بكل قوتهم حتى لا يكون مصيرهم الضياع مثل إخوانهم.

كانت السياسة التوسعية لروسيا القيصرية قائمة على أساس ديني بحت وهو القضاء على الإسلام والمسلمين وفرض النصرانية بالقوة، وذلك بنهب خيرات وثروات المسلمين، فلما احتل الروس شمال القوقاز عملوا على حصار المسلمين في الجبال وسلبهم المراعي والمناطق الزراعية، مع فرض الموالين والتابعين للروس في

الولاية والإمارة المحلية، وقد قام الروس بالقضاء على المحاكم الشرعية والمدارس الإسلامية في الشيشان لقطع صلة الناس بدينهم وشريعتهم.

في سنة ١٧٨٥م ظهر على مسرح الأحداث في الشيشان الشيخ منصور أشرمه، وكان من الزهاد العباد المجاهدين، وقد دعا الناس لجهاد الروس وطردهم من البلاد، ودعا أتباعه من أجل تحقيق ذلك إلى تطهير النفس واتباع الشرع، وقد التف حوله الآلاف من الشيشانيين والداغستانيين والأديغ، وظل الشيخ منصور يجاهد الروس حتى وقع أسيرًا بيد الروس الذين أعدموه، وتم التنكيل بأنصاره.

وفي سنة ١٨١٨م ظهر بطل آخر هو الشيخ الإمام الغازي محمد الكمراوي وكان أصله من الداغستان ولكن معظم عملياته كانت في الشيشان، وذلك بسبب جبروت وتعسف القائد الروسي (ألكس برملوف)، ودخل ضده معارك طاحنة طيلة خمس سنوات وقد خر القائد محمد الكمراوي في آخرها شهيدًا.

بعد ذلك ظهر الإمام شامل الذي قاد مسلمي الشيشان والداغستان لإقامة دولة إسلامية بشمال القوقاز، وكان الإمام شامل فهمه للإسلام شاملاً وعميقًا، فأقام دولة حديثة مزودة بجيش قوي وأنشأ مصانع ومعامل للأسلحة، ونظم إدارات الدولة تنظيمًا دقيقًا، وبفعل تلك الخطوات الهامة ترسخت روح الاستقلال والإدارة على أساس الشريعة الإسلامية، وصمدت تلك الدولة لزيادة عن ربع قرن أمام قوات القياصرة الضخمة ولم تسقط إلا بفعل الخيانة والحسد والغيرة من بعض قواد الإمام شامل نفسه.

بعد سقوط دولة الإمام شامل فرض قياصرة روسيا على شعب الشيشان أقسى أنواع العذاب والنكال، وقاموا بتهجير نحو ٣ ملايين مسلم من أهل الشيشان

والقواز سنة ١٨٦٤م إلى نحو ٢٤ دولة منها بلغاريا وأرمينيا وقبرص ورودس وسوريا، وتم إحلال الروس مكانهم فحدث تخلخل في التركيبة السكانية، وتوسع الروس في إرسال البعثات التنصيرية الأرثوذكسية إلى بلاد الشيشان، ولكن لم يفد ذلك شيئًا مع أهل الشيشان لشدة تمسكهم بالإسلام واعتزازهم به.

*** الشيشان في عهد الشيوعيين:**

عندما قامت الثورة البلشفية حاول الشيوعيون استقطاب شعوب شمال القوقاز خاصة الشعب الشيشاني، فأبقت على كثير من المؤسسات التي استحدثها الإمام شامل بدون تغيير، فأبقت المحاكم الشرعية، كما سمحت لأبناء جبال القوقاز بحمل السلاح وأعفتهم من التجنيد الإلزامي، وذلك كله لكسب قلوب القوقازيين المشهورين بالقوة والبأس للصف الشيوعي، ولكن مع تلك الإجراءات والتسهيلات بنى الشيوعيون داخل بلاد الشيشان شبكة من الحصون العسكرية مما يدل على عدم ثقتها بالشعوب القوقازية.

في تلك الفترة كان أهل القوقاز يفكرون في إقامة اتحاد يضم شعوب شمال القوقاز ويكون بمثابة الجمهورية المستقلة ضمن الاتحاد الروسي المستقل، وبالفعل تأسست في مايو سنة ١٩١٨م جمهورية الجبل المتحد وتضم شعوب شمال القوقاز، فتوجس الشيوعيون من تلك الجمهورية بشدة ولكنهم تربصوا بها قليلاً حتى لا يثور مسلمو القوقاز لو تحرك الشيوعيون مباشرة ضد الجمهورية الوليدة.

أخذ الشيوعيون يعبثون بتشكيل تلك الجمهورية بالتبديل والتغيير والتهجير، فمرة تعتبرها أقاليم مستقلة، وتارة جمهوريات ذات حكم ذاتي، وتارة بالإلغاء

والتجزئة، وأخذ الشيوعيون في البطش بأهل الشيشان والأنجوش على وجه الخصوص، فألغيت المحاكم الشرعية سنة ١٩٢٦م، وعمل الشيوعيون على إلغاء الهوية القوقازية عن طريق تذويب شعوب القوقاز المسلمة في الشعوب الروسية، وعملوا على إلغاء الهوية الدينية الإسلامية بإغلاق المدارس الإسلامية والمساجد والجوامع ومصادرة الأوقاف، ومنع التعليم الديني، ومنع أداء الشعائر الدينية، ومحاربة العلماء واعتقال الشيوخ والمدرسين وإعدام الأئمة والخطباء بتهمة تصديهم للفكر الشيوعي الإلحادي.

وبلغ الاضطهاد الشيوعي مداه في عصر الطاغية ستالين عندما اتهم أهل الشيشان والأنجوش بالتآمر مع الألمان سنة ١٩٤٤م أثناء الحرب العالمية الثانية، وأصدر قراره الظالم بتهجير حوالي نصف مليون مسلم من الشيشان والأنجوش إلى سيبريا وقازاقستان حيث هلك معظمهم جوعًا وبردًا، كما أنه قد حل جمهورية الشيشان والأنجوش وقسَّم أراضيها بين داغستان وأوسيتيا الشمالية، وظل الشيشانيون في المنفى حتى سنة ١٩٥٧م حيث تم إعلان براءتهم مما نسب إليهم وعادوا إلى بلادهم ولكن بعد أن هلك معظمهم وضاعت أملاكهم وديارهم.

*** الشيشان في عهد روسيا الاتحادية:**

ظل المسلمون في الاتحاد السوفيتي عمومًا وفي الشيشان والقوقاز خصوصًا يعانون من أشد أنواع الظلم والطغيان، الذي استهدف دينهم وهويتهم الثقافية والقومية من أجل تذويب تلك الشعوب المسلمة الأبية، طوال سبعين سنة ظن خلالها المتابع للأحداث أنه لم يعد بالاتحاد السوفيتي إسلام ولا مسلمين، حتى بلغ

الكتاب أجله وانهار ذلك العملاق الضخم وتجزأت أقاليمه وسقطت مناهجه وأفكاره الإلحادية، وفي يوم ٨/ ١٢/ ١٩٩١م تم إعلان تفكيك الاتحاد السوفيتي في مؤتمر «مينسيك» عاصمة روسيا البيضاء، وأعلنت كل من أوكرانيا وروسيا البيضاء وجمهوريات وسط آسيا الإسلامية والقوقاز استقلالها.

أصبحت روسيا الاتحادية وعاصمتها موسكو (وهي موطن الروس الكبار أو الأصليين) وريثة الاتحاد السوفيتي الهالك في الأمم المتحدة، وحتى لا تفقد روسيا الاتحادية مكانتها بين دول المنطقة والعالم، أعلنت تمسكها بالجمهوريات والمقاطعات ذات الحكم الذاتي أيام الشيوعيين، وبالتالي أصبحت بلاد الشيشان والداغستان وأوسيتيا الشمالية كلها خاضعة للروس مرة أخرى.

برز على ساحة الأحداث في الشيشان القائد البطل (جوهر دوداييف) وكان جنرالاً في الجيش الروسي قد استقال من منصبه وعاد إلى بلاده الشيشان، وترشح لرياسة الجمهورية فنجح باكتساح، وذلك في شهر نوفمبر ١٩٩١م، وقد حلف على المصحف الشريف أثناء أدائه لليمين الرئاسية، وتعهد بالعمل على استقلال البلاد، بل إنه بالفعل أعلن استقالها في مؤتمر ضخم حضره الألوف بالعاصمة الشيشانية «جروزني» وقد أطلق عليها اسم الجمهورية الإسلامية الشيشانية وذلك سنة ١٩٩١م.

أغاظت هذه الدولة الإسلامية الوليدة أعداء الإسلام الروس، ورفضت روسيا الاتحادية الاعتراف باستقلال الشيشان بزعامة (جوهر دوداييف)، وكانت روسيا وقتها تعاني من أزمات داخلية حادة فلم تستطع أن تشن حربًا مباشرة على الشيشان، ولكن تربصت قليلاً حتى أعدت العدة اللازمة للهجوم الكاسح.

*** الحروب الروسية على الدولة الشيشانية:**

كان من الطبيعي والمعقول أن تنال جمهوريات القوقاز الشمالية استقلالها كما حدث لباقي جمهوريات الاتحاد السوفيتي وبالأخص كما حدث مع جمهوريات القوقاز الجنوبية أذربيجان وجورجيا وأرمينيا، ولكن التعنت الصليبي للروس أبى عليهم إلا أن يستمسكوا بشمال القوقاز، ويرفضوا أي محاولة لقيام جمهوريات مستقلة بشمال القوقاز، حتى لو اضطروا لشن حرب صليبية جديدة على مسلمي القوقاز، وهو ما جرى بالفعل.

في ٧ يناير سنة ١٩٩٤م شنت روسيا الاتحادية حملة عسكرية ضخمة مدعومة بالطيران الحربي على جمهورية الشيشان الإسلامية، فأعلن القائد (جوهر دوداييف) الجهاد المقدس لرد عادية الروس الصليبيين، وأقسم على المصحف أمام جنوده وهو يلبس الكفن على القتال حتى الموت، وانضم معظم الشعب الشيشاني لصفوف الجيش لقتال الروس ودار قتال بالغ الضراوة بين الشيشانيين والروس، وفي واحدة من هذه المعارك خر البطل جوهر دودايف شهيدًا بإذن الله بعدما أصيب إصابة مباشرة بقذيفة صاروخية، فحمل راية الجهاد بعده القائد (باندربابيف) وهو المفكر والمنظر الأول للشيشان، وفي عهده برز العديد من قادة المجاهدين المتطوعين مثل (شامل باسييف) الذي قتل الروس عائلته كلها في إحدى المعارك، وقد استطاع هذا المجاهد أن يوجه ضربة قوية للقوات الروسية ألزمتهم طلب الهدنة، واضطر الرئيس الروسي (بوريس يلتسين) إلى عقد مفاوضات مع الشيشانيين، قبل فيه الروس الاعتراف للشيشان بحق تقرير المصير بعد إجراء استفتاء عام، وانسحب الجيش

الروسي من الأراضي الشيشانية وهو يجر أذيال الخيبة والهزيمة المريرة وفي المقابل راح أكثر من خمسين ألف مسلم شيشاني ضحية في هذه الحرب الصليبية المقيتة على شمال القوقاز، وقد انسحب الروس سنة ١٩٩٦م.

الجدير بالذكر أن في الوقت الذي كانت فيه الجيوش الروسية الصليبية في حروب طاحنة ضد الشعب الشيشاني من أجل إسقاط دولة الإسلام الوليدة في القوقاز كانت هناك حرب أشد ضراوة وأكثر صليبية في البلقان، يشنها الصرب الأرثوذكس على مسلمي البوسنة والهرسك، ولنفس السبب وهي محاولة الصرب منع قيام دولة للمسلمين في قلب البلقان، أي أن حقبة التسعينيات من القرن العشرين شهدت حرب صليبية أرثوذكسية عاتية ضد الوجود الإسلامي والكيانات الإسلامية في أوروبا وآسيا من جنس حروب القياصرة ضد الدولة العثمانية في القرن الثامن والتاسع عشر الميلادي.

لم يكن الاتفاق الذي اضطر الروس إلى عقده مع الشيشان سوى هدنة لترتيب الأوراق والتقاط الأنفاس وعقد التحالفات، وذلك استعدادًا لحرب جديدة ضد الشيشان، واتفق الروس مع الأمريكان على عدم التدخل في الحرب الشيشانية في مقابل قيام حلف الأطلنطي الذي تقوده أمريكا بالتدخل في البلقان ضد الصرب الحلفاء التاريخيين والعقائديين للروس، وبعد أن اطمأن الروس لسكوت الأمريكان أو رضاهم على حربهم في الشيشان، اتخذ الروس خطوة أخرى على طريق محاربة الشيشان حيث تم إقالة الرئيس الروسي (بوريس يلتسين) العجوز الذي ثبت فشله وعجزه في الحرب الشيشانية الأولى، وتولى الرياسة مكانه رجل المخابرات القوي

(فلاديمير بوتين) وكان قوميًا روسيًا متعصبًا لصليبيته وروسيته.

وفي أوائل عام ١٩٩٩م شن الروس حملة عسكرية ضخمة ضد الشيشان، وأعلن الزعيم الشيشاني (أصلان مسخادوف) الجهاد في سبيل الله للدفاع عن بلاد الإسلام وبعد معارك طاحنة وخسائر تقدر بعشرات الآلاف من الجانبين احتل الروس العاصمة «جروزني»، فانتقل (أصلان مسخادوف) والمجاهدون إلى الجبال لمواصلة الجهاد ضد الروس، وانتقلت الحرب من حرب المواجهات المفتوحة إلى حرب العصابات للتفاوت الكبير بين الجانبين.

كبد المجاهدون الشيشان القوات الروسية خسائر كبيرة ونقلوا الحرب إلى قلب الأراضي الروسية وشن المجاهدون عمليات خاطفة في العاصمة موسكو أوقعت عددًا كبيرًا من الخسائر المادية والبشرية في الصفوف الروسية، ومع تزايد أعداد القتلى الروس كل يوم لجأ الروس إلى الطريقة القديمة في احتلال البلاد، وهي طريقة اصطناع العملاء الذين يحاربون نيابة عن الروس ضد إخوانهم في الدين والوطن، وبالفعل تم تعيين الخائن العميل الضال (أحمد قادروف) رئيسًا للشيشان بدلاً من الزعيم الوطني (أصلان مسخادوف) سنة ١٩٩٩م، وما يؤسف له بشدة وينفطر له القلب أن هذا الخائن لدينه وقومه كان مفتي الشيشان أيام القائد (جوهر دوداييف) وهو الذي تولى تحليف القائد على المصحف يوم تنصيبه سنة ١٩٩١م، وعندما شن الروس حربهم الأولى على الشيشان كان (قادروف) القائد الروحي للمجاهدين ومرجعيتهم الشرعية، وأجرت معه الصحف الإسلامية في العالم الإسلامي كله العديد من الحوارات والتي كان يدعو فيها العالم الإسلامي لئن يهب لنصرة مسلمي

الشيشان، فسبحان مقلب القلوب والأبصار، كان هذا الخائن يضمر في قلبه حب الزعامة والرئاسة، فلما استشهد البطل جوهر دودايف تطلعت نفسه لمنصب الرئاسة، ولكن الشعب الشيشاني اختار باندربايف ثم أصلان مسخادوف، فانقلب الخائن على بلده وشعب الشيشان ونسي علمه ومكانته الشرعية، وطلب اللجوء إلى روسيا، ومع بداية الحرب الروسية الثانية على الشيشان عاد الخائن على ظهر الدبابات الروسية ليتبوأ مقعد الرياسة الذي باع دينه ووطنه من أجله، فكانت كل قراراته وخطواته وتحركاته من أجل تحجيم المقاومة والقضاء على المجاهدين، فأصدر قرارًا بتحريم الانتماء للسلفية وأطلق على المجاهدين اسم الوهابية كما هي عادة أعداء الإسلام مع مجاهدي أهل السنة، وعاقب بالحبس والقتل كل من يثبت اشتراكه في المقاومة ضد الروس، ووضع خطة شيطانية بالاشتراك مع أسياده الروس لاغتيال كل من القائد البطل (أصلان مسخادوف) والقائد المفكر (باندربايف) الذي كان موجودًا وقتها في قطر لحشد التأييد الدولي لقضية الشيشان.

ظل الخائن (قادروف) حربًا على الإسلام والمسلمين بالشيشان تدعمه روسيا بكل قوة حتى لاقى جزاء أفعاله الشريرة واستطاع المجاهدون سنة ٢٠٠٦م أن يقتلوه ومجموعة كبيرة من قادة الجيش الروسي في حفل ذكرى الحرب الثانية على الشيشان في واحدة من أنجح ضربات المجاهدين ضد الروس وعملائهم.

وما زالت الحرب قائمة حتى الساعة على أرض الشيشان وإن كانت المقاومة قد خفت حدتها تحت وطأة الهجمات الروسية وعملائها بالداخل، وبسبب استشهاد الكثير من قادة المقاومة الشيشانة، ومع ذلك ما زالت روسيا عاجزة عن السيطرة

الكاملة على أرض الشيشان رغم التفاوت الضخم بين القـوتين، ومـا زالـت المـسألة الشيشانية صعبة الحل والإنهاء، على الرغم من التجاهل الدولي والعـربي والإسـلامية لمأساة مسلمي الشيشان، ومهما تكـن النهايـة فـإن مـسلمي الشيـشان في النهايـة هـم المنتصرون بإذن الله عز وجل.

* * *

المصادر والمراجع

١ـ الاتجاهات الوطنية، د. محمد محمد حسين، دار الرسالة، الطبعة التاسعة ١٩٩٢م.
٢ـ الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، الناصري السلاوي.
٣ـ استقلال ليبيا، أ. سامي الحكيم، الأنجلو مصرية ١٩٧٠م.
٤ـ الإسلام في أرخبيل الملايو.
٥ـ أطلس تاريخ الإسلام، أ. د. حسين مؤنس، دار الزهراء، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
٦ـ أطوار العلاقات المغربية العثمانية، أ. إبراهيم شحاتة، منشأة المعارف، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
٧ـ الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، الشيخ عبد الحي الندوي، دمشق ١٩٨٠م.
٨ـ أعيان القرن الثالث عشر، خليل مردم بك، مؤسسة الرسالة ١٤١٠هـ.
٩ـ الأقليات الإسلامية في آسيا، أ. سيد عبد المجيد بكر، الرياض ١٩٩٢م.
١٠ـ الأقليات الإسلامية، أ. محمود شاكر، المكتب الإسلامي ١٩٨٨م.
١١ـ إندونيسيا، الشيخ علي الطنطاوي، بيروت ١٩٧٢م.
١٢ـ بداية المأساة (التمهيد السياسي للاحتلال الإيطالي) أ. محمد مصطفى بازامة، بنغازي ١٩٦١م.
١٣ـ تاريخ آسيا الحديث والمعاصر، د. رأفت الشيخ وآخرون، دار عين، طبعة ٢٠٠٤.
١٤ـ تاريخ الإسلام في بانتن، أحمد السقاف.
١٥ـ التاريخ الإسلامي، أ. محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٩٩٤م.
١٦ـ تاريخ الجبرتي، عبد الرحمن الجبرتي، مطبعة الأنوار المحمدية ـ القاهرة.

١٧ـ تاريخ الجزائر الحديث، أ. محمد خير فارس، دار الشروق، الطبعة الثانية ١٩٧٩م.
١٨ـ تاريخ الجزائر العام، أ. عبد الرحمن الجيلالي، دار الثقافة، الطبعة الرابعة ١٩٨٠
١٩ـ تاريخ الدولة السعدية، أ. عبد الكريم كريم.
٢٠ـ تاريخ الدولة العلية، أ. محمد فريد وجدي، دار النفائس.
٢١ـ تاريخ العالم الإسلامي في آسيا، د. إسماعيل ياغي، الرياض ١٩٩٣م.
٢٢ـ تاريخ القوقاز، محمود عبد الرحمن، دار النفائس ١٩٩٥م.
٢٣ـ تاريخ المسلمين في الهند، د. عبد المنعم النمر، القاهرة ١٩٥٨م.
٢٤ـ تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية، د. أحمد محمود الساداتي، القاهرة ١٩٧٧م.
٢٥ـ تاريخ المغربي، أ. محمد عبود، دار الطباعة المغربية، الطبعة الثانية.
٢٦ـ تاريخ شرقي الجزيرة العربية، أ. أحمد مصطفى، القاهرة ١٩٦٨م.
٢٧ـ تاريخ مصر الحديث والمعاصر، مجموعة من الباحثين، منشأة المعارف.
٢٨ـ تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، د. صلاح الدين هاشم.
٢٩ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أ. مازن صلاح، دار القلم، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.
٣٠ـ جهاد شعب الجزائر، أ. باسم العسلي، دار النفائس، الطبعة الثانية ١٩٨٦م.
٣١ـ حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تعليق شكيب أرسلان، دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٣م.
٣٢ـ حرب الثلاثمائة بين الجزائر وإسبانيا، أ. أحمد توفيق، دار المدني، الطبعة الثانية ١٩٨٤م.
٣٣ـ الحركة السنوسية، د. علي الصلابي، مكتبة الإيمان، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

٣٤ـ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق البيطار، المجمع العلمي العربي بدمشق.

٣٥ـ خير الدين باربروسا، أ. باسم العسلي، دار النفائس، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.

٣٦ـ دراسات في التاريخ المصري، أحمد سيد دراج، دار النهضة ١٩٧٦م.

٣٧ـ الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي وآخرون، دار الوفاء، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٣٨ـ الشرق والتسامي، د. علي الصلابي، مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

٣٩ـ الشيشان، د. محمد حرب، القاهرة ١٩٩٦م.

٤٠ـ صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، أ. غسَّان الرمال، دار العلم ١٩٨٥م.

٤١ـ صفحات من تاريخ إندونيسيا المعاصرة، أ. محمد أسد شهاب، بيروت ١٩٧٢م.

٤٢ـ العدوان (الحرب بين إيطاليا وتركيا في ليبيا) أ. محمد مصطفى بازامة، طرابلس ١٩٦٥م.

٤٣ـ عمر المختار، محمد الطيب الأشهب، القاهرة ١٩٥٦م.

٤٤ـ عوامل نهوض وسقوط الدول العثمانية، د. علي الصلابي، مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

٤٥ـ في تاريخ العرب الحديث وجهاد الأندلسيين، د. رأفت الشيخ، دار الثقافة.

٤٦ـ قضية كشمير المسلمة، أ. أبو الأعلى المودودي، الرياض ١٩٧٠م.

٤٧ـ كشمير ميراث متنازع عليه، ترجمة سهيل زكار، دمشق ١٩٩٢م.

٤٨ـ الكشوف الجغرافية البرتغالية والإسبانية، أ. شوقي الجمل، القاهرة ١٩٩٥م.

٤٩ـ كفاح المسلمين في تحرير الهند، د. عبد المنعم النمر، الهيئة العامة للكتاب، الطبعة الثانية ١٩٩٠م.

٥٠ـ ليبيا بين الماضي والحاضر، د. حسن سليمان، القاهرة ١٩٦٢م.

٥١ـ ليبيا من الاحتلال الإيطالي حتى الاستقلال، د. نقولا زيادة، القاهرة ١٩٥٨م.

٥٢ـ ليبيا منذ الفتح العثماني، تعريب خليفة التليسي، دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٩٧٤

٥٣ـ مأساة كشمير، د. إحسان حقي، الرياض ١٩٧٠م.

٥٤ـ المختار المصون، د. محمد بن حسن بن عقيل، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٥٥ـ المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، أ. محمود شاكر، لمكتب الإسلامي ١٤٠٢هـ.

٥٦ـ المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز، جامعة الأزهر ١٩٩٦م.

٥٧ـ المسلمون في الاتحاد السوفيتي، أ. محمد علي البار، دار الشروق ١٤٠٣هـ.

٥٨ـ المسلمون في العالم تاريخيًا وجغرافيًا، د. رأفت الشيخ، القاهرة ١٩٩٦م.

٥٩ـ المسلمون في المعسكر الشيوعي، د. علي المنتصر الكتاني، رابطة العالم الإسلامي ١٩٧٣م.

٦٠ـ المسلمون في الهند، أبو الحسن الندوي، لكهنؤ ـ الهند ١٩٨٧م.

٦١ـ مظاهر المقاومة الجزائرية، أ. محمد الطيب العلوي، دار البعث، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

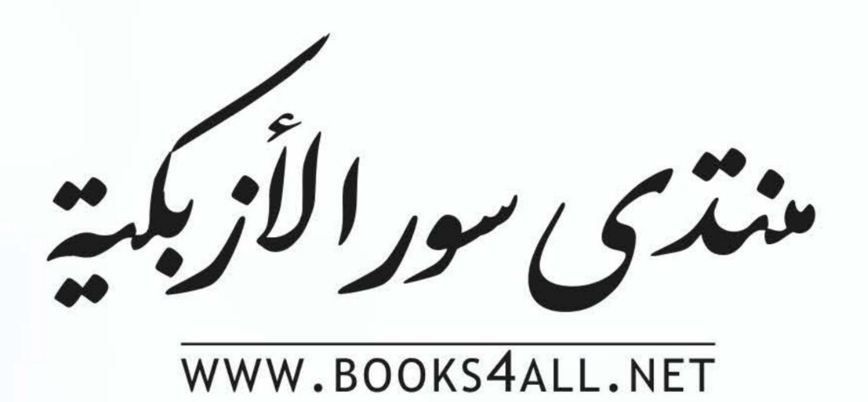
٦٢ـ المغرب العربي الكبير، أ. شوقي الجمل، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى ١٩٧٧م.

٦٣ـ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، الشيخ محمد الطيب القادري، تطوان ـ المغرب ١٣٧٠هـ.

٦٤ـ النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، نوال صيرفي، مطبوعات دار الملك عبد العزسز ١٩٨٣م.

فهرس

* * *


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

هذا الكتاب

إن من أهم الحقائق التاريخية الثابتة في حياة هذه الأمة، والتي مهما حاولت آلة الدعاية العدائية للعالم الإسلامي تحريفها أو طمسها ستظل ثابتة لا تقبل الجدال والمشاحاة، هذه الحقيقة أن كل الحروب التي شنها أعداء الأمة الإسلامية والعربية ضدها ، كانت حروبا دينية في المقام الأول.

حيث كان الحقد الديني والخلاف العقائدي هو المحرك الرئيسي لتلك الحروب كلها، وأي دوافع أو مبررات سياسية أو اقتصادية أو ديموغرافية أو حتى إستباقية أو وقائية، تأتي كلها في مرتبة ثانوية ولخدمة البعد الديني في الصراع.

ولقد شهد العالم الإسلامي والعربي في الحقبة المعاصرة سلسلة متتالية من الحروب الدينية الشرسة ،شنها أعداء الأمة على اختلاف توجهاتهم، وتباين عقائدهم ، تحت مسميات شتى، كلها وهمية أريد بها التعمية عن الهدف الحقيقي للصراع ، من هذه المسميات الإستعمار ، الكشوف الجغرافية ، والتحكم في المضائق ، الوصول للمياه الحرة، وآخرها وأعجبها نشر الحريات والديمقراطيات في شعوب العالم الإسلامي والعربي.

وحقيقة الأمر أنها كلها حروب دينية تغذيها الأحقاد والضغائن الموروثة علي الأمة الإسلامية،لذلك وجب علينا كشف حقيقة هذا الصراع الأبدي والخالد بين العالم الإسلامي وأعدائه، وتعريف أبناء الأمة بالخداع الذي ظل أعداء الأمة يعملون علي تسويقه لعهود في عقولنا، والله من وراء القصد.

المؤلف



مصر - القاهرة
٤٢ ش جزيرة بدران / أول شبرا ت وفاكس ٢٥٧٧٤٩٢١
E.mail darelsafwah@yahoo.com

القسطاوي للطباعة
0020101999555